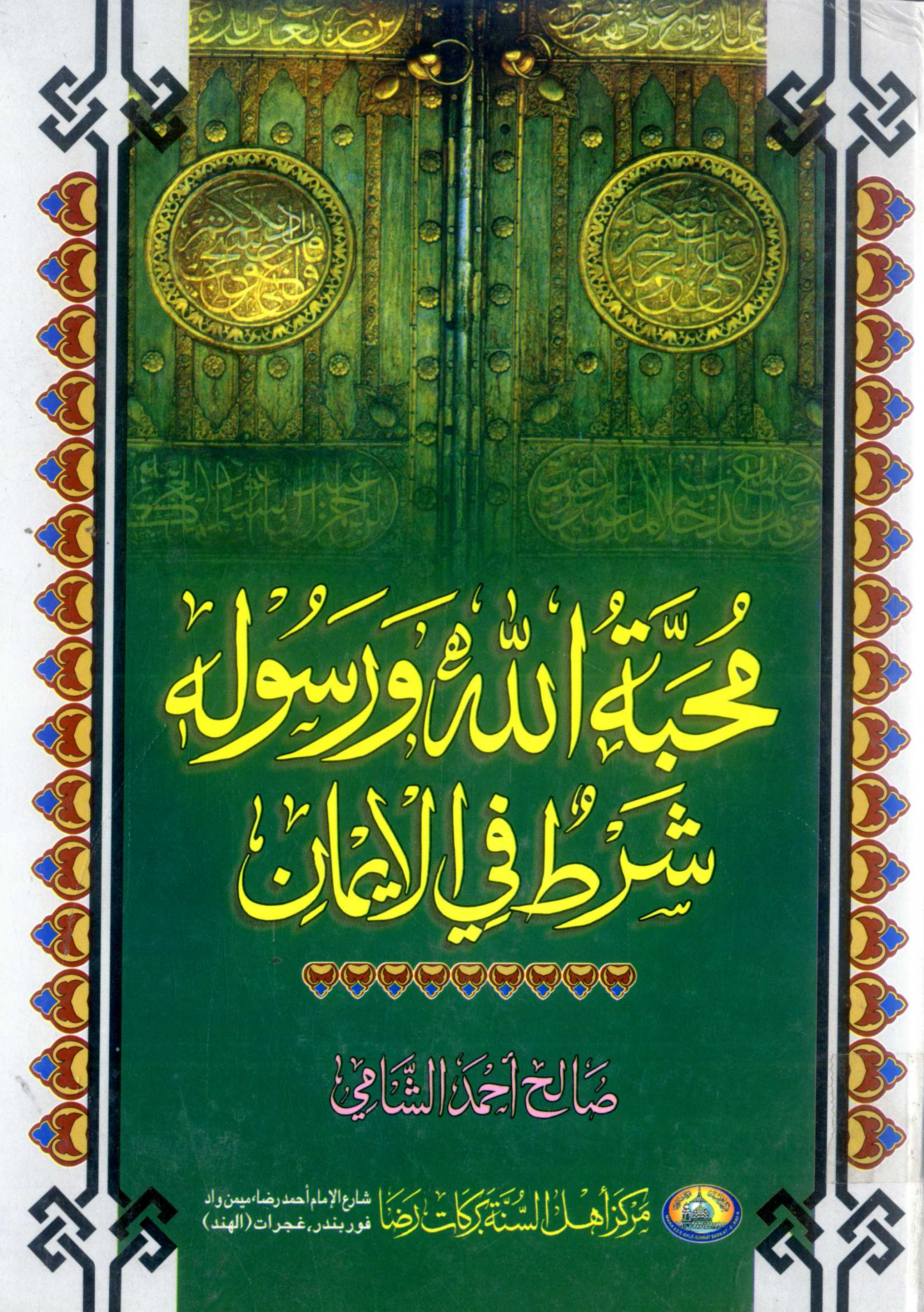


محبة الله ورسوله
شرط في الإيمان
صالح أحمد الشامي
مركز أهل السنة بركات رضا
شارع الإمام أحمد رضا، ميمن واد
فوربندر، غجرات (الهند)



صالح أحمد الشامي

مركز أهل السنة بركات رضا للنشر والتوزيع والتأليف والترجمة
شارع الإمام أحمد رضا، ميمن واد،
فوربندر، غجرات (الهند)

الطبعة الأولى

١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م

الترقيم الدولي

مركز أهل السنة بركات رضا

للطباعة و النشر و التوزيع

شارع الإمام أحمد رضا ، ميمن واد، فوربندر، غجرات (الهند)

تلفون : ٠٩١-٢٨٦-٢٢٢٠٩٩٦

فاكس :تلفون : ٠٩١-٢٨٦-٢٢٢٢٠٣٩

البريد الإكتروني : hamdani786@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، والصلاة والسلام علىٰ إمام الأنبياء وسيد المرسلين، سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبَعْـد؛

فإن الله ـ سبحانه ـ كرَّم الإنسان بالعقل، وأتاح له حرية الاختيار في أعظم قضية وهي قضية الإيمان، فقال تعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾.

فالطريق واضحة لا غبش فيها.

فمَن قُدرت له السعادة سلك طريق الرشد، فكفر بالطاغوت، وآمن بالله، وبهذا يكون قد أحرز نفسه واستمسك بالعروة الوثقىٰ التي لا انفصام لها.

والإيمان ـ كما قال الإمام البخاري ـ: «قول وفعل، ويزيد وينقص، والحب في الله والبغض في الله من الإيمان».

فجعل «الحب في الله والبغض في الله» من الإيمان.

وقد جاء هذا المعنىٰ، بل هذا النص في أحاديث كثيرة.

وجاء الحديث المتفق عليه ليقرر أن طعم الإيمان وحلاوته لا يتحقق وجودهما في ذات الإنسان المسلم إلا بثلاثة أمور:

- أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

- وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

- وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار.

ولما كانت هذه القضية - قضية الحب والبغض في الله - عنصراً أصيلاً في بناء الإيمان، لا يستكمل وجوده إلا من خلالها، أحببت أن أتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

إنها صفحات حرّرتها لنفسي أولاً، حتىٰ يتضح لها هذا الجانب من قضية الإيمان، ثم رأيت أن أضعها بين الأيدي، جهداً متواضعاً، حسب طاقتي وإمكاناتي. لعل الله أن ينفع بها.

وقد جاء عرض الموضوع في عدة أبواب:

خُصص الباب الأول منها للمعلومات العامة التي تعد تمهيداً للبحث وتوطئة له.

والباب الثاني: للحديث عن «محبة الله تعالىٰ» وفيه فصول.

والباب الثالث: وفيه عرض لمحابِّ الله تعالىٰ، وفيه فصول.

والباب الرابع: للحديث عن: «محبة الرسول ﷺ» وفيه فصول.

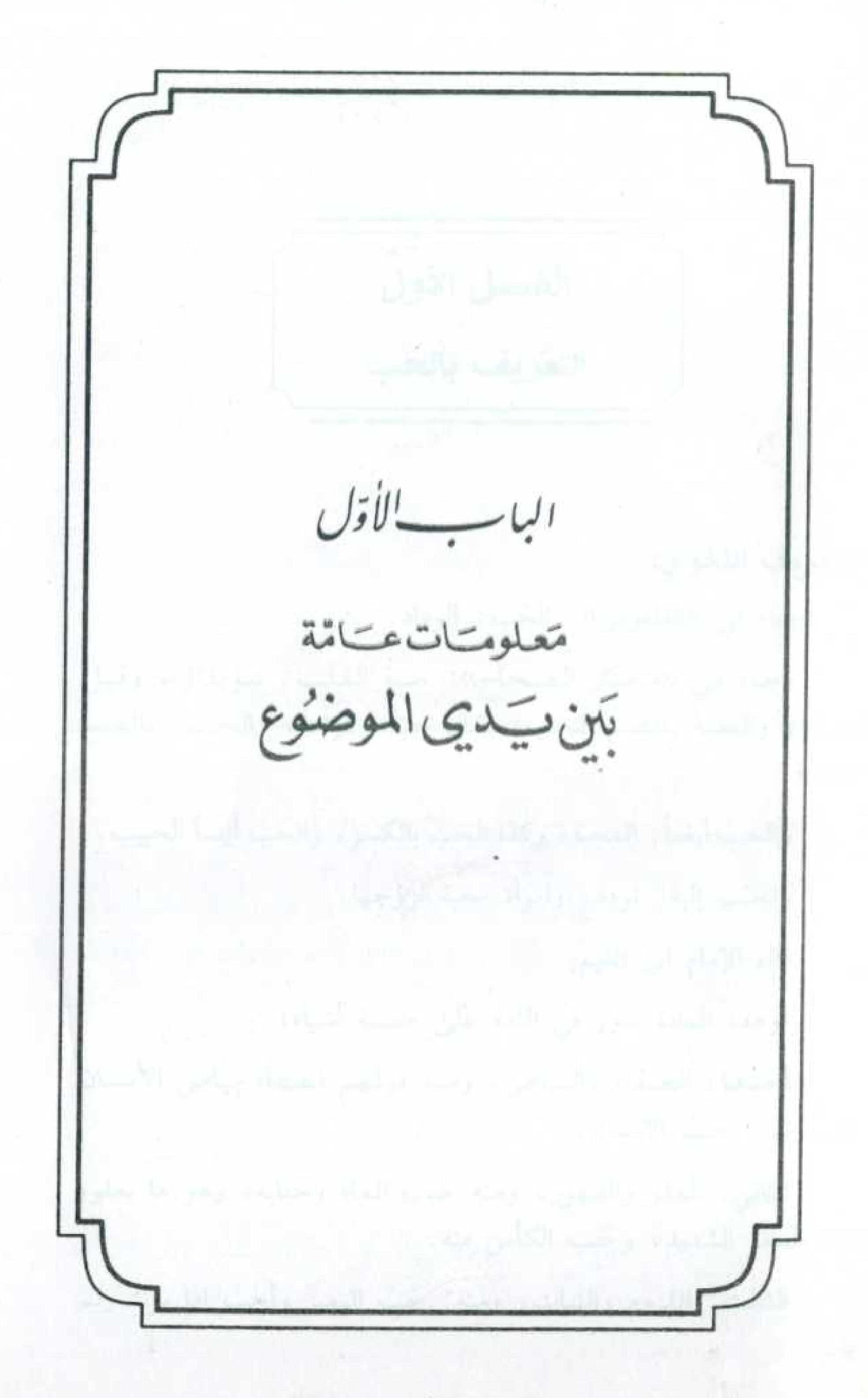
والباب الخامس: للحديث عن الحب في المجتمع الإسلامي.

هذا، وأرجو الله تعالىٰ أن يجعل هذا العمل، وسائر أعمالي، خالصة له، وأن ينفع بها، إنه نعم المسؤول، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلّم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢٩ صفر ١٤٢٤ هـ

١ أيار ٢٠٠٣م

صالح أحمد الشامي



الباب الأول

معلومات عامة

بين يدي الموضوع

الفصل الأول

التعريف بالحب

التعريف اللغوي:

جاء في «القاموس»: الحُب: الوداد.

وجاء في «مختار الصحاح»: حبة القلب: سويداؤه، وقيل ثمرته، والحبة بالضم الحب، يقال حبة وكرامة، والحب: بالضم الخابية.

والحب أيضاً: المحبة، وكذا الحب بالكسر، والحب أيضاً الحبيب.

وتحبّب إليه: تودد، وامرأة محبة لزوجها.

قال الإمام ابن القيم:

«وهذه المادة تدور في اللغة علىٰ خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض، ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حَبَبُ الأسنان.

الثاني: العلو والظهور، ومنه حَبَب الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحَبَب الكأس منه.

الثالث: اللزوم والثبات، ومنه: حَبَّ البعير وأحب إذا برك ولم يقم.

الرابع: اللب، ومنه: حبة القلب، للُبِّه وداخله، ومنه: الحبَّة، لواحدة الحبوب، إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه.

الخامس: الحفظ والإمساك، ومنه: حِبُّ الماء: للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنىٰ الثبوت أيضاً.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة، فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب، وعلوها وظهورها منه لتعلقها بالمحبوب المراد، وثبوت إرادة القلب للمحبوب، ولزومها لزوماً لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبَّه، وأشرف ما عنده، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه علىٰ محبوبه.

فاجتمعت فيها المعاني الخمسة»[1].

وقد سبقه إلىٰ بعض هذا صاحب «الرسالة القشيرية»، وأضاف اشتقاقات أخرى[2].

التعريف الاصطلاحي:

الحب: عاطفة من عواطف الإنسان، ومعنىً من المعاني، ولهذا كان من الصعب تعريفه بالحد الجامع المانع، إذ هو يختلف من إنسان لآخر بحيث لا يتماثل في شخصين، بل ليس لدينا من الوسائل ما نقيس به هذه العاطفة، وإنما يُتحدث عنها من خلال آثارها.

ولهذا لا نجد أحداً وضع حداً لهذه العاطفة، وكل ما قيل إنما هو تعبير وصفي لما قام بنفس المتكلم، لا يقتحم حقيقة الأمر، ولا يصل إلىٰ عنصرها.

(١) «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم ٣/٩ ـ ١٠.

(٢) «الرسالة القشيرية» للعلامة عبدالكريم القشيري، ص٣٢٠، تحقيق معروف زريق وزميله.

ولهذا نجد علماً من الإعلام كالإمام الغزالي يكتفي في هذا المجال بالإشارة إلىٰ المعنىٰ اللغوي فيقول:

«والمحبة في وضع اللسان: عبارة عن ميل النفس إلىٰ الشيء الموافق»[1].

وقال الإمام ابن القيم:

«قال أبو العباس[2]: «وأما المحبة، فقد أشار أهل التحقيق في العبارة عنها، وكل نطق بحسب ذوقه، وانفسح بمقدار شوقه».

قلت: الشيء إذا كان في الأمور الوجدانية الذوقية التي إنما تعلم بآثارها وعلاماتها، وكان مما يقع فيه التفاوت بالشدة والضعف، وكان له لوازم وآثار وعلامات متعددة، اختلفت العبارات عنه بحسب اختلاف هذه الأشياء.

وهذا شأن المحبة، فإنها ليست ـ بحقيقة معانيها ـ تُرىٰ بالأبصار، فيشترك الواصفون لها في الصفة. وهي في نفسها متفاوتة أعظم تفاوت. كما بين العلاقة التي هي تعلق القلب بالمحبوب، والخلة التي هي أعلىٰ مراتب الحب، وبينهما درجات متفاوتة تفاوتاً لا ينحصر.

ولها آثار توجبها وعلامات تدل عليها، فكل أدرك بعض علاماتها فعبّر بحسب ما أدركه، وهي وراء ذلك كله: ليس اسمها كمسمّاها، ولا لفظها مبيِّن لمعناها.

فالحدود والرسوم التي قيلت في المحبة صحيحة غير وافية بحقيقتها، بل هي إشارات وعلامات وتنبيهات»[3].

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» إعداد: صالح أحمد الشامي ٢/٣٧٧.

(٢) هو أبو العباس أحمد بن محمد الصنهاجي الأندلسي، المعروف بابن العريف. المتوفىٰ سنة (٥٣٦هـ)، الصوفي الزاهد ذا عناية بالقراءات وجمع الروايات. وكان متناهياً في الفضل والدين «شذارات الذهب».

(٣) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.

وقال أيضاً:

«لا تُحد المحبة بحد أوضح منها. فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء. فحدها وجودها. ولا توصف المحبة بوصف أظهر من «المحبة».

وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها. فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة. وتنوعت بهم العبارات. وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة»[1].

(١) «مدارج السالكين» للإمام ابن القيم ٩/٣.

الفصل الثاني
مكانة المحبة

آراء الأئمة:

ذهب معظم الذين تكلموا في هذا الموضوع إلى أن المحبة هي المركز الذي تصدر عنه كل حركة في هذا الوجود الإنساني.

وكل المكارم الأخرى والمقامات الكريمة، إما مقدّمة من مقدمات المحبة أو ثمرة من ثمراتها.

ويحسن بنا أن نقف على بعض هذه الأقوال:

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«المحبة لله هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق والأنس والرضا، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها، كالتوبة والصبر والزهد»[1].

وقال الإمام ابن تيمية :

«محبة الله؛ بل محبة الله ورسوله، من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده؛ بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان

(١) «إحياء علوم الدين» ٢٩٤/٤.

والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان، والدين؛ فإن كل حركة في الوجود إنما تصدر عن محبة: إما عن محبة محمودة، أو عن محبة مذمومة.

فجميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن المحبة المحمودة، وأصل المحبة المحمودة هي محبة الله سبحانه وتعالىٰ، إذ العمل الصادر عن محبة مذمومة عند الله لا يكون عملاً صالحاً، بل جميع الأعمال الإيمانية الدينية لا تصدر إلا عن محبة الله؛ فإن الله تعالىٰ لا يقبل من العمل إلا ما أريد به وجهه. كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (يقول الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو كله للذي أشرك)(1).

وقال الإمام ابن القيم عن منزلة المحبة:

«وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون. وإليها شخص العاملون. وإلىٰ عَلَمها شمّر السابقون. وعليها تفانىٰ المحبُّون. وبرَوْح نسيمها تروَّح العابدون. فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون. وهي الحياة التي مَن حُرمها فهو من جملة الأموات. والنور الذي مَن فقده فهو في بحار الظلمات. والشفاء الذي مَن عدمه حلّت بقلبه جميع الأسقام. واللذة التي مَن لم يظفر بها فعيشه كله هموم وآلام. وهي روح الإيمان والأعمال.. التي متىٰ خلَت منها فهي كالجسد الذي لا روح فيه.

تالله لقد ذهب أهلها بشرف الدنيا والآخرة. إذ لهم من معية محبوبهم أوفر نصيب. وقد قضى الله - يوم قدّر مقادير الخلائق بمشيئته وحكمته البالغة -: أن المرء مع مَن أحب.. فيا لها من نعمة علىٰ المحبين سابغة»(2).

(1) «الفتاوىٰ» ١٠/٤٨ - ٤٩، والحديث رواه مسلم (٢٩٨٥).

(2) «مدارج السالكين» ٣/٦ - ٧.

منزلة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾:

تلك بعض آراء الأئمة في مكانة المحبة، وإنه لمما يؤيد هذه الأقوال ما جاءت به الآية الكريمة في قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ...﴾ [المائدة: ٥٤].

فإن السياق مشعر بأن مكانة ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ لا تعدِلُها مكانة أخرىٰ، وهي منزلة لا ترتقي إليها منزلة، فقد جاء الحديث عنها في مجال التهديد للمرتدين بالاستبدال، والتلويح لهم باختيار قوم فيهم من الصفات العليا ما يجعلهم محلاً لاختيار الله لهم خاصة عوضاً عن أولئك المرتدين.

إن هذا الوصف الذي وصفهم الله به ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ في هذا السياق دليل علىٰ منزلة عالية لا تُنال بالكسب بل تُنال بفضل الله، وهو ما جاء في ختام الآية الكريمة ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

بل إن تقديم قوله ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ علىٰ قوله ﴿وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ فيه من دلالة الاصطفاء والاختيار ما فيه. ولذلك كان الوصول إلىٰ هذه المنزلة إنما يكون بفضل الله تعالىٰ.

وقد يكون من المستحسن أن نتفيأ ظلال هذه الآية بعض الوقت، علّنا نستروح نفحة من فيض معناها الجليل.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

«فالحب والرضا المتبادل هو الصلة بينهم وبين ربهم.. الحب.. هذا الروح الساري اللطيف الرفّاف المشرق الرائق البشوش.. هو الذي يربط القوم بربهم الودود.

وحب الله لعبد من عبيده، أمر لا يقدر علىٰ إدراك قيمته إلا من يعرف الله سبحانه بصفاته كما وصف نفسه، وإلا من وجد إيقاع هذه

الصفات في حسه ونفسه وشعوره وكينونته كلها.. أجل، لا يقدر حقيقة هذا العطاء إلا الذي يعرف حقيقة المعطي.. الذي يعرف من هو الله.. من هو صانع هذا الكون.. من هو في عظمته، ومن هو في قدرته، ومن هو في تفرده.. من هو، ومن هذا العبد الذي يتفضل الله عليه منه بالحب.. والعبد من صنع يديه ـ سبحانه ـ وهو الجليل العظيم، الحي الدائم، الأزلي الأبدي، الأول والآخر والظاهر والباطن.

وحب العبد لربه، نعمة لهذا العبد لا يدركها كذلك إلا من ذاقها.. وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً هائلاً عظيماً، وفضلاً غامراً جزيلاً، فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه.. هو إنعام هائل عظيم.. وفضل غامر جزيل.

وإذا كان حب الله لعبد من عبيده أمراً فوق التعبير أن يصفه، فإن حب العبد لربه أمر قلّما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين.. وهم قليل.. ولا زالت أبيات رابعة العدوية تنقل إلى حسي مذاقها الصادق لهذا الحب الفريد، وهي تقول:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب
إذا صح منك الودّ فالكل هين ... وكل الذي فوق التراب تراب

والتصور الإسلامي يربط بين المؤمن وربه بهذا الرباط العجيب الحبيب.. وليست مرة واحدة، ولا فلتة عابرة.. إنما هو أصل وحقيقة، وعنصر في هذا التصور أصيل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وغيرها كثير..

إن نصاعة التصور الإسلامي في الفصل بين حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لا تجفف ذلك الندىٰ الحبيب بين الله والعبيد.

فهي علاقة الحرمة كما أنها علاقة العدل.

وهي علاقة الود كما أنها علاقة التجريد.

وهي علاقة الحب كما أنها علاقة التنزيه..»[1].

هذه الوقفة في ظلال هذه الآية الكريمة، كانت ضرورة، لتساعد على فهم الآراء التي سبق ذكرها للأئمة الأعلام.

نستطيع الآن أن نفهم قول الإمام الغزالي، وقول الإمام ابن تيمية، وقول الإمام ابن القيم.. وقول غيرهم ممن تكلموا بهذا الشأن..

ويظل ظلال قوله تعالىٰ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وارفاً ممتداً تسرح العين في أجوائه فلا تتوقف، ويسرح الفكر في معناه فإذا هو أمام عظمة الله ورحمته وحبه ورضاه.

فليس العجب من قوله ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ إنما العجب من قوله ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ كما قال الإمام ابن القيم[2]..

---

(١) «في ظلال القرآن» عند شرح الآية الكريمة.

(٢) «مواعظ الإمام ابن القيم» ص١٥٥، المكتب الإسلامي.

الفصل الثالث
أنواع المحبة

تعددت آراء العلماء بشأن بيان أنواع المحبة، ولكنهم متفقون علىٰ إرجاع ذلك إلىٰ قسمين:

الأول: محبة تتعلق بالله تعالىٰ، وهو المحبوب لذاته، وليس شيء يحَب لذاته إلا الله وحده.

الثاني: محبة مشتركة بين العباد، وهي تنقسم بدورها إلىٰ أنواع، وهي التي تعددت فيها الآراء، وتنوعت الاجتهادات في بيانها.

ونذكر منها:

١ ـ حب الذات، وهي محبة الإنسان نفسه.

وهذا الحب أمر فطري، وقد بيّنه عمر ﷺ عندما قال للرسول ﷺ: «يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي»[(١)].

وقد أقرّ الإسلام هذا النوع من الحب، وجعل الدفاع عن النفس أمراً واجباً عندما يتهددها خطر ما.

وجعل درجة الشهادة جزاء لمن بذلها في سبيل الله في مواطن الجهاد.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٦٣٢).

كما طلب من المسلم أن يكون معتدلاً بهذا الحب بحيث لا يوصله إلىٰ درجة الغرور والتعاظم علىٰ الناس والتكبر عليهم، وجعل ذلك من الصفات المذمومة بل والمهلكة عندما يمعن في هذا السبيل.

٢ ـ حب الأهل من الولد والوالد والأخ والقرابة.

وقد جعل الإسلام هذا النوع من الحب تحت عنوان الرحمة والتوقير..

فقد قال ﷺ للأعرابي الذي قال إنه لا يقبّل أولاده: (أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة)[(١)].

والارتباط بالأهل أمر فطري أيضاً ضبط الإسلام شؤونه فأقره وحضّ عليه، ورفع من شأن صلة الرحم وجعل رضا الوالدين والإحسان إليهم مقروناً بعبادته سبحانه وتعالىٰ.

٣ ـ حب الزوج لزوجته وحبها له.

وهي محبة غريزية، دافعها الغريزة الجنسية والشهوة المرتبطة بها. وقد أثنىٰ الإسلام علىٰ هذه المحبة، وجعل من عقدها ميثاقاً غليظاً، وانتقل بهذا الحب من تحت مظلة الغريزة والشهوة البحتة، ليكون في ظلال الود والرحمة كما قال تعالىٰ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

٤ ـ حب ناتج عن ائتلاف الأرواح.

وهو ما جاء في حديث أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف)[(٢)].

قال الخطابي: «يحتمل أن يكون إشارة إلىٰ معنىٰ التشاكل في

---

(١) متفق عليه (خ٥٩٩٨، م٢٣١٧).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٦٣٨)، والبخاري تعليقاً برقم (٣٣٣٦).

الخير والشر، والصلاح والفساد، وأن الخيّر من الناس يحن إلىٰ شكله، والشرير ـ نظير ذلك ـ يميل إلىٰ نظيره، فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جُبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت. ويحتمل أن يراد الإخبار عن بدء الخلق في حال الغيب علىٰ ما جاء أن الأرواح خُلقت قبل الأجسام وكانت تلتقي، فلما حلّت بالأجسام تعارفت بالأمر الأول، فصار تعارفها وتناكرها علىٰ ما سبق في العهد المتقدم»[1].

وفي بعض روايات الحديث: أن امرأة مزاحة كانت بمكة فنزلت علىٰ امرأة مثلها في المدينة، فبلغ ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت: صدق حبي، سمعت رسول الله ﷺ.. وذكرت الحديث[2].

وهذه الحالة من التآلف تعد مقدمة لنوع من الحب ينشأ بعد ذلك.

ويلحق بهذا الحب محبة المشتركين في صفة أو صنعة أو علم..

٥ ـ محبة المثُل والقيم.

الإنسان مفطور علىٰ حب القيم والمثل فإذا بلغه وجود رجل كريم معطاء يجود بماله في مساعدة الآخرين.. أحبّ هذا الرجل ولو لم يره.. وهكذا في كل صفات الخير الأخرىٰ من الشجاعة والرحمة والحلم...

٦ ـ محبة منشؤها فطرة الإنسان.

قال الإمام ابن تيمية: قد يفعل الإنسان «ما هو خير وحق ومحمود في نفسه، لما فيه من المحبة له، لا لله، ولا لغيره من الشركاء، مثل أن يحب الإحسان إلىٰ ذوي الحاجات، ويحب العفو

---

(١) «فتح الباري» ٦/٣٦٩.

(٢) «فتح الباري» ٦/٣٧٠.

عن أهل الجنايات، ويحب العلم والمعرفة وإدراك الحقائق، ويحب الصدق والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وصلة الرحم.

فإن هذا كثير غالب في الخلق في جاهليتهم وإسلامهم في قوّتي النفس العلمية والعملية.

فإن أكثر طلاب العلم يطلبونه محبة. ولهذا قال أبو داود للإمام أحمد بن حنبل: طلبتُ هذا العلمَ ـ أو قال: جمعته ـ لله، فقال: لله عزيز، ولكن: حُبّبَ إليّ أمر ففعلته.

وهذا حال أكثر النفوس.

فإن الله خلق فيها محبة للمعرفة والعلم وإدراك الحقائق، وقد يخلق فيها محبة للصدق والعدل والوفاء بالعهد، ويخلق فيها محبة للإحسان والرحمة للناس، فهو يفعل هذه الأمور، لا يتقرب بها إلىٰ أحد من الخلق. ولا يطلب مدح أحد، ولا خوفاً من ذمه، بل لأن هذه الإدراكات والحركات يتنعم بها الحيّ ويلتذ بها، ويجد بها فرحاً وسروراً، كما يلتذ بمجرد سماع الأصوات الحسنة، وبمجرد رؤية الأشياء البهجة، وبمجرد الرائحة الطيبة.

ومن هذا قول خديجة رضي الله عنها للنبي ﷺ: إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث وتقري الضيف، وتحمل الكلَّ وتكسب المعدوم، وتعين علىٰ نوائب الحق[1].

فهذه الأمور كان يفعلها محبة لها، خُلق علىٰ ذلك وفُطر عليه»[2].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) مسألة فيما إذا كان في العبد محبة لما هو خير وحق ومحمود في نفسه، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم. [وانظر ثبت المراجع].

كانت تلك بعض أنواع المحبة التي ذكرها العلماء.

وقد أرجع الإمام ابن القيم المحبة التي بين الخلق إلىٰ ثلاثة أنواع فقال:

«والمحبة المشتركة ثلاثة أنواع:

أحدها: محبة طبيعية مشتركة، كمحبة الجائع للطعام والظمآن للماء وغير ذلك، وهذه لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثاني: محبة رحمة وإشفاق كمحبة الوالد لولده الطفل ونحوها، وهذه أيضاً لا تستلزم التعظيم.

والنوع الثالث: محبة أنس وإلف، وهي محبة المشتركين - في صناعة أو علم أو مرافقة أو تجارة أو سفر - بعضهم بعضاً، وكمحبة الإخوة بعضهم بعضاً.

فهذه الأنواع الثلاثة هي المحبة التي تصلح للخلق بعضهم من بعض، ووجودها فيهم لا يكون شركاً في محبة الله سبحانه.

ولهذا كان رسول الله ﷺ يحب الحلواء والعسل، وكان أحب الشراب إليه الحلو البارد، وكان أحب اللحم إليه الذراع، وكان يحب نساءه، وكانت عائشة رضي الله عنها أحبهن إليه. وكان يحب أصحابه، وأحبهم إليه الصديق»[1].

هذا أمر المحبة المشتركة بين الخلق.

* * *

ويضع أيضاً تقسيماً آخر للمحبة من حيث نفعها وضررها فيقول:

«**فالمحبة النافعة ثلاثة أنواع**: **محبة الله، والمحبة في الله**، ومحبة ما يعين علىٰ طاعة الله واجتناب معصيته.

(١) «تقريب طريق الهجرتين» للإمام ابن القيم، أعدّه صالح أحمد الشامي، ص٤٢٤.

والمحبة الضارّة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها.

فهذه ستة أنواع، عليها مدار محابِّ الخلق.

فمحبة الله عز وجل أصل المحابِّ المحمودة، وأصل الإيمان والتوحيد، والنوعان الآخران تبع لها»[1].

(١) «إغاثة اللهفان» ٢/١٧٦، دار الكتاب العربي.

الفصل الرابع

المحبة شرط في الإيمان

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة].

وعن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[(١)].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: (لا، والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك) فقال له عمر: فإنه الآن ـ والله ـ لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ: (الآن يا عمر)[(٢)].

قال علماء الأمة بناءً علىٰ هذه النصوص وغيرها: إن محبة الله تعالىٰ ورسوله ﷺ شرط في صحة الإيمان، فلا يكون الإيمان صحيحاً إذا لم يتوفر فيه هذا الحب لله ورسوله.

(١) متفق عليه (خ١٥، م٤٤).
(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٦٣٢).

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن الأمة مجمعة علىٰ أن الحب لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ فرض... وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة...»[(١)].

وقال الإمام ابن تيمية: «محبة الله بل محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين..»[(٢)].

وقال: «والمقصود هنا هو ذكر محبة العباد لإلٰههم، وقد تبين أن ذلك هو أصل أعمال الإيمان، ولم يتبين بين أحد من سلف الأمة من الصحابة والتابعين لهم بإحسان نزاع في ذلك»[(٣)].

وقال القاضي عياض في معرض حديثه عن لزوم محبته ﷺ بعد أن ذكر آية سورة التوبة الآنفة الذكر: «فكفىٰ بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحجة علىٰ إلزام محبته، ووجوب فرضها، وعظم خطرها..»[(٤)].

وخلاصة القول: إنه لا خلاف بين علماء الأمة، بل إنهم مجمعون ـ كما قال الإمام الغزالي ـ علىٰ أن محبة الله ورسوله شرط في صحة الإيمان، أخذاً بدلالة النصوص الكثيرة الواردة في ذلك.

وهو أمر ينبغي أن يكون مستقراً في خلد كل مسلم دافعاً له إلىٰ السعي في الأخذ بأسبابه وكل ما يوصل إليه ويحققه. حتىٰ يكون المهيمنَ علىٰ الفكر والقلب، وعندها يكون في عداد المؤمنين إن شاء الله تعالىٰ.

(١) «إحياء علوم الدين» ٢٩٤/٤.
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ٤٨/١٠.
(٣) «مجموع الفتاوىٰ» ٧٥/١٠.
(٤) «الشفا» للقاضي عياض ٥٦٣/٢، بتحقيق الشيخ محمد علي البجاوي.

الفصل الخامس
منزلة المحبين

منزلة المحبين:

منزلة المحبين منزلة عالية، تشتاقها القلوب وتشرئب إليها الأعناق، وتهفو إليها النفوس، ويكفي أنها مقام المعية.

جاء في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة.

فقال: متى الساعة؟

قال: (وماذا أعددت لها؟).

قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ.

فقال: (أنت مع من أحببت).

قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: (أنت مع من أحببت).

قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم[1].

(١) رواه البخاري (٣٦٦٨)، ومسلم (٢٦٣٩).

وفي رواية لهما:

قال أنس: بينما أنا والنبي ﷺ خارجان من المسجد، فَلَقِيَنَا رجل عند سدة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟

قال النبي ﷺ: (ما أعددت لها؟).

فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله.

قال: (أنت مع من أحببت)[1].

وفي رواية للبخاري:

قال: (إنك مع من أحببت) فقلنا: ونحن كذلك؟ قال: (نعم) ففرحنا يومئذ فرحاً شديداً[2].

وفي حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (المرء مع من أحب)[3].

ومثله عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ[4].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل كعملهم، قال: (أنت يا أبا ذر مع من أحببت) قال: فإني أحب الله ورسوله، قال: (فإنك مع من أحببت) فأعادها أبو ذر، فأعادها رسول الله ﷺ[5].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت:

«جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنك لأحب إلي

(١) رواه البخاري (٧١٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٢) رواه البخاري (٦١٦٧).
(٣) رواه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٢٦٤٠).
(٤) رواه البخاري (٦١٧٠)، ومسلم (٢٦٤١).
(٥) رواه أبو داود (٥١٢٦)، والدارمي (٢٧٨٧).

من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي ومالي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتىٰ آتي فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك، عرفت أنك إذا دخلت الجنة رُفِعْتَ مع النبيين، وأني إذا دخلتُ الجنة خشيت أن لا أراك.

فلم يردَّ عليه النبي ﷺ شيئاً، حتىٰ نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء][1].

الحب يستلزم العمل:

تلك هي منزلة المحبين.

وقد يظن بعضهم أن هذه المنزلة تُنال بمجرد الحب وبغير عمل، وهذا يرده حديث أنس رضي الله عنه الذي قال فيه: «وإن لم أعمل بمثل أعمالهم» فهو قد عَمِلَ وإن كان عمله لا يرتقي إلىٰ مستوىٰ عمل النبي ﷺ وعمل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

وكذلك نصَّت الآية الكريمة علىٰ ذلك فقالت: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ...﴾.

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله:

«إن محبة الله الواجبة تستلزم امتثال طاعته، واجتناب معصيته، وكذلك محبة الرسول ﷺ والتابعين لهم بإحسان.

فالمحبة الصحيحة تقتضي مشاركتهم في أصل عملهم، وإن عجز عن بلوغ غايته، كما قال أنس رضي الله عنه، ولهذا قال السائل للنبي ﷺ: ما

(١) أخرجه في «مجمع الزوائد» (١٠٩٣٧) وقال: رواه الطبراني في «الصغير» و«الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح، غير عبدالله بن عمران وهو ثقة، وكذلك ذكره ابن كثير في «تفسيره».

أعددتُ لها من كبير صلاة ولا صيام ولا صدقة. فدلَّ علىٰ أنه قد أتىٰ من ذلك بما وجب عليه، ولم يأت بأزيد من ذلك»[1].

وقال:

«وقال الحسن بن آدم: لا تغتر بقول من يقول: المرء مع من أحب[2].

إنه مَن أحبَّ قوماً اتبع آثارهم، ولن تلحق بالأبرار حتىٰ تتبع آثارهم، وتأخذ بهديهم، وتقتدي بسنتهم، وتصبح وتمسي وأنت علىٰ منهاجهم، حريصاً علىٰ أن تكون منهم، فتسلك سبيلهم، وتأخذ طريقهم، وإن كنت مقصراً في العمل، فإنما ملاك الأمر أن تكونَ علىٰ استقامة.

أما رأيت اليهود والنصارىٰ وأهل الأهواء المردية، يحبون أنبياءهم، وليسوا معهم لأنهم خالفوهم في القول والعمل، وسلكوا غير طريقهم فصار موردهم النار، نعوذ بالله من ذلك»[3].

وسيأتي تمام بيان لذلك إن شاء الله.

(١) «استنشاق نسيم الأنس» ص١١٩ ـ ١٢٠.

(٢) هو لا يريد أن يطعن في صحة القول، وإنما يريد أن يفهم علىٰ وجهه الصحيح، بحيث يكون العمل تاجاً للحب.

(٣) «استنشاق نسيم الأنس» ص١٢٠.

الفصل السادس

الدعاء بطلب المحبة

قال تعالىٰ:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾ [الحجرات].

فالله سبحانه وتعالىٰ هو الذي حبّب إليهم الإيمان وزيّنه في قلوبهم.

ولذلك كان من دعائه ﷺ:

(اللهم حبّب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين)[1].

أي اجعلنا في عداد عبادك الذين تكرمت عليهم وتفضلت، فحبّبت إليهم الإيمان وزينته في قلوبهم..

ويدخل في الإيمان شرائطه التي منها حب الله تعالىٰ ورسوله ﷺ.

(١) رواه الإمام أحمد، والنسائي في «اليوم والليلة» كما في «تفسير ابن كثير».

فبفضل من الله ونعمة يكون العبد محباً لله تعالىٰ، محباً لرسوله ﷺ.

وإذا كان الأمر كذلك، كان الدعاء أمراً مستحسناً بل لازماً في طلب الدخول تحت مظلة هذا الفضل العظيم. فكان دعاؤه ﷺ: (اللهم حبب إلينا الإيمان..).

وكما أن الدعاء مطلوب لحب الإيمان، فهو مطلوب أيضاً من أجل لوازم الإيمان التي منها حب الله سبحانه وتعالىٰ..

وفي هذا المعنىٰ، جاءت أحاديثه ﷺ تبين لنا صِيَغ الدعاء التي يحسن التوجه بها إليه سبحانه وتعالىٰ في هذا المقام، ومنها:

● ما أخرجه الحاكم في «مستدركه» من حديث معاذ رضي الله عنه قال:

«أبطأ عنا رسول الله ﷺ بصلاة الفجر حتىٰ كادت أن تدركنا الشمس، ثم خرج فصلّىٰ بنا، فخفف في صلاته، ثم انصرف فأقبل علينا بوجهه فقال: (علىٰ مكانكم، أخبركم ما أبطأني عنكم اليوم: إني صليت في ليلتي هذه ما شاء الله، ثم ملكتني عيني فنمت، فرأيت ربي تبارك وتعالىٰ، فألهمني أن قلت: اللهم إني أسألك الطيبات، وفعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تتوب عليَّ، وتغفر لي وترحمني، وإذا أردت في خلقك فتنة فنجني إليك منها غير مفتون. اللهم وأسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلىٰ حبك) ثم أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: (تعلموهن وادرسوهن فإنهن حق)[1].

● وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (كان من دعاء داود، يقول: اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك. اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي، وأهلي، ومن الماء البارد)[2].

(١) «الوابل الصيب» للإمام ابن القيم، ص٢٨٩، المكتب الإسلامي.

(٢) رواه الترمذي (٣٤٩٠) وحسنه، وضعفه الألباني.

● وعن عبدالله بن يزيد ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه: (اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب. اللهم وما زويت عني مما أحب فاجعله لي قوة فيما تحب)[١].

● وعن ابن عباس ﷺ في حديث له طويل منه قوله: سمعت نبي الله ﷺ يقول ليلة حين فرغ من صلاته: (.. اللهم اجعلنا هادين مهتدين، غير ضالين ولا مضلين، سلماً لأوليائك، وعدواً لأعدائك، نحب بحبك من أحبك، ونعادي بعداوتك من خالفك..)[٢].

● وصح من رواية نافع عن ابن عمر ﷺ أنه كان يدعو على الصفا والمروة وفي مناسكه، فيقول في دعائه: اللهم اجعلني ممن يحبك، ويحب ملائكتك، ويحب رسلك، ويحب عبادك الصالحين، اللهم حببني إليك وإلى ملائكتك وإلى رسلك وإلى عبادك الصالحين. في دعاء له كثير[٣].

فمن السنة الدعاء بهذا الشأن.

فاللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك وحب عمل يقرّبني إلى حبك. وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) رواه الترمذي (٣٤٩١) وقال: حسن غريب، وضعفه الألباني.
(٢) رواه الترمذي (٣٤١٩) قال الألباني: ضعيف الإسناد.
(٣) «استنشاق نسيم الأنس» ص٤١.

الباب الثاني

محبّة الله تعالى[١]

الفصل الأول
إثبات صفة المحبة لله تعالى

إثبات صفة المحبة لله تعالى:

جاء إثبات هذه الصفة في الكتاب والسنة، وقد أجمع المسلمون على ذلك.

قال الإمام ابن تيمية :

«فإن الكتاب والسنة وإجماع المسلمين، أثبتت محبة الله لعباده المؤمنين، ومحبتهم له.

كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] ﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: (ثلاث من كن فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما...) الحديث.

وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها على إثبات محبة الله تعالى لعباده

المؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل إمام الحنفاء عليه السلام»[1].

ومن قبله قال الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ مثبتاً لهذه الصفة ونافياً أن تُفسَّر بالطاعة، إذ الطاعة من ثمرات المحبة:

«اعلم أن الأمة مجمعة علىٰ أن الحب لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ فرض، وكيف يفرض ما لا وجود له، وكيف يفسَّر الحب بالطاعة، والطاعة تبع للحب وثمرة له، فلا بد وأن يتقدم الحب، ثم بعد ذلك يطيع من أحب.

ويدل علىٰ إثبات الحب لله تعالىٰ قوله عزّ وجل: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وهو دليل علىٰ إثبات الحب، وإثبات التفاوت فيه.

وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة..»[2].

وقد اقتفىٰ الإمام ابن تيمية أثر الإمام الغزالي في نفي أن تكون المحبة هي الطاعة أو أن تفسَّر بها، بل إننا نراه يستعمل الدليل نفسه.

قال الإمام ابن تيمية في رده علىٰ من قال ذلك:

«لما كان الإسلام ظاهراً، والقرآن متلواً، لا يمكن جحده لمن أظهر الإسلام، أخذوا يلحدون في أسماء الله، ويحرّفون الكلم عن مواضعه. فتأولوا محبة العباد له بمجرد محبتهم لطاعته، أو التقرب إليه!!

وهذا جهل عظيم.

فإنَّ محبة المتقرِّب إلىٰ المتقرَّب إليه، تابع لمحبته وفرع عليه،

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ٢/٣٥٤.

(٢) «إحياء علوم الدين» ٤/٢٩٤.

فمن لا يحب الشيء لا يمكن أن يحب التقرب إليه، إذ التقرب وسيلة، ومحبة الوسيلة تبع لمحبة المقصود، فيمتنع أن تكون الوسيلة إلىٰ الشيء المحبوب هي المحبوب دون الشيء المقصود بالوسيلة»[1].

وقال أيضاً:

«وأيضاً: فالتعبير بمحبة الشيء عن مجرد محبة طاعته، لا عن محبة نفسه أمر لا يعرف في اللغة لا حقيقة ولا مجازاً، فحمل الكلام عليه تحريف محض أيضاً.

وأيضاً: فقد فرق بين محبته ومحبة العمل له في قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] كما فرّق بين محبته ومحبة رسوله[2] في قوله تعالىٰ: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فلو كان المراد بمحبته ليس إلا محبة العمل لكان هذا تكريراً، أو من باب عطف الخاص علىٰ العام، وكلاهما علىٰ خلاف ظاهر الكلام الذي لا يجوز المصير إليه إلا بدلالة تبين المراد. وكما أن محبته لا يجوز أن تفسَّر بمجرد محبة رسوله، كذلك لا يجوز تفسيرها بمجرد محبة العمل له. وإن كانت محبته تستلزم محبة رسوله ومحبة العمل له»[3].

إثبات صفة المحبة من غير تأويل:

وإذا تبين إثبات صفة المحبة، كما وردت النصوص بذلك، فإن هذا الإثبات ينبغي ألا يدخله تأويل.

وهذا ما ذهب إليه سلف هذه الأمة من إقرار المحبة علىٰ ما هي عليه، وذلك يشمل طرفي هذه المحبة وهما:

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٦٩.

(٢) لأن العطف يقتضي المغايرة.

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٧١ ـ ٧٢.

محبة العبد لله تعالىٰ.

ومحبة الله تعالىٰ للعبد.

قال الإمام الغزالي:

«وأما محبة الله تعالىٰ، فقد عزّ الإيمان بها، حتىٰ أنكر بعض العلماء إمكانها»(١).

وقال:

«إن محبة العبد لله تعالىٰ حقيقة وليست بمجاز.

وأما محبة الله للعبد فلا يمكن أن تكون بهذا المعنىٰ أصلاً، بل الأسامي كلها إذا أُطلقت على الله تعالىٰ وعلىٰ غير الله لم تنطلق عليهما بمعنىٰ واحد أصلاً»(٢).

ومعنىٰ ما ذهب إليه الإمام الغزالي: هو إثبات صفة المحبة علىٰ ظاهرها كما يليق بجلال الله ﷻ، فكما أننا نثبت له ذاتاً لا كالذوات، كذلك نثبت له صفات لا كالصفات، فإنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ].

وقال الإمام ابن تيمية:

«ولا ريب أن محبة المؤمنين لربهم أعظم المحبات، وكذلك محبة الله لهم هي محبة عظيمة جداً.

كما في «صحيح البخاري» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

(يقول الله تعالىٰ: مَن عادىٰ لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرّب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره

(١) «إحياء علوم الدين» ٤/٢٩٤.
(٢) «إحياء علوم الدين» ٤/٣٢٧.

الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)(١).

وقد تأول الجهمية ـ ومن اتبعهم من أهل الكلام ـ محبة الله لعبده علىٰ أنها: الإحسان إليه، فتكون من الأفعال(٢).

وطائفة أخرىٰ من الصفاتية قالوا: هي إرادة الإحسان.

وربما قال كلاً من القولين بعض المنتسبين إلىٰ السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

وسلف الأمة، وأئمة السنة علىٰ إقرار المحبة علىٰ ما هي عليه.

وكذلك محبة العبد لربه يفسرها كثير من هؤلاء بأنها: إرادة العبادة له، وإرادة التقرب إليه، لا يثبتون أن العبد يحب الله.

وسلف الأمة، وأئمة السنة، ومشايخ المعرفة، وعامة أهل الإيمان: متفقون علىٰ خلاف قول هؤلاء المعطلة لأصل الدين.

بل هم متفقون علىٰ أنه لا يكون شيء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقال تعالىٰ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]» انتهىٰ كلام الإمام ابن تيمية(٣).

وهكذا يلتقي الإمامان ـ الغزالي وابن تيمية ـ علىٰ إثبات صفة المحبة لله تعالىٰ من غير تأويل، وهو ما ذهب إليه عامة أهل السنة، كما قال الإمام ابن تيمية.

(١) أخرجه البخاري برقم (٦٥٠٢).
(٢) أي من أفعال الله تعالى لا من صفاته.
(٣) «قاعدة في المحبة»، للإمام ابن تيمية، ص(١١٤ ـ ١١٥)، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الناشر: المكتب الإسلامي ودار ابن حزم.

﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾:

يتبين مما سبق أن صفة المحبة لله تعالى متعلقة بطرفين، كما يقول الإمام ابن القيم:

- طرف محبة الرب تعالى لعبده.
- وطرف محبة العبد لربه تعالى[1].

وقد جاءت النصوص الكريمة من القرآن الكريم والسنّة النبوية المطهرة لتثبت ذلك وتتحدث عنه في مواطن كثيرة، ونكتفي بذكر بعض هذه النصوص لكل من الطرفين:

أ - محبة الرب تعالى لعبده:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

والآيات الكريمة كثيرة في هذا الباب.

وفي حديث أبي هريرة عند البخاري مرفوعاً من قوله تعالى في الحديث القدسي: (... ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه..)[2].

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (إذا أحبّ الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريلُ في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبُّوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض)[3].

(١) «مدارج السالكين» ٣/١٨.
(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).
(٣) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).

وفي حديث أبي هريرة أيضاً عند مسلم، في الذي زار أخاً له في الله قال ﷺ في آخره: (.. فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[1].

ب - محبة العبد لربه تعالى:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وفي «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: متى الساعة؟ قال: (وماذا أعددت لها؟) قال: لا شيء، إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ فقال: (أنت مع مَن أحببت) قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي ﷺ: (أنت مع مَن أحببت)[2].

والنبي ﷺ يقر الرجل على قوله: «لا شيء؛ إلا أني أحب الله ورسوله» وهذا إثبات جلي لوجود حب العبد لله تعالى.

والأحاديث في ذلك كثيرة، ومنها:

ما جاء في البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله، وكان يلقّب حِماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً، فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به! فقال النبي ﷺ: (لا تلعنوه، فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله)[3].

وهكذا يقسم ﷺ على وجود محبة الله ورسوله عند هذا الصحابي رضي الله عنه.

(١) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٢) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٣) رواه البخاري (٦٧٨٠).

ومن ذلك ما جاء في فضائل علي ﷺ، من حديث سهل بن سعد ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: (لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه، يحب اللَهَ ورسولَه، ويحبه الله ورسوله)[1].

وفي هذا الحديث المتفق عليه إثبات لنوعي المحبة لله تعالىٰ.

والأحاديث في ذلك كثيرة كثيرة.

تقريب لمعنىٰ محبة العبد لله تعالىٰ:

لا شك - إذن - في وجود هذه المحبة، وبما أنها عمل قلبي لم يدرك بعضهم معناها، وعدم إدراك ذلك لا ينفي وجودها، هذا الوجود الذي تقررت آثاره في أفعال مئات الصحابة ومن لا يحصىٰ ممن جاء بعدهم.

ولنترك الكلام للإمام ابن الجوزي يوضح لنا الأمر، من خلال تجربته في هذا الميدان؛ قال:

«تأملت قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فإذا النفس تأبىٰ إثبات محبةٍ للخالق توجب قلقاً[2]. وقالت[3]: محبته: طاعته.

فتدبرت ذلك، فإذا بها قد جهلتْ ذلك لغلبة الحس.

وبيان هذا: أن محبةَ الحس لا تتعدىٰ الصور الذاتية، ومحبة العلم والعمل ترىٰ الصور المعنوية فتحبها.

فإنا نرىٰ خلقاً يحبون أبا بكر ﷺ، وخلقاً يحبون علياً بن أبي طالب ﷺ، وقوماً يتعصبون لأحمد بن حنبل، وقوماً للأشعري، فيقتتلون ويبذلون النفوس في ذلك.

(١) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) قلقاً: أي شوقاً.

(٣) وقالت: أي النفس، والمراد نفس ابن الجوزي.

وليسوا ممن رأىٰ صور القوم، ولا صور القوم توجب المحبة.

ولكن لما تُصوِّرت لهم المعاني فدلَّتهم علىٰ كمالِ القوم في العلوم، وقع الحب لتلك الصور التي شوهدت بأعين البصائر.

فكيف بمن صنع تلك الصور المعنوية وبذلها؟

وكيف لا أحب من وهب لي ملذوذات حسي، وعرّفني ملذوذات علمي؟

فإن التذاذي بالعلم، وإدراك العلوم، أولىٰ من جميع اللذات الحسية، فهو الذي علّمني وخلق لي إدراكاً، وهداني إلىٰ ما أدركته.

ثم إنه يتجلىٰ لي في كل لحظة في مخلوق جديد، أراه فيه بإتقان ذلك الصنع، وحسن ذلك المصنوع[1].

فكل محبوباتي منه، وعنه، وبه، الحسية والمعنوية. وتسهيل سبل الإدراك به، والمدركات منه، وألذ من كل لذة عرفاني له، فلولا تعليمه ما عرفته.

وكيف لا أحب من أنا به، وبقائي منه، وتدبيري بيده، ورجوعي إليه، وكل مستحسن محبوب، هو صَنَعه وحسَّنه وزيَّنه وعطف النفوس إليه.

فكذلك الكامل القدرة أحسن من المقدور، والعجيب الصنعة أكمل من المصنوع، ومعنىٰ الإدراك أجلىٰ عرفاناً من المدرك.

ولو أننا رأينا نقشاً عجيباً لاستَغرَقنا تعظيم النقاش، وتهويل شأنه، وظريف حكمته، عن حب المنقوش.

(١) يلفت المصنف النظر إلىٰ ما وجه إليه القرآن الكريم من ضرورة النظر في مخلوقات الله تعالىٰ والتفكر فيها.. إذ هي السبيل إلىٰ التعرف علىٰ قدرة الله تعالىٰ ورحمته وعظمته كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران].

وهذا مما تترقى إليه الأفكار الصافية، إذا خرق نظرُها الحسيات ونفذ إلى ما وراءها، فحينئذ تقع محبة الخالق ضرورة.

وعلى قدر رؤية الصانع في المصنوع يقع الحب له.

فإن قوي أوجب قلقاً وشوقاً.

وإن مال بالعارف إلى مقام الهيبة أوجب خوفاً..» اهـ[1].

ما من شك في أن الحب موجود في نفس كل مسلم، لأنه قرين الإيمان، وإنما يعلم وجوده في خلال آثاره التي تظهر - في غالب الأحيان - عند الملمات والأزمات. ومن ذلك عندما تنتهك محارم الله تعالى تجد المسلم يبذل نفسه رخيصة في سبيل الله..

إن الذين لا تتمعر وجوههم عندما تنتهك محارم الله فليراجعوا أمر إيمانهم.

إن التعبير عن الحب من خلال أبجدية الأحرف أمر صعب، وفي الغالب يلجأ إليه المدَّعون.

ولكن لغة المشاعر التي تبدو آثارها على قسمات الوجه أو من خلال الأفعال والتصرفات هي اللغة المفهومة في هذا الميدان.

محبة الله للعبد نوعان:

ولا بد لنا في ختام هذا الفصل من بيان أن محبة الله تعالى للعبد نوعان:

- الأول يكون عن طريق الاجتباء والاصطفاء.
- والثاني يكون عن طريق الهداية والاتباع.

(١) «صيد الخاطر» ص٤٩ - ٥٠، طبعة دار كاتب وكتاب، بيروت.

أما النوع الأول: وهو الذي سبق الحديث عنه[1]، فهو منزلة عالية لا تُنال بالكسب، بل هي تفضُّل من الله تعالى. وهي التي سجلتها الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)﴾ [المائدة].

فالسياق يدل على منزلة رفيعة..

وختام الآية يدل على أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ويؤكد ذلك تقديم قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾.

وأما النوع الثاني: فهو الذي يسعى إليه المسلم جاهداً، وهو الذي حددت مساره الآية الكريمة في قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١)﴾ [آل عمران].

فالطريق: أن يكون العبد محباً لله متبعاً لرسوله ﷺ وهذا هو الشرط الذي لا بد من تحقيقه للحصول على محبة الله تعالى.

فطريق الوصول هنا إنما يكون باتباع الرسول ﷺ والتأسي به والتزام ما جاء به.

وقد أشارت الآية الكريمة في سورة الشورى إلى هذين النوعين في قوله تعالى:

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ (١٣)﴾ [الشورى].

فهما طريقان: اجتباء، وهداية.

على أن النوع الثاني إنما يكون بفضل الله تعالى، عندما يوفق الله

(١) سبق الحديث عن ذلك ص(١٣).

تعالىٰ عبده لسلوك طريق الهداية والإنابة إليه.

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أن قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ يشتمل علىٰ محبتين:

١ ـ **محبة الجزاء**: وهي المشار إليها في قوله تعالىٰ: ﴿يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ فهذه المحبة جاءت جزاء علىٰ الاتباع.

٢ ـ **محبة التوفيق للاتباع**: وهي محبته لك ابتداء وهي التي وفقك بها للاتباع.

وهكذا جاءت محبة العبد لله تعالىٰ بين محبتين من الله تعالىٰ لعبده: حب منّةٍ وفقك به للاتباع المعبر عن حبك، وحب جزاء جاء بعد الاتباع.

الفصل الثاني

دواعي المحبة وبواعثها

اختلفت العبارات وتعددت الآراء في بيان دواعي المحبة وبواعثها. وأذكر المتداول منها، وهي أربعة:

الأول: باعث الفطرة:

إن محبة الله تعالىٰ يعبر عنها بالعبادة والتبتل[1].. وهي تسمية خاصة لهذا الجنس من المحبة.

وإذا نظرنا إلىٰ المحبة من هذا المنطلق فإن القلوب مفطورة علىٰ تأليه سبحانه وتعالىٰ وهذا أمر لا يماري فيه عاقل.

قال الإمام ابن تيمية: «فطر ـ سبحانه ـ القلوب علىٰ أنه ليس في محبوباتها ومراداتها ما تطمئن إليه وتنتهي إليه إلا الله وحده.

وكل ما فطرت القلوب علىٰ محبته من نعوت الكمال فالله هو المستحق له علىٰ الكمال»[2].

وقال الإمام ابن القيم في هذا المجال: «فالإلٰه هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها، وتخضع له، وتذل له، وتخافه

(١) سيأتي بيان هذا مفصلاً في الفصل التالي وهو الفصل الثالث.
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٧٢ و٧٣.

وترجوه، وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلىٰ حبه، وليس ذلك إلا لله وحده»[1].

الثاني: باعث الإحسان:

قال الإمام الغزالي: «الإنسان يحب مَن أحسن إليه وواساه ولاطفه.. فهذا يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالىٰ، لأنه لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالىٰ فقط فأنواع إحسانه إلىٰ عبيده ليس يحيط بها حصر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]»[2].

وقال الإمام ابن تيمية: «محبة لأجل إحسانه إلىٰ عباده، وهذه المحبة لا ينكرها أحد، فإن القلوب مجبولة علىٰ حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، والله سبحانه هو المنعم المحسن إلىٰ عبده بالحقيقة، فإنه المتفضل بجميع النعم، وإن جرت بواسطة، إذ هو ميسر الوسائط ومسبب الأسباب.

وهذه المحبة هي المشار إليها بقوله ﷺ: (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهلي بحبي)[3]»[4].

علىٰ أن كلاً من الإمامين: الغزالي وابن تيمية متفقان علىٰ أن هذا الباعث علىٰ المحبة الذي هو رؤية الإحسان، إنما يعود في الحقيقة إلىٰ حب العبد نفسه.

فيرىٰ الإمام الغزالي: أن الباعث الأول هو حب الإنسان نفسه

(١) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٥١.
(٢) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٦٨.
(٣) رواه الترمذي (٣٧٨٩) [وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» (٧٩٢)].
(٤) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٨٤.

وبقاءه، وهو جبلة كل حي، فيقتضي غاية المحبة لله تعالىٰ.. فهو المخترع الموجد له، وهو المبقي له، وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه[1].

وهكذا يرىٰ أن باعث الإحسان يعود في النتيجة إلىٰ حب الإنسان نفسه.

ويقول الإمام ابن تيمية: «فما أحب في الحقيقة إلا نفسه، وكذلك كل من أحب شيئاً لأجل إحسانه إليه، فما أحب في الحقيقة إلا نفسه، وهذا ليس بمذموم بل محمود»[2].

وقد أفاض الإمام ابن القيم في الحديث علىٰ باعث الإحسان، وذكر ذلك في أكثر من كتاب من كتبه وقال:

«تنشأ المحبة من الإحسان، ومطالعة الآلاء والنعم، فإن القلوب جُبلت علىٰ حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها، ولا أحد أعظم إحساناً من الله سبحانه.

فإن إحسانه علىٰ عبده في كل نَفَس ولحظة، وهو يتقلب في إحسانه في جميع أحواله، ولا سبيل إلىٰ ضبط أجناس هذا الإحسان فضلاً عن أنواعه أو عن أفراده، ويكفي أن من بعض أنواعه نعمة النفس التي لا تكاد تخطر ببال العبد..»[3].

«وقد روي في بعض الأحاديث مرفوعاً (أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله)[4] فهذه محبة تنشأ من مطالعة المنن والإحسان..»[5].

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٦٧.
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٨٤.
(٣) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٤٤.
(٤) رواه الترمذي (٣٧٨٩) [وقد تقدم].
(٥) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٤٧.

وقال أيضاً: «وكيف لا تحب القلوب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يجيب الدعوات ويقيل العثرات ويغفر الخطيئات، ويستر العورات ويكشف الكربات، ويغيث اللهفات، وينيل الطلبات سواه؟

فهو أحق من ذكر، وأحق من شكر، وأحق من حمد، وأحق من عبد، وأنصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأوسع من أعطى.

وأرحم من استرحم، وأكرم من قصد، وأعز من التجئ إليه، وأكفى من تُوكل عليه، وأرحم بعبده من الوالدة بولدها.

وأشد فرحاً بتوبة عباده التائبين من الفاقد لراحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة إذا يئس من الحياة فوجدها.

وهو الملك فلا شريك له، والفرد فلا ندَّ له، كل شيء هالك إلا وجهه، لن يطاع إلا بإذنه، ولن يعصى إلا بعلمه، يطاعُ فيشكُر، وبتوفيقه ونعمته أطيع، ويعصى فيغفر، ويعفو وحقه أضيع.

فهو أقرب شهيد، وأدنى حفيظ، وأوفى وفي بالعهد، وأعدل قائم بالقسط، حال دون النفوس وأخذ بالنواصي، وكتب الآثار، ونسخ الآجال، فالقلوب له مفضية، والسر عنده علانية، والعلانية والغيوب لديه مكشوف، وكل أحد إليه ملهوف، وعنت الوجوه لنور وجهه، وعجزت القلوب عن إدراك كنهه.

ودلت الفطرة والأدلة كلها على امتناع مثله وشبهه، أشرقت لنور وجهه الظلمات، واستنارت له الأرض والسماوات، وصلحت عليه جميع المخلوقات، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

ما اعتاض باذل حبه لسواه من عوض، ولو ملك الوجود بأسره»[١].

الثالث: باعث المعرفة:

ويعد كثير من العلماء المعرفة أصلاً للمحبة. فإذا عرف المسلم الله تعالى أحبه ضرورة.

يقول الإمام الغزالي: «ومهما حصلت هذه المعرفة، تبعتها المحبة بالضرورة»[٢] ويرى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه المحبة أكمل من غيرها، فيقول:

«ومَن أحبَّ الله تعالى لكونه محسناً إليه ومنعماً إليه، كان حبه أضعف من حب من أحبه لذاته، ولأنه مستحق للحب بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته..»[٣].

وقال الإمام ابن القيم: «ولو شهد [العبد] صفة واحدة من أوصاف كماله لاستدعت منه المحبة التامة عليها، وهل مع المحبين محبة إلا من آثار صفات كماله؟ فإنهم لم يروه في هذه الدار، وإنما وصل إليهم العلم بآثار صفاته وآثار صنعه.

فاستدلوا بما علموه على ما غاب عنهم، فلو شاهدوه ورأوا جلاله وكماله سبحانه وتعالى لكان لهم في حبه شأن آخر»[٤].

وقال ابن رجب الحنبلي:

«ومن الأسباب التي تستجلب بها محبة رب الأرباب: معرفة الله تعالى.

قال عتبة الغلام: من عرف الله تعالى أحبه، ومن أحبَّ الله أطاعه...

---

(١) «الجواب الكافي» ص٣٢٦.

(٢) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٣٧٤/٢.

(٣) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٣٧٥/٢.

(٤) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٤٩.

وقال بديل بن ميسرة: من عرف ربه أحبه، ومَن عرف الدنيا زهد فيها.

وكلما قويت معرفة العبد لله، قويت محبته له، ومحبته لطاعته..»[١].

وقال الإمام ابن تيمية:

«وأصل المحبة هو معرفة الله سبحانه وتعالىٰ: ولها أصلان.

أحدهما: وهو الذي يقال له محبة العامة لأجل إحسانه إلىٰ عباده.

والثاني: هو محبته لما هو له أهل، وهذا حب من عرف من الله ما يستحق أن يحبه لأجله..»[٢].

* * *

وإذا كانت «المعرفة» بهذه المكانة من «الحب» فمن المستحسن الوقوف علىٰ أقوال بعض الأئمة في المقصود بالمعرفة:

يذهب الإمام ابن تيمية إلىٰ أن معرفته تعالىٰ تكون بمعرفة ما دلت عليه أسماؤه وصفاته سبحانه وتعالى[٣].

وقال ابن رجب الحنبلي:

«من أعظم أسباب المعرفة الخاصة: التفكر في ملكوت السماوات والأرض، وما خلق الله من شيء.

قال خليفة العبدي: لو أن الله ﷻ لم يُعبد إلا عن رؤية، ما عبده أحد، لأنه ﷻ لا تدركه الأبصار، ولكن المؤمنين تفكروا في

(١) «استنشاق نسيم الأنس» ص٤٧ ـ ٥٠.
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٨٤ ـ ٨٥.
(٣) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٨٥.

مجيء هذا الليل، إذا جاء فطبّق كل شيء، وملأ كل شيء، وتفكروا في مجيء النهار إذا جاء فملأ كل شيء، وطبق كل شيء.. وتفكروا في السحاب المسخَّر بين السماء والأرض، وتفكروا في الفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس، وتفكروا في مجيء الشتاء، والصيف، فوالله مازال المؤمنون يتفكرون فيما خلق لهم ربهم حتىٰ أيقنت قلوبهم، وحتىٰ كأنما عبدوا الله عن رؤية.

وكان شميط بن عجلان يقول: دلنا ربنا علىٰ نفسه في هذه الآية ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] الآية. وفي القرآن شيء كثير من التذكير بآيات الله الدالة علىٰ: عظمته، وقدرته، وجلاله، وكماله، وكبريائه، ورأفته، ورحمته، وبطشه، وانتقامه، إلىٰ غير ذلك من صفاته العلا، وأسمائه الحسنىٰ، والندب إلىٰ التفكير في مصنوعاته الدالة علىٰ كماله، فإن القلوب مفطورة علىٰ محبة الكمال، ولا كمال علىٰ الحقيقة إلا له سبحانه وتعالىٰ»[١].

وقال ابن رجب أيضاً:

«المعرفة التي تستلزم المحبة الخاصة[٢]، هي أن يعمل العبد علىٰ مشاهدة الله بقلبه، وهو أن يتنور قلبه بنور الإيمان، وتنفذ بصيرته في العرفان، حتىٰ يصير الغيب عنده كالعيان.. ويتفاوت أهل هذا المقام فيه بحسب قوة نفوذ البصائر..»[٣].

وقال الإمام الحارث المحاسبي:

«معرفة الله تعالىٰ: هو أن يلزم قلبَكَ قربُه منك، وقيامه عليك، وقدرته عليك، وعلمه بك، وأنه رقيب حفيظ عليك.

(١) «استنشاق نسيم الأنس» ص٤٨ ـ ٤٩.
(٢) سيأتي بيان المحبة الخاصة في آخر الفصل.
(٣) «استنشاق نسيم الأنس» ص٧١.

وأنه واحد لا شريك له في ملكه، وأنه عندما وعد صادق، وعندما ضمن وافٍ، وعندما دعا إليه وندب العباد إليه مليء.

وله وعد ينجزه، ووعيد ينفذه فيمن يشاء، وله مقام تصير إليه الخلائق، ومصدر ينصرف من عنده، وثواب وعقاب، ليس له شبه ولا مثيل.

وأنه رحيم ودود، سميع عليم، وأنه كل يوم هو في شأن، لا يشغله شأن عن شأن.

يعلم الخفي وفوق الخفي، والضمير والخطرات والوساوس، والهمة والإرادة، والحركة والطرفة، والغمزة والهمزة، وما فوق ذلك، وما دون ذلك، مما دقَّ فلا يُعرف، وجلَّ فلا يوصف، مما كان ويكون، وأنه عزيز حكيم..

فإذا لزم هذا قلبك، باليقين الراسخ والعلم النافذ.. فأنت العالم القائم بما يحب الله منك، والتارك له ما يكره منك..»[1].

ويرىٰ الإمام ابن القيم أن للمعرفة أربعة أركان هي معرفة الله تعالىٰ بأسمائه: «الأول، والآخر، والظاهر، والباطن». ويرىٰ أنه حقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلىٰ حيث ينتهي به قواه وفهمه[2].

ثم يطيل في شرح ذلك.

تلك هي بعض الآراء في «المعرفة» باعتبارها الباعث علىٰ حب الله تعالىٰ، أكتفي بها، إذ هي نماذج توضح معالم هذا الرأي.

الرابع: «باعث الجلال والجمال»:

يقول الإمام ابن القيم:

«والمحبة لها داعيان: الجلال والجمال، والرب تعالىٰ له

(١) «شرح المعرفة وبذل النصيحة» للإمام الحارث المحاسبي، ص٣٠ ـ ٣٢، تحقيق صالح أحمد الشامي، دار القلم بدمشق.

(٢) «تقريب طريق الهجرتين» للإمام ابن القيم، ص٣٥، أعده صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.

الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله له، والجمال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه»[1].

الخلاصة:

إن النظر فيما سبق، يدفع إلىٰ القول بأن الباعث واحد وهو: ما ركز في فطرة الإنسان، وجبلت عليه نفسه. ألا وهو محبة إلٰهه.

قال الإمام ابن القيم:

«أنفع المحبة علىٰ الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها: محبة من جبلت القلوب علىٰ محبته، وفطرت الخليقة علىٰ تأليهه، وبها قامت الأرض والسماوات، وعليها فطر جميع المخلوقات، وهي «سرُّ شهادة أن لا إلٰه إلا الله».

فإن «الإلٰه» هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده، والعبادة هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل..»[2].

وقال الإمام ابن تيمية:

«في قلوب بني آدم محبة وإرادة لما يتألهونه ويعبدونه، وذلك هو قوام قلوبهم وصلاح نفوسهم.

كما أن فيهم محبة وإرادة لما يطعمونه وينكحونه، وبذلك تصلح حياتهم، ويدوم شملهم.

وحاجتهم إلىٰ التأله أعظم من حاجتهم إلىٰ الغذاء، فإن الغذاء إذا فُقد يفسد الجسم، وبفقد الإلٰه تفسد النفس

(١) «الجواب الكافي» للإمام ابن القيم، ص٣٢٣.

(٢) «الجواب الكافي» ص٣٢٢.

ولن يصلحهم إلا تأله الله وعبادته وحده لا شريك له، وهي الفطرة التي فطروا عليها. كما قال النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه)»[1].

«فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تركت الفطرة بلا فساد كان القلب عارفاً بالله محباً له، عابداً له وحده..»[2].

إن الفطرة هي الباعث الحق على محبته سبحانه وتعالى.

وقد جاءت الشريعة لتقرير الفطرة وتكميلها، لا لتغيير الفطرة وتحويلها[3]، ولذا كانت «المعرفة» هي العامل المسدد والمساعد على أن تأخذ هذه الفطرة طريقها الصحيح.

والعلماء متفقون على أن «المعرفة» متممة للفطرة، وباعث أصيل في شأن المحبة، بل إن قوة هذه المحبة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحجم المعرفة.

قال الإمام الغزالي:

«ويتفاوت المؤمنون في الحب، وإن كانوا مشتركين في أصله، وسبب ذلك تفاوتهم في المعرفة..»[4].

وقال الإمام ابن القيم:

«وإنما تفاوتت منازلهم ومراتبهم في محبته على حسب تفاوت مراتبهم في معرفته والعلم به، فأعرفهم بالله أشدهم حباً له، ولهذا كانت رسله أعظم الناس حباً له، والخليلان ـ محمد وإبراهيم صلى الله عليهما وسلم ـ من بينهم أعظمهم حباً، وأعرف الأمة أشدهم له حباً. ولهذا كان المنكرون لحبه من أجهل الخلق به»[5].

(١) «قاعدة في المحبة» ص١٠٧.
(٢) «مجموع الفتاوى» ١٠/١٣٥.
(٣) «مجموع الفتاوى» ١٠/١٣٥.
(٤) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٧٤.
(٥) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٤٩.

والعلماء وإن اتفقوا على «المعرفة» باعثاً متمماً للفطرة، فقد تنوعت آراؤهم في السبيل الموصل إلى المعرفة.

ويقسم الإمام ابن تيمية الناس في شأن المعرفة إلى فريقين:

فريق العامة: وهم الذين تعرّفوا على الله تعالى من خلال إحسانه إلى عباده، فالقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها.

ويقال لمحبة هؤلاء «محبة العامة».

فريق الخاصة: وهم الذين كانت معرفتهم من خلال أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته، وهذا الفريق عرف من الله ما يستحق أن يحب لأجله من الكمال والجمال والجلال.. وعرف أن كل نعمة منه تعالى فضل، وكل نقمة منه عدل، ولهذا استحق أن يكون محموداً على كل حال، في السراء والضراء.

وهذا هو «حب الخاصة»[1].

وبين «حب العامة» و«حب الخاصة» درجات كثيرة، سبقت الإشارة إليها.

(١) «مجموع الفتاوى» ١٠/٨٤ ـ ٨٥ بتصرف.

الفصل الثالث

محبة العبد لله تعالىٰ جنس خاص

سبق القول بأن الحب نوعان: نوع متعلق بالله تعالىٰ، ونوع مشترك بين العباد.

والحب المتعلق بالله تعالىٰ جنس خاص، لا يشارك غيره من أنواع الحب لا في الخصائص ولا في الآثار.

* * *

قال ابن تيمية :

«**وإذا** كان أصل الإيمان العملي هو حب الله تعالىٰ ورسوله ﷺ، وحب الله أصل التوحيد العملي، وهو أصل التأله الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له.

فإن: العبادة أصلها أكمل أنواع المحبة مع أكمل أنواع الخضوع. وهذا هو الإسلام»[1].

وقال أيضاً:

«أصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها، وخلق خلقه لأجلها، هي ما في عبادته وحده لا شريك له، إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل.

(١) «قاعدة في المحبة» للإمام ابن تيمية، ص١٣٣.

والمحبة لما كانت جنساً لأنواع متفاوتة في القدر والوصف، كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به، مثل: **العبادة والإنابة** ونحوهما. فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، وكذلك الإنابة»[1].

وقال أيضاً:

«أصل العمل الديني هو إخلاص الدين لله.

وهو إرادة الله وحده. فالشيء المراد لنفسه هو المحبوب لذاته، وهذا كمال المحبة. لكن أكثر ما جاء المطلوب مسمىً باسم العبادة، كقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته، وكمال الذل ونهايته.

فالمحبوب الذي لا يعظَّمُ ولا يُذلُّ له لا يكون معبوداً.

والمعظَّمُ الذي لا يحب لا يكون معبوداً.

واسم المحبة فيه إطلاق وعموم، فإن المؤمن يحب الله، ويحب رسله وأنبياءه وعباده المؤمنين، وإن كان ذلك من محبة الله، وإن كانت المحبة التي لله لا يستحقها غيره. ولهذا جاءت محبة الله سبحانه وتعالىٰ مذكورة بما يختص به سبحانه من العبادة والإنابة والتبتل له، ونحو ذلك.

فكل هذه الأسماء تتضمن محبة الله سبحانه وتعالىٰ»[2].

* * *

وقال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ:

«وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده ـ ومتىٰ أحب العبد بها غيره كان شركاً لا يغفره الله ـ فهي محبة العبودية المستلزمة

(١) «قاعدة في المحبة»، ص٦٩.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٥٦ ـ ٥٧.

للذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة وإيثاره على غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلاً»[1].

وقال أيضاً:

«اعلم أن أنفع المحبة على الإطلاق وأوجبها وأعلاها وأجلها: محبة من جُبلت القلوب على محبته، وفُطرت الخليقة على تأليهه، وبها قامت الأرض والسماوات، وعليها فطر جميع المخلوقات، وهي سر شهادة أن لا إله إلا الله.

فإن الإله هو الذي تألهه القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والذل والخضوع وتعبده.

والعبادة: هي كمال الحب مع كمال الخضوع والذل.

والله سبحانه يحب لذاته من سائر الوجوه، وأما سواه فإنما يحب تبعاً لمحبته»[2].

* * *

وقال ابن تيمية

«وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها.

فالراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه.

والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب. قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]»[3].

* * *

(١) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٢٤.

(٢) «الجواب الكافي» للإمام ابن القيم، ص٣٢٢.

(٣) «مجموع الفتاوى» ١٠/٦١ ـ ٦٢.

نخلص من هذه النصوص السابقة، التي هي خلاصة ما قرره الشيخان: ابن تيمية وابن القيم، إلى الأمور الآتية:

١ ـ إن محبة الله تعالى جنس خاص، وبسبب هذه الخصوصية جاء أكثر ما جاء مسمى باسم: العبادة.

ولذا فكلمة «العبادة» و«الإنابة» و«التبتل» تساوي كلمة «الحب» الخاص به تعالى.

وإذا كانت كلمة الحب عامة، فهذه الكلمات خاصة للتعبير عن الحب له تعالى، باعتبار أن محبته جنس خاص فاحتاجت إلى اسم خاص.

٢ ـ لا بد في محبته تعالى من توفر العناصر الآتية:

أ ـ غاية الحب والتعظيم والإجلال.

ب ـ غاية الذل والخضوع.

ج ـ غاية الخوف.

د ـ غاية الرجاء.

وهذا ما يميز هذه المحبة ويجعلها أهلاً لأن تكون متجهة له تعالى.

* * *

ويوضح لنا الإمام ابن تيمية آثار غياب بعض هذه العناصر فيقول:

«وقال بعضهم:

مَن عبد الله بالحب وحده فهو زنديق.

ومَن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري[1].

(١) حروري: هم الخوارج، كان أول اجتماع لهم عند خروجهم على علي رضي الله عنه في بلدة حروراء وهي قرية قرب الكوفة، وهم فرق، اتفق سائرها على القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما، وتكفير أصحاب الكبائر وخلودهم في النار.

وَمن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء[1].

وَمن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد.

وذلك: لأن الحب المجرد تنبسط النفوس فيه حتىٰ تتوسع في أهوائها، إذا لم يزعها وازع الخشية لله، حتىٰ قالت اليهود والنصارىٰ ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨] ويوجد في مدعي المحبة من مخالفة الشريعة ما لا يوجد في أهل الخشية. ولهذا قرن الخشية بها في قوله: ﴿هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ۝٣٤﴾ [ق].

وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوىٰ المحبة والخوض فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد»[2].

واقتران الخوف بالرجاء أمر لازم، وإذا لم يتوفر هذا الاقتران وهذه الملازمة فلا يكون الخوف حينئذٍ خوفاً، ولا الرجاء رجاء.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«والخشية أبداً متضمنة للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطاً، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمناً. فأهل الخوف لله والرجاء له، هم أهل العلم الذين مدحهم الله»[3].

كما قال تعالىٰ:

﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

* * *

---

(١) مرجئ: المرجئة من الإرجاء وهو التأخير، وسميت به هذه الفرقة لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان، ومن قول غالبهم: إنه لا يضر مع الإيمان ذنب.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ٨١/١٠ ـ ٨٢ وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الخامس من هذا الباب.

(٣) «مجموع الفتاوىٰ» ٢١/٧.

نخلص مما سبق: إلىٰ أنه لما كان حب الله تعالىٰ جنساً خاصاً لا يشارك غيره من أنواع الحب، لا في الخصائص ولا في الآثار، اقتضىٰ أن يكون له تسميات خاصة تميزه عن غيره: فكان من هذه الأسماء: العبادة والإنابة والتبتل.

فكل من عبد الله تعالىٰ فقد أحب الله تعالىٰ.

وكل من أناب إلىٰ الله تعالىٰ فقد أحب الله تعالىٰ.

وكل من تبتل إلىٰ الله تعالىٰ فقد أحب الله تعالىٰ.

فالحب، والعبادة، والإنابة، والتبتل، كلها بمعنىٰ واحد في هذا الميدان، خاصة به سبحانه وتعالىٰ.

الفصل الرابع

الحب بين الخوف والرجاء

المسألة محل البحث:

سبق القول في الفصل السابق بأن «الخوف والرجاء» من أركان المحبة لله، وقد نسب إلىٰ بعض المشايخ الذين اشتهروا بالمحبة قولهم:

«ما عبدتك شوقاً إلىٰ جنتك، ولا خوفاً من نارك وإنما عبدتك شوقاً إلىٰ رؤيتك».

فهل يقبل هذا القول في ميزان الشرع الحنيف؟

قال الإمام ابن تيمية في إيضاح ذلك:

«إذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها.. قال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

و«رحمته» اسم جامع لكل خير.

و«عذابه» اسم جامع لكل شر.

ودار الرحمة الخالصة هي الجنة.

ودار العذاب الخالص هي النار.

وأما الدنيا، فدار امتزاج.

فالرجاء وإن تعلق بدخول الجنة، فالجنة اسم جامع لكل نعيم، وأعلاه النظر إلىٰ وجه الله، كما في «صحيح مسلم»، عن عبدالرحمٰن بن أبي ليلىٰ، عن صهيب عن النبي ﷺ قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادىٰ مناد: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا؟ ألم يثقل موازيننا ويدخلنا الجنة وينجينا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه)[1] وهو الزيادة.

ومن هنا يتبين زوال الاشتباه في قول من قال:

ما عبدتك شوقاً إلىٰ جنتك ولا خوفاً من نارك، وإنما عبدتك شوقاً إلىٰ رؤيتك.

فإن هذا القائل، ظن هو ومن تابعه أن الجنة لا يدخل في مسماها إلا الأكل والشرب واللباس، والنكاح والسماع، ونحو ذلك مما فيه التمتع بالمخلوقات.

كما يوافقه علىٰ ذلك من ينكر رؤية الله من الجهمية، أو يقرّ بها ويزعم أنه لا تمتع بنفس رؤية الله، كما يقوله طائفة من المتفقهة.

فهؤلاء متفقون علىٰ أن مسمىٰ الجنة والآخرة لا يدخل فيه إلا التمتع بالمخلوقات.

والتحقيق: أن الجنة هي الدار الجامعة لكل نعيم، وأعلىٰ ما فيها النظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ، وهو من النعيم الذي ينالونه في الجنة، كما

(١) رواه مسلم (١٨١).

أخبرت به النصوص، وكذلك أهل النار فإنهم محجوبون عن ربهم، يدخلون النار»(١).

الأخطاء المترتبة على هذا القول:

ونترك الكلام للإمام ابن تيمية يبين لنا أخطاء هذا القول؛ قال:

«قولهم: ما عبدتك شوقاً إلى جنتك أو خوفاً من نارك، ولكن لأنظر إليك وإجلالاً لك، وأمثال هذه الكلمات، مقصودهم بذلك: هو أعلى من الأكل والشرب والتمتع بالمخلوق.

١ ـ لكن غلطوا في إخراج ذلك من الجنة.

٢ ـ وقد يغلطون أيضاً في ظنهم أنهم يعبدون الله بلا حظ ولا إرادة، وأن كل ما يطلب منه فهو حظ النفس، وتوهموا أن البشر يعمل بلا إرادة ولا مطلوب ولا محبوب، وهو سوء معرفة بحقيقة الإيمان والدين والآخرة.

وسبب ذلك أن همة أحدهم المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تغنيه عن نفسه، حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها، فيظن أنه يفعل لغير مراده، والذي طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه.

وهذا كحال كثير من الصالحين والصادقين، وأرباب الأحوال والمقامات، يكون لأحدهم وجد صحيح، وذوق سليم، لكن ليس له عبارة تبين كلامه، فيقع في كلامه غلط وسوء أدب، مع صحة مقصوده(٢).

٣ ـ فهؤلاء الذين قالوا مثل هذا الكلام: إذا عنوا به طلب رؤية الله تعالى أصابوا في ذلك. لكن أخطأوا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجاً عن الجنة، فأسقطوا حرمة اسم الجنة.

---

(١) «مجموع الفتاوى» ١٠/٦١ ـ ٦٣.

(٢) رحم الله الإمام ابن تيمية، فكم في هذا القول من الإنصاف، والتماس العذر للآخرين حيث أمكن ذلك.

ولزم من ذلك أمور منكرة:

نظير ما ذكر عن الشبلي رحمه الله أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] فصرخ وقال: أين مريد الله؟

فيحمد منه كونه أراد الله.

ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله.

وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله، أفيريد الله من هو دونهم كالشبلي وأمثاله؟!

والواجب أن يعلم: أن كل ما أعدّه الله للأولياء من نعيم النظر إليه وما سوى ذلك، هو في الجنة، كما أن ما وعد به أعداءه، هو في النار.

٤ ـ وطلب الجنة، والاستعاذة من النار، طريق أنبياء الله ورسله، وجميع أوليائه السابقين المقربين وأصحاب اليمين.

كما في «السنن»: أن النبي ﷺ سأل بعض أصحابه: (كيف تقول في دعائك؟) قال: أقول: اللهم إني أسألك الجنة، وأعوذ بك من النار، أما إني لا أحسن دندنتك(١) ولا دندنة معاذ، فقال: (حولها ندندن)(٢).

فقد أخبر أنه هو ﷺ ومعاذ ـ وهو أفضل الأئمة الراتبين بالمدينة في حياة النبي ﷺ ـ إنما يدندنون حول الجنة.

---

(١) دندنتك: الدندنة الكلام الخفي، أن يتكلم الرجل بكلام تسمع نغمته ولا يفهم. ومراده: ما يدعو به النبي ﷺ.

(٢) رواه أبو داود (٧٩٢)، وابن ماجه (٩١٠).

أفيكون قول أحد فوق قول رسول الله ﷺ ومعاذ، ومن يصلي خلفهما من المهاجرين والأنصار؟!

وقد ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ، فإنه من صلّىٰ علي مرّة صلّىٰ الله عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها درجة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل الله لي الوسيلة، حلّت عليه شفاعتي يوم القيامة)[1].

فقد أخبر أن الوسيلة ـ التي لا تصلح إلا لعبد واحد من عباد الله، ورجا أن يكون هو ذلك العبد ـ هي درجة في الجنة.

فهل بقي بعد الوسيلة شيء أعلىٰ منها يكون خارجاً عن الجنة يصلح للمخلوقين؟!

وثبت في «الصحيح» أيضاً ـ في حديث الملائكة الذين يلتمسون الناس في مجالس الذكر ـ قال:

(فيقولون للرب تبارك وتعالىٰ: وجدناهم يسبحونك ويحمدونك ويكبّرونك.

قال: فيقول: وما يطلبون؟

قالوا: يطلبون الجنة.

قال: فيقول: وهل رأوها؟

قال: فيقولون: لا.

قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟

قال: فيقولون: لو رأوها لكانوا أشد لها طلباً.

قال: ومم يستعيذون؟

---

(١) رواه مسلم (٣٨٤).

قالوا: يستعيذون من النار.

قال: فيقول: وهل رأوها؟

قال: فيقولون: لا.

قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟

قالوا: لو رأوها لكانوا أشد منها استعاذة.

قال: فيقول: أشهدكم أني أعطيتهم ما يطلبون، وأعذتهم مما يستعيذون.

قال: فيقولون: فيهم فلان الخطاء جاء لحاجة فجلس معهم.

قال: فيقول: هم القوم لا يشقىٰ بهم جليسهم)[1].

فهؤلاء الذين هم من أفضل أولياء الله، كان مطلوبهم الجنة، ومهربهم من النار.

والنبي ﷺ لما بايع الأنصار ليلة العقبة، وكان الذين بايعوه من أفضل السابقين الأولين الذين هم أفضل من هؤلاء المشايخ، كلهم قالوا للنبي ﷺ: اشترط لربك ولنفسك ولأصحابك، قال: (أشترط لنفسي أن تنصروني مما تنصرون منه أنفسكم وأهليكم، وأشترط لأصحابي أن تواسوهم) قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: (لكم الجنة) قالوا: مد يدك فوالله لا نقيلك ولا نستقيلك.

فهؤلاء الذين بايعوه، من أعظم خلق الله محبة لله ورسوله، وبذلاً لنفوسهم وأموالهم في رضا الله ورسوله، علىٰ وجه لا يلحقهم فيه أحد من هؤلاء المتأخرين. قد كان غاية ما طلبوه بذلك الجنة، فلو كان هناك مطلوب أعلىٰ من ذلك لطلبوه» انتهىٰ كلام الإمام ابن تيمية[2].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ٦٩٩/١٠ ـ ٧٠٣.

المنهج القرآني:

يعد الترغيب والترهيب ركناً أصيلاً في منهج التربية الذي جاء به القرآن الكريم. ومادة الترغيب هي الجنة، كما أن مادة الترهيب هي النار.

والآيات الكريمة الواردة في هذا الشأن، هي من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها.

والذين يريدون الإغضاء عن هذا الموضوع بدعوىٰ أنهم تجاوزوا أمر الاهتمام بالجنة والخوف من النار ليرتقوا إلىٰ هدف أعلىٰ من ذلك مخطئون، بل ربما كانوا علىٰ خطر. لأنهم طلبوا لأنفسهم مقاماً فوق مقام العبودية.

إن العبد مطلوب منه أن يظل في مقام العبودية، هذا المقام الذي وصف الله تعالىٰ به رسوله في أشرف مقام فقال تعالىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

ومن مستلزمات العبودية: الرغبة والرهبة والخوف والرجاء. وقد جاءت الآيات القرآنية الكثيرة لتؤكد علىٰ تلازم هذه الحالات للعبد.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقال تعالىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالىٰ: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة].

وقال تعالىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والآيات في هذا كثيرة كثيرة.

وقال تعالىٰ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

وهكذا فالله سبحانه وتعالى يعرض مشاهد من النار تخويفاً، كما يعرض مشهد الملائكة وهي تسبح خيفة له سبحانه.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون].

فهؤلاء الذين ذكرتهم الآية الكريمة، يعطون العطاء، وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم.

إن الخوف من الله عنصر أصيل في كيان العبادة أو المحبة لله.

فقول القائل «إنه لا يعبد الله خوفاً من ناره ولا طمعاً في جنته، وإنما لأنه إله يستحق العبادة» فيه خطأ وجهل. وخروج علىٰ ما أراده الله تعالىٰ من عباده. ولعل هذه الكلمة كانت من قائلها في حال من تجليات استيلاء المحبوب علىٰ قلبه بحيث يغيب عن ملاحظة من سواه، «فإن هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له، ويعذر لعدم تمييزه في تلك الحال»، كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله[1].

موقف السلف من هذا الموضوع:

عندما نرجع إلىٰ سيرة السلف الصالح، وفي مقدمتهم الصحابة رضي الله عنهم. لا نجد في أقوالهم مثل هذه الكلمات.

(١) «مدارج السالكين» ٣/٤٥ ـ ٤٦.

وقد يكون من المستحسن أن نعرض بعض ما قالوا في هذا الشأن:

● قال أبو بكر ﷺ: يا ليتني شجرة تعضد، ثم تؤكل[١].

● وقال عمر ﷺ: ليتني كنت كبش أهلي، يسمنونني ما بدا لهم، حتىٰ إذا كنت أسمن ما أكون، زارهم بعض من يحبون، فجعلوا بعضي شواء، وبعضي قديداً، ثم أكلوني فأخرجوني عذرة، ولم أك بشراً[٢].

وقال ﷺ: والله لو أن لي طلاع الأرض ذهباً لافتديت به من عذاب الله من قبل أن أراه[٣].

● وكان عثمان ﷺ إذا وقف علىٰ قبر بكىٰ حتىٰ يبل لحيته.

فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟

قال: إن رسول الله ﷺ قال: (القبر أول منازل الآخرة، فإذا نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه)[٤].

● وقال علي ﷺ: وليكن همك فيما بعد الموت[٥].

وكان يبكي ويقول: تستريح البهائم والطيور والحيتان، وأنا مرتهن بعملي[٦].

● وقال أبو عبيدة ﷺ: وددت أني كبش، فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقي[٧].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد، ص١٣٩.
(٢) «تهذيب حلية الأولياء» ٧٢/١.
(٣) «تهذيب حلية الأولياء» ٧٢/١.
(٤) «الزهد» للإمام أحمد، ص١٦٠.
(٥) «صفة الصفوة» ١٧١/١.
(٦) «تنبيه المغترين» للشعراني، ص٤٧.
(٧) «الزهد» للإمام أحمد، ص٢٣٠.

● وقال أبو ذر ﷺ: وددت أني شجرة تعضد، وددت أني لم أخلق[١].

● وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: لو وُقفت بين الجنة والنار، فقيل لي: اختر نخيرك من أيهما تكون أحب إليك، أو تكون رماداً، لأحببت أن أكون رماداً[٢].

وقال رجل عنده: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقربين أحب إلي. فقال عبدالله: لكن هاهنا رجل ودَّ أنه إذا مات لم يُبعث. يعني نفسه[٣].

● وقال أبو الدرداء ﷺ: لو تعلمون ما أنتم راؤون بعد الموت لما أكلتم طعاماً علىٰ شهوة، ولا شربتم شراباً علىٰ شهوة، ولا دخلتم بيتاً تستظلون به، ولخرجتم إلىٰ الصعدات، تضربون صدوركم، وتبكون علىٰ أنفسكم. ولوددت أني شجرة تعضد ثم تؤكل[٤].

● وقالت عائشة ﷺ: وددت أني كنت نسياً منسياً.

وقالت: وددت أني شجرة أعضد، وددت أني لم أُخلق[٥].

تلك نماذج من أقوال الصحابة ﷺ. وهم العارفون، الذين عرفوا الأمور فقدّروها حق قدرها.

وإذا عرفنا أن بعضهم ممن بُشّر بالجنة، تبين كم هو الأمر جِدّ، وأنه لا مجال فيه لفلسفة القول وتزويق الكلام.

إن أقوالهم ﷺ تتساوق مع ما سبق ذكره من الآيات الكريمة، وتنضوي تحت قوله تعالىٰ: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد، ص١٨٢.
(٢) «تهذيب حلية الأولياء» ١٢١/١.
(٣) «الزهد» للإمام أحمد، ص١٩٨.
(٤) «الزهد» للإمام أحمد، ص١٧١.
(٥) «الزهد» للإمام أحمد، ص٢٠٥، ٢٠٦.

«وكذلك كانت حال العلماء الربانيين كالحسن، وسفيان، وأحمد، وغيرهم يظهر عليهم الخوف ولوازمه، ويكثر كلامهم فيه، ويقل كلامهم في المحبة، وظهور آثارها عليهم أيضاً. حتىٰ حذر طوائف من العلماء ممن يكثر دعوىٰ الشوق والمحبة بغير خوف، لما ظهر فيهم من الشطح والدعاوىٰ..»(١).

قال الإمام الغزالي رحمه الله في صدد حديثه عن علامات محبة العبد لله تعالىٰ:

«ومنها: أن يكون في حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم، وقد يظن أن الخوف يضاد الحب، وليس كذلك، بل إدراك العظمة يوجب الهيبة، كما أن إدراك الجمال يوجب الحب.

ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعض مخاوفهم أشد من بعض.

فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الحجاب، وأشد منه خوف الإبعاد، وهذا المعنىٰ في سورة هود، هو الذي شيَّب سيد المحبين(٢) إذ سمع قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨] ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]»(٣).

إن الخشية من الله تعالىٰ والخوف من عذابه، هي سنة المرسلين كيف لا وسيدهم ﷺ يقول: (أما والله! إني لأتقاكم لله وأخشاكم له)(٤).

وليس بعد قول الصادق المصدوق من قول.

وفي ضوء ما تقدم، يحسن بنا الوقوف علىٰ ما روي واشتهر عن

(١) «استنشاق نسيم الأنس» ص١٣٢.
(٢) حديث (شيبتني هود...) رواه الترمذي (٣٢٩٧).
(٣) «إحياء علوم الدين» ٤/٣٣٥.
(٤) رواه مسلم (١١٠٨).

بعض الصالحين والعارفين من قوله: «إلهي، ما عبدتُك طمعاً في جنتك، ولا خوفاً من نارك، ولكني عبدتك لأنك إله تستحق العبادة».

إن هذا القول وما شابهه، مما كان محل خلاف في قبوله أو رفضه وذهب الناس فيه فكانوا بين الإفراط والتفريط، ليس مما نقل عن الرسول ﷺ كما لم ينقل عن أصحابه.

وهو قول ربما صدر عن قائله في حال من الأحوال التي لم يصاحبه فيها الصحو والإرادة.

فهو وإن كان يعبر عن مقصود صحيح، وهو التعبير عن الإخلاص، إلا أن صاحبه لا يتابع عليه ولا يقلد فيه، لأنه لم يصدر عن المعصوم ﷺ مثله، ولا عن أصحابه الكرام ﵃.

والمخيف في الأمر أن يتبجح بهذه العبارات وأمثالها من لم يفهم معناها، ولم يدرك ما ترمي إليه، فيكون ذلك سبباً لوضعه في مقام «الدعوىٰ» الذي يكون مصاحباً عادة بـ«الكبر» المردي، وأين مقام الدعوىٰ من مقام الإخلاص؟

الفصل الخامس

المحبة بين الدعوى والضوابط

رأي الأئمة في دعوى المحبة:

«اعلم أن المحبة يدّعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى، وما أعزّ المعنى. فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادّعت محبة الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، وما لم يطالبها بالبراهين والأدلة.

وبالجملة: فإن في دعوى المحبة خطراً، ولذلك قال الفضيل: إذا قيل لك: أتحب الله تعالى؟ فاسكت، فإنك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم، فليس وَصفك وصف المحبين، فاحذر المقت».

هذا ما قاله الإمام الغزالي محذراً من ادعاء المحبة، مبيّناً خطر ذلك على المدعي إذا لم يكن له من رصيده الروحي ما يؤيد ذلك.

ومع ذلك فإن الإمام الغزالي يرى أن «كتمان الحب واجتناب الدعوى، والتوقي من إظهار المحبة تعظيماً للمحبوب، وإجلالاً له، وهيبة منه» هو الطريق السوي.

«لأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه، فيكون ذلك من الافتراء، فتعظم عليه العقوبة في العقبى، وتتعجل عليه البلوى في الدنيا».

«واعلم أن المحبة محمودة، وظهورها محمود أيضاً، وإنما المذموم التظاهر بها، لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار، وحق المحب أن ينمَّ عن حبه الخفي: أفعاله وأحواله دون أقواله. وينبغي أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب، ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب، بل ينبغي أن يكون قصد المحب اطلاع الحبيب فقط، فأما إرادته اطلاع غيره فشرك في الحب وقادح فيه.

دخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ـ ممن كان يذكر المحبة ـ فرآه مبتلى ببلاء، فقال: لا يحبه من وجد ألم ضره.

فقال الرجل: لكني أقول: لا يحبه من لم يتنعم بضره.

فقال ذو النون: ولكني أقول: لا يحبه من شهر نفسه بحبه.

فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه»[(١)]

وبهذا البيان الشافي وضح لنا الإمام الغزالي أبعاد دعوى المحبة وآثارها وخطرها ثم بين السلوك السوي للمحبين.

* * *

ويلتقي الإمام ابن تيمية مع الإمام الغزالي فيما ذهب إليه، حيث يقول:

«وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة.

وكثير ممن يدعي المحبة، هو أبعد من غيره عن اتباع السنة وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، ويدعي مع هذا أن ذلك أكمل لطريق المحبة من غيره..»[(٢)].

---

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٣٧٨/٢ ـ ٣٨٢ باختصار.

(٢) «مجموع الفتاوى» ٨٢/١٠ ـ ٨٣.

ويزيد الأمر إيضاحاً بضرب الأمثلة فيقول:

«وكثير من السالكين، سلكوا في دعوىٰ حب الله أنواعاً من أمور الجهل بالدين، إما من تعدي حدود الله، وإما من تضييع حقوق الله، وإما من ادعاء الدعاوي الباطلة التي لا حقيقة لها:

كقول بعضهم: أي مريد لي ترك في النار أحداً، فأنا منه بريء.

فقال الآخر: أي مريد لي ترك أحداً من المؤمنين يدخل النار فأنا منه بريء.

فالأول: جعل مريده يخرج كل من في النار، والثاني: جعل مريده يمنع أهل الكبائر من دخول النار؟!!

ويقول بعضهم: إذا كان يوم القيامة، نصبت خيمتي علىٰ جهنم حتىٰ لا يدخلها أحد.

وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم.

ومثل هذا قد يصدر في حال سكر وغلبة وفناء، يسقط فيها تمييز الإنسان، أو يضعف حتىٰ لا يدري ما قال. ولهذا كان بين هؤلاء من إذا صحا استغفر الله من ذلك الكلام.

وكثير ممن يدعي المحبة يخرج من شريعته وسنته، ويدعي من الخيالات ما لا يتسع هذا الموضع لذكره، حتىٰ ظن أحدهم سقوط الأمر، وتحليل الحرام له وغير ذلك مما فيه مخالفة شريعة الرسول وسنته وطاعته»[1].

* * *

وبهذه الأمثلة يوضح الإمام ابن تيمية مدىٰ ما وصل إليه مدعو المحبة من انحراف يخرجهم من الملة، ولكنه يلتمس لهم العذر بأن ذلك ربما كان في حال عدم صحوهم.

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٢٠٩ ـ ٢١٠.

وللإمام ابن القيم جولات في هذا الميدان يلتقي فيها مع الإمامين: الغزالي وابن تيمية، ولكنه يلقي الضوء علىٰ جانب آخر من مشكلة دعوىٰ المحبة، وهي عندما تنتقل المحبة من كونها ذوقاً وحالاً لتصبح علماً ومقالاً، فيقول:

«والمقصود: أن من بسط لسانه بالعبارة عنها والكشف عن سرها وأحكامها، لن يؤمَنَ أن يكون من أهل العلم بالمحبة لا من المتصفين بها حالاً، فكم بين العلم بالشيء والاتصاف به ذوقاً وحالاً.

فعلم المحبة شيء، ووجودها في القلب شيء.

وكثير من المحبين الذين امتلأت قلوبهم محبة، لو سئل عن حدها وأحكامها وحقيقتها لم يطق أن يعبر عنها، ولا يتهيأ له أن يصفها ويصف أحكامها.

وأكثر المتكلمين فيها إنما تكلموا فيها بلسان العلم، لا بلسان الحال.

وهذا ـ والله أعلم ـ هو معنىٰ قول بعض المشايخ: أعظم الناس حجاباً عن الله أكثرهم إليه إشارة، فإنه إنما حظه من الإشارة إليه لا علوق القلب عليه. كالفقير الذي دأبه وصف الأغنياء وأموالهم، ووصف الدنيا وممالكها، وهو خلو من ذلك.

ولا ريب أن وجود الحب في القلب، وترك الكلام علماً، خير من كثرة الكلام في هذه المسألة وخلو القلب منها»[1].

وقال ابن رجب الحنبلي:

«وقد كثر في المتأخرين المنتسبين إلىٰ السلوك تجريد الكلام في المحبة، وتوسيع القول فيها بما لا يساوي علىٰ الحقيقة مثقال حبة، إذ هو عارٍ عن الاستدلال بالكتاب والسنة، وخال من ذكر كلام من سلفَ

---

(١) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٤٢ ـ ٤٤٣.

من سلفِ الأمة، وأعيان الأئمة، وإنما هو مجرد دعوىٰ قد تشرف بأصحابها علىٰ مهاوي، وربما استشهدوا بأشعار عشاق الصور. وفي ذلك من عظيم الخطر ما فيه، وقد يحكون حكايات العشاق، ويشيرون إلىٰ التأدب بما سلكوه من الآداب والأخلاق.

وكل هذا ضرره عظيم، وخطره جسيم، وقد يكثر ذكر المحبة، ويعيدها ويبديها من هو بعيد عن التلبس بمقدماتها ومباديها.

وما أحسن قول ذي النون، وقد ذكر عنده الكلام في المحبة: اسكتوا عن هذه المسألة، لا تسمعها النفوس فتدعيها، فإن النفوس ممتلئة من الكبر والفخر والغرور»[1].

وقال سهل بن عبدالله: ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوىٰ، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار[2].

الحب يعلن عن نفسه:

والحقيقة التي لا شك فيها: أن الحب عندما يستقر في القلب يسيطر علىٰ المشاعر، ويأخذ مساحته من الوجود الذهني، فيملك علىٰ الإنسان ذاته، ويصير في حالة من الأنس بالله..

«فإن خالط الناس فهو كمنفرد في جماعة، ومجتمع في خلوة، وغريب في حضر، وحاضر في سفر، وشاهد في غيبة، وغائب في حضور، مخالط بالبدن، منفرد بالقلب، مستغرق بعذوبة الذكر»[3].

ومثل هذا المحب يفيض الحب عن قلبه، «فيظهر ذلك في أفعاله وأحواله دون أقواله، ويظهر ذلك منه من غير قصد إلىٰ إظهار الحب، ولا إلىٰ إظهار الفعل الدال علىٰ الحب»[4].

---

(١) «استنشاق نسيم الأنس» ص٢١ ـ ٢٢.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ٧/٢٠.

(٣) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٨٢.

(٤) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٨٢.

فالحب شأنه شأن الإيمان المستقر في القلب، تظهر لوازمه ومقتضياته تلقائياً علىٰ الجوارح بغير قصد ولا تعمد، فالمؤمن الذي يرىٰ ما لا يرضي الله تعالىٰ من المعصية يتمعر وجهه وتتغير ملامحه تلقائياً لما يرىٰ.. دون قصد.

وكذلك الحب يفيض من القلب لتظهر آثاره دون قصد من المحب.

الضوابط:

كان لا بد من معالجة هذا الانحراف الناشىء عن دعوىٰ المحبة، بل لا بد من بيان زيف هذه الدعاوىٰ، التي خرجت بأصحابها عن منهج الكتاب والسنة، وبيان عدم صلتها بالمحبة التي طلبها الإسلام وجعلها شرطاً في الإيمان.

والأئمة متفقون علىٰ أن كل سلوك يخرج عن منهج الكتاب والسنة فهو سلوك باطل.

ونترك الكلام للإمام ابن تيمية، ليحدد لنا معالم الضوابط في هذه القضية، قال:

«ومما ينبغي التفطن له، أن الله سبحانه قال في كتابه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. قال طائفة من السلف: ادعىٰ قوم علىٰ عهد النبي ﷺ أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ الآية[1].

فبيّن سبحانه أن محبته توجب اتباع الرسول ﷺ، وأن اتباع الرسول ﷺ يوجب محبة الله للعبد. وهذه محبة امتحن الله بها أهل دعوىٰ محبة الله. فإن هذا الباب تكثر فيه الدعاوىٰ والاشتباه»[2].

---

(١) وتمام الآية: ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.

(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٨٠.

وقال: «فلا يكون محباً لله إلا من يتبع رسوله، وطاعة الرسول ومتابعته تحقيق العبودية.

ولهذا كانت محبة هذه الأمة لله أكمل من محبة من قبلها.. وأكمل هذه الأمة في ذلك أصحاب محمد ﷺ. ومن كان بهم أشبه كان ذلك فيه أكمل، فأين هذا من قوم يدَّعون المحبة؟»[1].

الكتاب والسنة هما الضابط الذي علىٰ كل مسلم أن يرجع إليهما في كل شؤونه حتىٰ يكون علىٰ الصراط المستقيم، الذي يتمثل في اتباع الرسول الكريم ﷺ كما جاء في الآية الكريمة السابقة الذكر.

ورحم الله سفيان الثوري حيث يقول: «لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة»[2].

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٢٠٩ ـ ٢١٠.
(٢) «مواعظ الإمام سفيان الثوري»، ص٢٩، المكتب الإسلامي.

الفصل السادس
معالم محبة العبد لله ومقتضياتها

لا بد بعد كل ما سبق من الحديث عن محبة العبد لله، من إلقاء الضوء علىٰ خارطة المحبة لتحديد معالم ما كان لله منها وما ليس لله، وبيان مقتضيات محبة الله ومستلزماتها وهو الجانب الذي يساعدنا في مجال التطبيق والعمل.

وقد تناول العلماء هذا الموضوع كل بحسب ما يسّر الله له من الفهم، وإني أحاول أن أنقل من فقههم خلاصته ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

متىٰ تكون محبة العبد خالصة لله:

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ:

«أصل الشرك بالله، الإشراك مع الله في المحبة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وحقيقة العبودية وموجباتها لا تخلص مع الإشراك بالله في المحبة، بخلاف المحبة لله فإنها من لوازم العبودية وموجباتها.

فإن محبة رسول الله ﷺ ـ بل تقديمه في الحب علىٰ الأنفس، وعلىٰ الآباء والأبناء ـ لا يتم الإيمان إلا بها، إذ محبته من محبة الله،

وكذلك كل حب في الله ولله، كما في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار)(١).

وفي الحديث الذي في «السنن»: (من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان)(٢).

فإن هذه المحبة من لوازم محبة الله وموجباتها.

وههنا أربعة أنواع من الحب يجب التفريق بينها، وإنما ضل [من ضل] بعدم التمييز بينها:

أحدها: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، فإن المشركين، وعباد الصليب وغيرهم واليهود يحبون الله.

الثاني: محبة ما يحبه الله، وهذه هي التي تدخله في الإسلام، وتخرجه من الكفر، وأحب الناس إلى الله، أقومهم بهذه المحبة وأشدهم فيها.

الثالث: الحب لله وفيه، وهي من لوازم محبة ما يحبه الله، ولا تستقيم محبة ما يحبه الله إلا بالحب فيه وله.

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية، وكل مَن أحبّ شيئاً مع الله، لا لله، ولا من أجله، ولا فيه، فقد اتخذ نداً من دون الله، وهذه محبة المشركين.

وبقي قسم خامس: ليس مما نحن فيه، وهي المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلى ما يلائم طبعه، كمحبة العطشان للماء، والجائع

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨١)، وبلفظ قريب عند الترمذي (٢٥٢١).

للطعام، ومحبة النوم والزوجة والولد، فتلك لا تذم إلا إن ألهت عن ذكر الله، وشغلت عن محبته. كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] وقال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧]»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضحاً ما كانت محبته تبعاً لمحبة الله:

«وليس شيء يُحَبُّ لنفسه إلا الله وحده، وكل ما سواه فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالى: كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه.. فإنها تبع لمحبة الله سبحانه، وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه.

وهذا موضع يجب الاعتناء به، فإنه محل فرقان بين المحبة النافعة، والمحبة التي لا تنفع بل قد تضر»(٢).

صفات المحبين:

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال ابن رجب الحنبلي:

«فوصف الله سبحانه المحبين له بخمسة أوصاف:

أحدها: الذلة على المؤمنين، والمراد: لين الجانب وخفض الجناح، والرحمة والرأفة للمؤمنين. كما قال تعالى لرسوله: ﴿وَاخْفِضْ

(١) «الجواب الكافي» ص٢٧٢ - ٢٧٥

(٢) «الجواب الكافي» ص٢٧٩.

﴿جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء] ووصف أصحابه بمثل ذلك في قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وهذا يرجع إلى أن المحبين لله يحبون أحبابه ويعودون عليهم بالعطف والرأفة والرحمة.

الثاني: العزة على الكافرين، والمراد: الشدة والغلظة عليهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

وهذا يرجع إلى أن المحبين له يبغضون أعداءه، وذلك من لوازم المحبة الصادقة.

الثالث: الجهاد في سبيل الله، وهو مجاهدة أعدائه باليد واللسان، وذلك أيضاً من تمام معاداة أعداء الله الذي تستلزمه المحبة.

وأيضاً فالجهاد في سبيل الله، فيه دعاء الخلق إلى الله، وردهم إلى بابه بالقهر لهم والغلبة.

الرابع: أنهم لا يخافون لومة لائم، والمراد: أنهم يجتهدون فيما يرضى به الله من الأعمال، ولا يبالون بلوم من لامهم في شيء منه إذا كان فيه رضا ربهم.

وهذا من علامات المحبة الصادقة، إن المحب يشتغل بما يرضي به حبيبه ومولاه، ويستوي عنده من حمده في ذلك أو لامه.

الخامس: متابعة الرسول ﷺ، وهو طاعته واتباعه في أمره ونهيه.

والمراد أن الله تعالى لا يوصل إليه إلا من طريق رسوله ﷺ باتباعه وطاعته، كما قال الجنيد وغيره من العارفين: الطرق إلى الله مسدودة إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ»[1].

---

(١) «استنشاق نسيم الأنس» لابن رجب الحنبلي، ص٥٧ ـ ٦٠، المكتب الإسلامي.

علامات محبة العبد لله تعالى:

عندما يستقر حب الله تعالى في قلب العبد، فلا بد أن تكون له آثار في تصرفاته من حيث سلوكه الشخصي مع نفسه، أو تجاه خالقه سبحانه وتعالى، أو تجاه الخلق.

وإذا لم يكن الأمر كذلك فإن هذا العبد يكون في ميدان الدعوى...

قال الإمام الغزالي رحمه الله:

«اعلم أن المحبة يدَّعيها كل أحد، وما أسهل الدعوى، وما أعز المعنى. فلا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبه الله تعالى، ما لم يمتحنها بالعلامات، ولم يطالبها بالبراهين والأدلة.

والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، وثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح، وتدل الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبة، دلالة الدخان على النار، ودلالة الثمار على الأشجار. وهي كثيرة:

● منها: حب لقاء الحبيب، وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال عن الدنيا ومفارقتها بالموت، فينبغي أن يكون محباً للموت، غير فارّ منه، فإن المحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه، ليتنعم بمشاهدته، والموت مفتاح اللقاء، وباب الدخول إلى المشاهدة. قال ﷺ: (مَن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه)[1].

وفي وصية أبي بكر الصديق لعمر رضي الله عنهما: «إن لله عملاً بالنهار لا يقبله بالليل وعملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٧)، ومسلم (٢٦٨٣).

باتباعهم الحق في الدنيا.. فإذا حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك، وإن ضيعت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولن تعجزه»(١).

وقد يكون العبد في ابتداء مقام المحبة، وليس يكره الموت، وإنما يكره عجلته، قبل أن يستعد للقاء الله، فذلك لا يدل على ضعف الحب. وهو كالمحب الذي وصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فأحبَّ أن يتأخر قدومه ساعة ليهيىء له داره، ويعد له أسبابه، فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل. فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلاً، وعلامته الدأب في العمل، واستغراق الهمّ في الاستعداد.

● **ومنها**: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يحبه في ظاهره وباطنه، فيلزم مشاق العمل، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله ومتقرباً إليه بالنوافل، وطالباً عنده مزايا الدرجات.

● **ومنها**: أن يكون مولعاً بذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فمَن أحبّ شيئاً أكثر بالضرورة من ذكره، وذكر ما يتعلق به، فعلامة حب الله حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ، وحب كل مَن ينسب إليه. وذلك ليس شركة في الحب، فإن مَن أحبّ رسول المحبوب لأنه رسوله، وكلامه لأنه كلامه، لم يتجاوز حبه إلى غيره، بل هو دليل على كمال حبه.

● **ومنها**: أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاته لله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدأة الليل، وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده وأطيب من مناجاة الله، كيف تصح محبته؟

(١) «تهذيب حلية الأولياء» للمؤلف ١/٦٠، و«البيان والتبيين» ٢/٤٥. وانظر هذه الوصية كاملة في «مواعظ الصحابة» للمؤلف.

● **ومنها**: أن لا يتأسف على ما يفوته مما سوى الله ﷻ، ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته، فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف والتوبة.

● **ومنها**: أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها، ويسقط عنه تعبها. كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة، ثم تنعمت به عشرين سنة.

● **ومنها**: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله، رحيماً بهم، شديداً على جميع أعداء الله، وعلى كل من يقارف شيئاً مما يكرهه، كما قال الله تعالى:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ولا تأخذه لومة لائم، ولا يصرفه على الغضب لله صارف»(١).

* * *

هذا بعض ما ذكره الإمام الغزالي، ويلتقي الإمام ابن القيم معه فيما ذهب إليه، ومع ذلك فمن المستحسن أن نورد كلامه الذي رتبه في عشرة أمور فقال:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه. ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

الثالث: دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال. فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، والتسنم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٧٨ - ٣٨٠.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله. أحبه لا محالة. ولهذا كانت المعطلة والفرعونية والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة. فإنها داعية إلى محبته.

السابع: ـ وهو من أعجبها ـ انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى. وليس في التعبير عن هذا المعنى غير الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم خَتْم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما يُنتقى أطايب الثمر. ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمتَ أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ[1].

* * *

من صفات المحب لله استدامة الذكر:

إن المحب الحق، يظل حبه مسيطراً على قلبه، لا يشغله عنه شيء، وعندما تشغله أمور حياته اليومية، فهي تشغل ظاهره ولا تشغل قلبه.

ويرى الإمام ابن القيم أن هناك أربعة مواطن لا يُمكن فيها أن تحول الشواغل بين المحب وذكر محبوبه وهي:

(١) «مدارج السالكين» ١٧/٣ ـ ١٨.

أحدها: عند أخذ مضجعه وتفرغ حواسه وجوارحه من الشواغل، واجتماع قلبه على ما يحبه. فإنه لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكره محبوبه. فإنه إذا استيقظ وردت إليه روحه رد معها إليه ذكر محبوبه الذي كان قد غاب عنه في النوم. ولكن كان قد خالط روحه وقلبه، فلما ردت إليه الروح أسرع من الطرف رد إليه ذكر محبوبه متصلاً بها، مصاحباً له. فورد عليه قبل كل وارد، وهجم عليه قبل كل طارق.

فإذا وردت عليه الشواغل والقواطع وردت على محل ممتلىء بمحبة ما يحبه فوردت على ساحته من ظاهرها، فإذا قضى وطره منها قضاه بمصاحبته لما في قلبه من الحب، فإنه قد لزمه ملازمة الغريم لغريمه ولذلك يسمى غراماً، وهو الحب اللازم الذي لا يفارق: فسمع بمحبوبه وأبصر به وبطش به ومشى به، فصار محبوبه في وجوده في محل سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها.

هذا مثل محبوبه في وجوده وهو غير متحدٍ به، بل هو قائم بذاته مباين له. وهذا المعنى مفهوم بين الناس لا ينكره منهم إلا غليظ الحجاب، أو قليل العلم، ضعيف العقل، يجد محبوبه قد استولى على قلبه وذكره، فيظن أنه هو نفس ذاته الخارجة قد اتحدت به أو حلّت فيه، فينشأ من قسوة الأول وكثافته غلظ حجاب، ومن قلة علم الثاني ومعرفته وضعف تمييزه ضلال الحلول والاتحاد، وضلال الإنكار والتعطيل والحرمان، ويخرج [للبصير] من بين فرث هذا ودم هذا لبن الفطرة الأولى خالصاً سائغاً للشاربين.

الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان، بها يوزن إيمان الرجل ويتحقق حاله ومقامه ومقدار

قربه من الله ونصيبه منه، فإنها محل المناجاة والقربة ولا واسطة فيها بين العبد وبين ربه، فلا شيء أقر لعين المحب ولا ألذ لقلبه ولا أنعم لعيشه منها إذا كان محباً، فإنه لا شيء آثر عند المحب ولا أطيب له من خلوته بمحبوبه ومناجاته له ومثوله بين يديه وقد أقبل محبوبه عليه، وكان قبل ذلك معذباً بمقاساة الأغيار ومواصلة الخلق والاشتغال بهم.

فإذا قام إلى الصلاة هرب من سوى الله إليه وآوى عنده واطمأن بذكره، وقرّت عينه بالمثول بين يديه ومناجاته، فلا شيء أهم إليه من الصلاة، كأنه في سجن وضيق وغم حتى تحضر الصلاة، فيجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي ﷺ لبلال: (يا بلال، أرحنا بالصلاة)[1] ولم يقل: أرحنا منها، كما يقول المبطلون الغافلون.

وقال بعض السلف: ليس بمستكمل الإيمان من لم يزل في هم وغم حتى تحضر الصلاة فيزول همه وغمه، أو كما قال.

فالصلاة قرّة عيون المحبين، وسرور أرواحهم، ولذة قلوبهم، وبهجة نفوسهم، يحملون هم الفراغ منها إذا دخلوا فيها، كما يحمل الفارغ البطال همها حتى يقضيها بسرعة، فلهم فيها شأن وللنقّارين شأن، يشكون إلى الله سوء صنيعهم بها إذا ائتموا بهم، كما يشكو الغافل المعرض تطويل إمامه، فسبحان من فاضل بين النفوس وفاوت بينها هذا التفاوت العظيم.

وبالجملة فمن كان قرّة عينه في الصلاة فلا شيء أحب إليه ولا أنعم عنده منها، ويودّ أن لو قطع عمره بها غير مشتغل بغيرها، وإنما يسلي نفسه إذا فارقها، بأنه سيعود إليها عن قرب، فهو دائماً يثوب إليها ولا يقضي منها وطراً، فلا يزن العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة، فإنها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل.

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإن القلب في هذا

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥، ٤٩٨٦).

الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده. ولهذا كانوا يفتخرون بذكرهم من يحبونهم عند الحرب واللقاء، وهو كثير في أشعارهم كما قال:

ذكرتك والخطيّ يخطر بيننا   وقد نهلت مني المثقفة السمر

وقال غيره:

ولقد ذكرتك والرماح كأنها   أشطان بئر في لبان الأدهم

وقد جاء في بعض الآثار: يقول تبارك وتعالى: (إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه)، والسر في هذا - والله أعلم - أن عند مصائب الشدائد والأهوال يشتد خوف القلب من فوات أحب الأشياء إليه، وهي حياته التي لم يكن يؤثرها إلا لقربه من محبوبه، فهو إنما يحب حياته لتنعمه بمحبوبه، فإذا خاف فوتها بدر إلى قلبه ذكر المحبوب الذي يفوت بفوات حياته.

ولهذا - والله أعلم - كثيراً ما يعرض للعبد عند موته لهجه بما يحبه وكثرة ذكره له، وربما خرجت روحه وهو يلهج به. وذكر ابن أبي الدنيا في «كتاب المحتضرين» عن زفر أنه جعل يقول عند موته: لها ثلاثة أخماس الصداق، لها ربع الصداق، لها كذا ومات. لامتلاء قلبه من محبة الفقه والعلم.

وأيضاً فإنه عند الموت تنقطع شواغله وتبطل حواسه، فيظهر ما في القلب ويقوى سلطانه، فيبدو ما فيه من غير حاجب ولا مدافع. وكثيراً ما سمع من بعض المحتضرين عند الموت: شاه مات[1]، وسمع من آخر بيت شعر لم يزل يغني به حتى مات وكان مغنياً، وأخبرني رجل عن قرابة له أنه حضره عند الموت - وكان تاجراً يبيع القماش - قال فجعل يقول: هذه قطعة جيدة، هذه على قدرك، هذه

(١) وهذا لأنه كان مشغولاً في حياته بلعب الشطرنج.

مشتراها رخيص يساوي كذا وكذا حتى مات. والحكاية في هذا كثيرة جداً.

فمَن كان مشغولاً بالله وبذكره ومحبته في حال حياته وجد ذلك أحوج ما هو إليه عند خروج روحه إلى الله، ومَن كان مشغولاً بغيره في حال حياته وصحته فيعسر عليه اشتغاله بالله وحضوره معه عند الموت ما لم تدركه عناية من ربه، ولأجل هذا كان جديراً بالعاقل أن يلزم قلبه ولسانه ذكر الله حيثما كان لأجل تلك اللحظة التي إن فاتت شقي شقاوة الأبد. فنسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته[1].

الخلاصة:

بعد استعراض الآراء السابقة، وهي لأئمة مشهود لهم بالسبق في هذا الميدان، نستطيع أن نجمل صفات من أحبّ الله تعالى بالأمور الآتية

- متابعة الرسول ﷺ.
- إيثار ما أحبّه الله تعالى.
- استدامة الذكر والمناجاة والدعاء بقلب منكسر.
- التنعم بالطاعات والحرص على النوافل.
- الصلة الدائمة بالقرآن الكريم.
- التواضع للمؤمنين، والعمل على ما فيه مصلحتهم، والشفقة عليهم.
- الجهاد، وأن لا يخاف في الله لومة لائم، وتحقيق عزة المؤمنين.

(1) «تقريب طريق الهجرتين» ص٤٣٣ ـ ٤٣٦، أعدّه صالح أحمد الشامي، نشره المكتب الإسلامي.

- عدم التأسف على ما فات.
- مجالسة المحبين الصادقين.
- حب لقاء الحبيب.

وكل هذه الأمور هي نتيجة تلقائية للمحبة الصادقة المخلصة.

وقد تصاب المحبة ـ بعض الأحيان ـ بالركود، فكيف نتغلب على هذا العارض، وما هي الوسيلة لتحريكها مما أصابها؟

ونجد الجواب على هذا السؤال عند الإمام ابن تيمية حيث يقول:

«يحرك القلوب شيئان:

أحدهما: كثرة ذكر المحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله ﷻ بالذكر الكثير، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب] الآية.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى:

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى:

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]»[1]

(1) «مجموع الفتاوى» ١/٩٤ ـ ٩٥.

الفصل السابع

أركان محبة الله تعالى

تمهيد:

إنه مما ينبغي إيضاحه وبيانه: أن محبة الله تعالىٰ عندما تتمكن من قلب المؤمن وتستولي عليه، لا بد أن ينشأ عنها ثلاث قضايا رئيسة، تظهر في سلوك الفرد المسلم وتعاملاته، إذ هي من مستلزمات محبته سبحانه وتعالىٰ، وهي:

- أن يحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه.
- أن يحب في الله ويبغض في الله.
- أن يضاد أعداء الله.

وأتحدث عن كل منها في فقرة مستقلة.

الموالاة في الحب والبغض:

إن حقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهي موافقته ومتابعته في حب ما يحب وبغض ما يبغض.

فالمحب لله تعالىٰ:

- يحب ما أحبه الله تعالىٰ ويكره ما أبغضه الله تعالىٰ.

- ويوالي من يواليه، ويعادي من يعاديه.
- ويرضىٰ لرضاه، ويغضب لغضبه.
- ويَأمر بما يأمر به الله تعالىٰ، ويَنهىٰ عما نهىٰ عنه.

فهو موافق له في كل ذلك[١].

وإن محبة ما يحبه الله من الأعيان والأعمال من تمام محبته تعالىٰ.

فالله سبحانه يحب الأنبياء والمرسلين والملائكة والمؤمنين.. والمؤمن يحب ذلك.

والله تعالىٰ يحب الإيمان والتقوىٰ.. والمؤمن يحب ذلك.

والله تعالىٰ يبغض الكفر والفسوق والعصيان.. والمؤمن يبغض ذلك.

والله تعالىٰ يحب «المحسنين» و«التوابين» و«المتطهرين» و«المتقين» و«الصابرين» و«المتوكلين» و«المقسطين» و«المقاتلين في سبيله».. والمؤمن يحب ذلك.

والله سبحانه لا يحب «الكافرين» و«الظالمين» و«المعتدين» و«المتكبرين» و«المختالين» و«الخائنين» و«المفسدين» و«المسرفين» و«الفرحين».. والمؤمن لا يحب ذلك.

قال الإمام ابن القيم   :

«وكل ما سوىٰ الله ـ مما يحب ـ فإنما محبته تبع لمحبة الرب تبارك وتعالىٰ، كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه.. فإنها تبع لمحبة الله سبحانه، وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه..

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/٥٨، ١٩٢).

وما سواه فإنه يبغض ويكره لمنافاته محابَّه ومضادته لها.

وهذا موضع يجب الاعتناء به.. فهذا ميزان عادل يوزن به موافقة الرب ومخالفته، وموالاته ومعاداته..

فتمسك بهذا الأصل غاية التمسك، في نفسك وفي غيرك، فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، ليست بكثرة صوم ولا صلاة ولا رياضة»[1].

والخلاصة: فإنه لا يكون حب من العبد لله تعالىٰ، إذا لم يكن متابعاً وموافقاً له ـ سبحانه ـ في محابه.

الحب في الله ولله:

لا بد في البدء من التفريق بين نوعين من الحب:

ـ الحب لله.

ـ والحب مع الله.

فالحب لله وفي الله هو حب أهل التوحيد والإخلاص، فهم يحبون غير الله في الله.

والحب مع الله، هو حب المشركين، الذين يحبون غير الله مع الله. كما قال تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال الإمام ابن تيمية :

«فمَن أحبّ مخلوقاً كما يحب الخالق فهو مشرك به، وقد اتخذ من دون الله أنداداً يحبهم كحب الله، وإن كان مُقرًّا بأن الله خالقه.

ولهذا فرّق الله ورسوله بين من أحبّ مخلوقاً لله، وبين مَن أحبّ مخلوقاً مع الله:

---

(١) «الجواب الكافي» ص٢٨٠ ـ ٢٨١.

فالأول: يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهىٰ حبه وعبادته، لا يحب معه غيره. لكنه لما علم أن الله يحب أنبيائه وعباده الصالحين أحبهم لأجله، وكذلك لما علم أن الله يحب فعل المأمور وترك المحظور أحبّ ذلك، فكان حبه لما يحبه تابعاً لمحبة الله، وفرعاً عليه وداخلاً فيه.

بخلاف مَن أحبّ مع الله، فجعله نداً لله يرجوه ويخافه..»[1].

* * *

وفي الحب لله وفي الله وردت أحاديث كثيرة أذكر بعضها:

عن أبي أُمامة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(مَن أحبّ لله، وأبغض لله، وأعطىٰ لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان)[2].

وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال:

(مَن أعطىٰ لله، ومنع لله، وأحبّ لله، وأبغض لله، وأنكح لله فقد استكمل إيمانه)[3].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(أفضل الأعمال: الحب في الله والبغض في الله)[4].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

(إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله)[5].

* * *

---

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ٢٦٥/١٠.

(٢) رواه أبو داود (٤٦٨١).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٢١).

(٤) رواه أبو داود (٤٥٩٩).

(٥) «المسند» ٢٨٦/٤.

إن من التزم بحب ما يحبه الله، وبغض ما يبغضه الله ـ وهو اللازم الأول ـ سوف يصل إلىٰ هذه الدرجة من الحب التي ذكرتها الأحاديث السابقة، فيصبح حبه للأعيان والأعمال لأجل الله تعالىٰ.

فهو يحب الشخص لأنه ملتزم بأوامر الله ومتّبع سنّة رسول الله ﷺ.

وهو يبغض الآخر لكفره أو لمعاصيه، أو لدعوته إلىٰ البدع..

فالباعث علىٰ الحب أو البغض هو النظر إلىٰ الشخص من خلال محاب الله تعالىٰ، أو من خلال مكروهاته.

وهذا المعنىٰ هو الذي سجله الحديث الشريف:

(وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله)[1].

وقد يسمع عن إنسان في بلد بعيد أنه يحب الله ورسوله ويعمل فيما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ، فيحبه لذلك، وهو لم يره، وليس له عنده مصلحة، ولا يتوقع أن يكون له ذلك.. فهذا من الحب في الله.

وقد يسمع عن إنسان محارب لله ورسوله فيمقته لذلك ويبغضه، مع أنه لا يناله من ضرره ولا يتوقع منه ذلك لبعده عنه، ووجود الحواجز بينه وبينه، فهذا البغض لله..

وعندما ينطلق المسلم في حبه وبغضه من هذا المنطلق، ويصبح هذا صفة قائمة في شخصه ملازمة له، لا تنفك عنه، لأنها منبثقة عن الإيمان.. فإنه يكون كما نصّت الأحاديث قد استكمل الإيمان، أو في دائرة أفضل الأعمال.

* * *

وعندما يتمحض هذا الحب لله بعيداً عن المصالح والأهواء، فإن الله سبحانه وتعالىٰ يجازي صاحبه بأعظم الجزاء، الذي هو محبته

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

سبحانه، وأن يكون في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظله.. وهذا ما وردت به الأحاديث الصحيحة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

(أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرىٰ، فأرصد[1] الله له ـ علىٰ مدرجته[2] ـ ملكاً، فلما أتىٰ عليه قال: أين تريد؟

قال: أريد أخاً لي في هذه القرية.

قال: هل لك عليه من نعمة تربُها[3]؟

قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل.

قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه)[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في حديث السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قال:

(ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه، وتفرقا عليه)[5].

وعنه رضي الله عنه أيضاً، قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي، يوم لا ظلَّ إلا ظلي)[6].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(١) أرصد: أي أقعده لمراقبته.
(٢) مدرجته: المدرجة: هي الطريق.
(٣) تربها: أي تقوم بإصلاحها.
(٤) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٥) رواه البخاري (١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١).
(٦) رواه مسلم (٢٥٦٦).

(قال الله ﷻ: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور، يغبطهم النبيُّون والشهداء)[1].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

(إن من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة، بمكانهم من الله تعالىٰ).

قالوا: يا رسول الله، تخبرنا من هم؟

قال: (هم قوم تحابوا بروح الله[2]، علىٰ غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم علىٰ نور، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس).

وقرأ هذه الآية:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس][3].

تلك هي منزلة المتحابين في الله، الذين عمر الإيمان قلوبهم، ففاضت بالحب خالصاً لله تعالىٰ، فاستحقوا هذه الكرامة التي أعدّها الله تعالىٰ لهم.

وبناء علىٰ ما استقر من مفهوم الحب في الله ولله، فإن الحب الذي يكون الدافع إليه مصلحة مادية من جلب منفعة أو دفع مضرة فليس من الحب لله في شيء.

يقول الإمام ابن تيمية:

«فإن مَن أحبَّ إنساناً لكونه يعطيه، فما أحبَّ إلا العطاء، ومن

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٠).

(٢) تحابوا بروح الله: قال الخطابي: فسروه بالقرآن، علىٰ هذا يتأول قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وسماه روحاً ـ والله أعلم ـ لأن القلوب تحيىٰ به، كما تكون حياة النفوس والأبدان.

(٣) رواه أبو داود (٣٥٢٧).

قال: إنه يحب من يعطيه لله فهذا كذب ومحال وزور من القول.

وكذلك مَن أحبَّ إنساناً لكونه ينصره، إنما أحبَّ النصر لا الناصر.

وهذا كله من اتباع ما تهوىٰ الأنفس، فإنه لم يحب ـ في الحقيقة ـ إلا ما يصل إليه من جلب منفعة، أو دفع مضرّة، فهو إنما أحبَّ تلك المنفعة ودفع المضرة، وإنما أحبَّ ذلك لكونه وسيلة إلىٰ محبوبه.

وليس هذا حباً لله، ولا لذات المحبوب.

وعلىٰ هذا تجري عامة محبة الخلق بعضهم مع بعض، وهذا لا يثابون عليه في الآخرة ولا ينفعهم، بل ربما أدىٰ ذلك إلىٰ النفاق والمداهنة، فكانوا في الآخرة من الأخلاء الذين بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

وإنما ينفعهم في الآخرة الحب في الله، ولله وحده، وأما من يرجو النفع والنصر من شخص، ثم يزعم أنه يحبه لله، فهذا من دسائس النفوس ونفاق الأقوال»[1].

كان لا بد من إيضاح هذا الجانب حتىٰ تنجلي الصورة ويتضح معنىٰ «الحب لله وفي الله» وأنه لا يكون إلا عندما يكون خالصاً نقياً، بعيداً عن كل الشوائب، كما سبق بيانه في أول هذه الفقرة.

البراء من أعداء الله:

إن مَن أحبَّ ما يحبه الله، وأبغض ما يبغضه الله.

وأحبَّ لله، وأبغض لله.

فلا بدَّ أن يكره أعداء الله.

فهذه الكراهة نتيجة حتمية لحب ما يحبه الله وبغض ما يبغضه،

(١) «الفتاوىٰ» للإمام ابن تيمية ١٠/٦٠٩ ـ ٦١٠.

إذ لا ولاء لله إلا بالبراءة من أعداء الله ورسوله.

إن حب الشيء وإرادته يستلزم بغض ضده وكراهته، ومَن أحبَّ الله تعالىٰ، فلا بدَّ أن يكره أعداءه.

قال تعالىٰ:

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والتعبير بقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَجِدُ﴾ ذو إيقاع قوي مؤثر، إذ هو نفي للوجود، وإذا كان النفي منصبّاً علىٰ الوجود، فهو أمر غير متصوَّر، وذلك راجع إلىٰ عدم إمكان وجود المتضادين معاً.

إذ لا يمكن أن يجتمع في قلب إنسان واحد وُدان، وُدّ لله ورسوله، ووُدّ لأعداء الله ورسوله، كما لا يجتمع النور والظلمة.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ...﴾ إلغاء لكل التعِلاّت والمبررات التي يمكن أن تتخذ تبريراً لذلك.

وفي هذا ما فيه من القطع والجزم في هذه القضية.. وعدم تركها لتلاعب العواطف.. فالرابطة بين المؤمنين هي رابطة الإيمان، وعلىٰ أساسها تقام علائق الود والحب.

وإذا كان القرآن يمنع موادة أقرب الناس بالإنسان رحماً وهم الآباء والأبناء ـ إذا كانوا محادّين لله تعالىٰ ـ فغيرهم من باب أولىٰ.

قال الإمام ابن تيمية في تعليقه علىٰ الآية الكريمة:

«فأخبر أنك لا تجد مؤمناً يواد المحادين لله ورسوله، فإن نفس الإيمان ينافي موادته، كما ينفي أحد الضدين الآخر، فإذا وجد الإيمان انتفىٰ ضده، وهو موالاة أعداء الله. فإذا كان الرجل يوالي أعداء الله بقلبه كان ذلك دليلاً علىٰ أن قلبه ليس فيه الإيمان الواجب.

ومثله قوله تعالىٰ في الآية الأخرىٰ:

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١)﴾ [المائدة].

فدلّ علىٰ أن الإيمان المذكور ينفي اتخاذهم أولياء ويضاده، ولا يجتمع الإيمان واتخاذهم أولياء في القلب. ودلّ علىٰ أن من اتخذهم أولياء ما فعل الإيمان الواجب من الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه.

ومثله قوله تعالىٰ:

﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

فإنه أخبر في تلك الآيات أن متوليهم لا يكون مؤمناً. وأخبر هنا: أن متوليهم هو منهم» اهـ[1].

والآيات في هذا كثيرة.

والخلاصة: أن من مستلزمات محبة الله تعالىٰ أن يكره الإنسان ويبغض أعداءه بل إنها من مستلزمات الإيمان أيضاً، ولا ينفك الإيمان عن الحب.

حلاوة الإيمان وأركان الحب:

جاء في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (ثلاث مَن كن فيه وجد حلاوة الإيمان:

ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

ـ وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

(1) «مجموع الفتاوىٰ» ٧/١٧ ـ ١٨.

- وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار[١].

رتّب الحديث الشريف وجود حلاوة الإيمان على وجود ثلاثة أمور، هي - في الحقيقة - أركان محبة الله تعالى.

وبهذا يتبين الارتباط الوثيق بين آثار الإيمان وآثار المحبة.

«فكمال حلاوة الإيمان مرتبط بكمال محبة العبد لله. وذلك بثلاثة أمور:

- تكميل هذه المحبة.
- وتفريعها.
- ودفع ضدها.

فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار»[٢].

* * *

ثلاثة أمور هي مستلزمات الحب، متضافرة مع بعضها، كل منها مكمل للآخرين. ولا يتصور وجود واحد منها دون الآخرين.

وإذا ظنّ بعضهم إمكانية تصور ذلك، فهو راجع إلى خلل في تصوره، وعدم فهمه لطبيعة الحب ومقتضياته.

جعلنا الله ممن ذاق طعم الإيمان ووجد حلاوته.

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» ٧/٢٠٦.

الفصل الثامن

مرتبة «الخلة»

وفي نهاية هذا الباب المتعلق بمحبة الله تعالى، يحسن بنا أن نتوقف عند نوع خاص من هذه المحبة، اختص الله تعالى به «إبراهيم ومحمداً» صلى الله عليهما وسلم، وهو «الخلة».

والخلة: هي توحيد المحبة، أو هي كمال المحبة ونهايتها.

قال الإمام ابن تيمية :

«.. وكل من كانت محبته لله أشد كان أفضل.

وخير الخلق محمد رسول الله ﷺ، وخير البرية بعده إبراهيم، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، وكل منهما خليل الله.

والخلة تتضمن كمال المحبة ونهايتها، ولهذا لم يصلح لله شريك في الخلة»[١].

وقال:

«والخلة: هي كمال المحبة المستلزمة من العبد كمال العبودية لله، ومن الرب سبحانه: كمال الربوبية لعباده الذين يحبهم ويحبونه، ولفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب.. وهذا على الكمال

(١) «قاعدة في المحبة» ص(١٣٧).

حصل لإبراهيم ومحمد صلىٰ الله عليهما وسلم، ولهذا لم يكن له من أهل الأرض خليل. إذ الخلة لا تحتمل الشركة»[١].

وقال الإمام ابن القيم

«وأما الخلة فتوحيد المحبة، فالخليل هو الذي توحد حبُّه لمحبوبه، وهي رتبة لا تقبل المشاركة، ولهذا اختص بها في العالم الخليلان: إبراهيم ومحمد صلوات الله وسلامه عليهما، كما قال الله تعالىٰ:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء].

وصح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً)[٢] وفي «الصحيح» عنه ﷺ: (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمٰن)[٣].

وفي «الصحيح» أيضاً: (إني أبرأ إلىٰ كل خليل من خلته)[٤].

ولما كانت «الخلة» مرتبة لا تقبل المشاركة، امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبة من قلبه، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولا تكون لغيره، فامتحنه بذبح ولده، والمراد ذبحه من قلبه، لا ذبحه بالمدْيَة، فلما أسلما لأمر الله، وقدّم محبة الله تعالىٰ علىٰ محبة الولد، خلص مقام الخلة وفدىٰ الولد بالذبح»[٥].

وقال ابن القيم أيضاً:

«وقد ظن بعض من لا علم عنده، أن الحبيب أفضل من

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٢٠٣.
(٢) رواه مسلم (٥٣٢).
(٣) رواه مسلم (٥٣٢) و(٢٣٨٣).
(٤) رواه مسلم (٢٣٨٣).
(٥) «روضة المحبين» ص٦٣ ـ ٦٤.

الخليل، وقال: محمد حبيب الله، وإبراهيم خليل الله، وهذا باطل من وجوه كثيرة:

ـ منها: إن الخلة خاصة، والمحبة عامة، فإن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين، وقال في عباده المؤمنين ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤].

ـ ومنها: أن النبي ﷺ نفىٰ أن يكون له من أهل الأرض خليل، وأخبر أن أحب النساء إليه عائشة، ومن الرجال أبوها[١].

ـ ومنها: أنه قال: (إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً)[٢].

ـ ومنها: أنه قال: (لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته)[٣]»[٤].

نخلص مما سبق إلىٰ أن الخلة مرتبة لم ينلها إلا إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام، فقد وصلا إلىٰ كمال المحبة لله تعالىٰ. وذلك هو الفضل من الله يختص به من يشاء من عباده.

(١) رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).
(٢) رواه مسلم (٥٣٢).
(٣) رواه البخاري (٤٦٦).
(٤) «روضة المحبين» ص٦٥.

خلاصة الباب الثاني

يحسن بي ـ بعد أن وقفنا على جوانب متعددة من محبة الله تعالى ـ أن أجمل ذلك في نقاط واضحة، تضع بين أيدينا التصور الكلي للموضوع، بحيث نكون أمام خارطة واضحة المعالم. فأقول والله المستعان:

يمكن إجمال ما سبق بالأمور التالية:

١ ـ محبة الله تعالى ـ بطرفيها ـ ثابتة بنص الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

٢ ـ محبة الله تعالى لعباده، ثابتة من غير تأويل.

٣ ـ محبة العبد لله تعالى جنس خاص لا يشترك مع بقية أنواع المحبة.

٤ ـ باعث المحبة مستقر في فطرة الإنسان، والبواعث الأخرى روافد ومؤيدات.

٥ ـ أصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه مرتبط بالإيمان، ومن هنا كانت كلمة «العبادة» و«الإنابة» مرادفات لكلمة «الحب» في هذا الباب. فكل عابد لله، فهو محب له، وكل منيب إليه، فهو محب له، وإن تفاوتت درجات هذا الحب.

٦ ـ محبة العبد لله تعالى قوامها: غاية التعظيم والإجلال لله تعالى، وغاية الذل والخضوع من العبد، مع غاية الخوف وغاية الرجاء.

وهي ضوابط تمنع وقوع الانحراف، ويظل العبد معها في مقام العبودية.

٧ ـ المحبة أمر قائم في نفس المؤمن، فهو يعبر عن ذاته بآثاره التي ترشح تلقائياً، فلا حاجة للدعوى والكلام.. بل إن الدعوى هنا من خدع النفس وتلبيس إبليس.

٨ ـ علامات هذه المحبة كثيرة، ولكنها محكومة بـ«الطاعة» و«الاتباع» في إطار الكتاب والسنّة.

٩ ـ محبة العبد لله تعالى إنما تتحقق بثلاثة أركان هي:

ـ الموالاة في الحب والبغض.

ـ أن يحب لله ويبغض لله.

ـ البراءة من أعداء الله.

وهي أركان يشترك القلب مع الجسم في إقامتها.

الباب الثالث

الطرق الموصلة إلى

محبة الله تعالى للعبد

تمهيد

إنَّ غاية المسلم التي يسعىٰ إليها: أن يصل إلىٰ مقام ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] فيكون في عداد من أحبهم الله تعالىٰ.

ومقام ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ مقام عالٍ رفيع تُبذل في سبيله المهج والأرواح ويسعىٰ إليه أصحاب البصائر والهمم العالية.

وأنْ يحبَّ اللّهُ سبحانه العبدَ، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومع ذلك فقد بيَّن ـ سبحانه ـ الطريق الموصلة إلىٰ هذه الغاية الرفيعة كما دلَّ علىٰ الباب الموصل إلىٰ طريقها، ثم قال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ﴾[1] وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ﴾[2].

أما الباب فقد دلَّ عليه الحديث القدسي في قوله ﷺ: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه)[3].

وأما السبيل فقد أوضحته الآيات القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية الشريفة المتميزة بخاتم (إن الله يحب..) و(إن الله لا يحب..).

فمَن أراد أن يكون محبوباً عند الله فعليه أن يفعل ما يحبه الله، ويبتعد عن ما لا يحبه، فهذا هو السبيل.

---

(١) جاء هذا في قوله تعالىٰ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].
(٢) جاء هذا في قوله تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢١].
(٣) رواه البخاري (٦٥٠٢).

ولتقريب الأمر، ووضعه بين الأيدي وفي متناولها، قمت بجمع الآيات التي جاء فيها لفظ «الحب» صريحاً، مثل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ..﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ...﴾ وجعلت النوع الأول في فصل، والنوع الثاني في فصل.

وشرحت الآيات شرحاً مختصراً ميسراً.

وفي فصل ثالث وضعت نماذج مما جاء في السنة الشريفة من النوعين.

ومهدت للموضوع بفصلين أحدهما بعنوان «درجات المحبين» والآخر بعنوان «بين الطاعة والاتباع».

وهذا الباب بجملته يعد تطبيقاً للركن الأول من أركان «محبة الله تعالى» وهو: الموالاة في الحب والبغض، أي أن يحب العبد ما يحبه الله تعالى، ويبغض ما أبغضه الله تعالى.

ويتبع ذلك أن يعمل ما يحبه الله ويبتعد عما يبغضه.

الفصل الأول

درجات المحبين

المحبة أمر من أعمال القلوب، ولذا فهي غير منضبطة، وليس ثمة مقياس تقاس به، وهي تختلف من شخص لآخر، كما تختلف من حال إلىٰ آخر لدىٰ الشخص الواحد.

ومع ذلك فقد ذهب العلماء إلىٰ تصنيفها ضمن درجتين:

- درجة دنيا، لا تهبط عن الحد الأدنىٰ الذي لا بد منه، وهو الذي يقف صاحبه عند أداء الفرائض.

- درجة عليا، وهذه تتجاوز ما سبق، وصاحبها يؤدي النوافل والفرائض ويعمل علىٰ أن يكون في محابّ الله تعالىٰ، وهذه لا تقف عند حد.

قال الإمام القرطبي:

«كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً، لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة غير أنهم متفاوتون:

- فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفىٰ.

- ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنىٰ..»[1].

* * *

(١) «فتح الباري» ١/٦٠.

وقال الإمام ابن تيمية:

«ومحبة الله ورسوله علىٰ درجتين:

- واجبة: وهي درجة المقتصدين.
- ومستحبة: وهي درجة السابقين.

فالأولىٰ: تقتضي أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما بحيث لا يحب شيئاً يبغضه، **وذلك يقتضي:**

- محبة جميع ما أوجبه الله تعالىٰ.
- وبغض ما حرمه الله تعالىٰ.

وذلك واجب.

وأما محبة السابقين: بأن يحب ما أحبه الله من النوافل والفضائل محبة تامة، وهذه حال المقربين الذين قرّبهم الله إليه. .»[1].

* * *

وجاء في «فتح الباري» نقلاً عن بعض العلماء:

«محبة الله علىٰ قسمين: فرض وندب.

فالفرض: المحبة التي تبعث علىٰ امتثال أوامره والانتهاء عن معاصيه، والرضا بما يقدره، فمن وقع في معصية من فعل محرم أو ترك واجب فلتقصيره في محبة الله حيث قدّم هوىٰ نفسه.

والندب: أن يواظب علىٰ النوافل ويتجنب الوقوع في الشبهات. والمتصف عموماً بذلك نادر»[2].

* * *

وقال ابن رجب الحنبلي:

«ومحبة الله سبحانه، علىٰ درجتين:

إحداهما: فرض لازم، وهي أن يحب الله سبحانه محبة توجب

(١) «قاعدة في المحبة» ص١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) «فتح الباري» ١/٦١.

له محبة ما فرض عليه، وبغض ما حرمه عليه، ومحبة رسوله المبلغ عنه أمره ونهيه، وتقديم محبته علىٰ النفوس والأهلين أيضاً، والرضا بما بلغه عن الله من الدين، وتلقي ذلك منه بالرضا والتسليم ـ ومحبة الأنبياء والرسل، والمتبعين لهم بإحسان جملة وعموماً ـ للّه ﷻ، **وبغض الكفار والفجار جملة وعموماً للّه ﷻ.**

فهذا القدر، لا بد منه في تمام الإيمان الواجب، ومن أخلّ بشيء منه فقد نقص من إيمانه الواجب بحسب ذلك.

وكذلك ينقص من محبته الواجبة، بحسب ما أخلّ به من ذلك، فإن المحبة الواجبة تقتضي فعل الواجبات وترك المحرمات»[1].

والدرجة الثانية: درجة السابقين المقربين، وهي أن ترتقي المحبة إلىٰ محبة ما يحبه الله من نوافل الطاعات، وكراهة ما يكرهه من دقائق المكروهات، وإلىٰ الرضا بما يقدره ويقضيه مما يؤلم النفوس من المصائب، وهذا فضل مستحب مندوب إليه. .»[2].

* * *

تبين مما سبق أن جلّة من العلماء ذهبت إلىٰ وضع محبة الله ورسوله علىٰ درجتين:

الأولىٰ: درجة المقتصدين، أو درجة الفرض، أو درجة الحد الأدنىٰ.

وهي التي لا يقبل الإيمان بدونها، ومطلوب من العبد تحصيلها ليكون في عداد الناجين.

والثانية: درجة السابقين، أو درجة الفضل، أو درجة النفل، أو الدرجة العليا.

(١) «استنشاق نسيم الأنس» ص٣٠ ـ ٣١.

(٢) المرجع قبله ص٣٥.

وهي التي تجاوز صاحبها الدرجة الأولىٰ وارتقىٰ بحبه وعمله، وهي درجة مفتوحة غايتها رضوان الله تعالىٰ.

وكلاهما تحت مظلة كسب العبد:

فالأولى: يُلْزَمُ العبد بتحقيقها حتىٰ يصحح إيمانه، فهي أمر لا بد منه، وقد سبق الحديث عن ذلك في فصل سابق.

والثانية: أمر يسعىٰ العبد إلىٰ الوصول إليه، فليس إليه تحقيقه، وإنما هو فضل الله تعالىٰ يؤتيه من يشاء من عباده، وقد بينت الشريعة الطرق الموصولة إليه، فما علىٰ العبد الراغب في الوصول إلىٰ هذا المقام السامي إلا اتخاذ الوسائل والعمل الجاد في سبيل ذلك.

وفي الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري ما يوضح لنا السبيل ببيان شافٍ لا لبس فيه.

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله قال:

مَن عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب.

وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه.

وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبَّه.

فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها.

وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه.

وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)[1].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).
وقال الإمام ابن القيم في شرحه:
«هذا الحديث الشريف الإلهي، حرام فهم معناه علىٰ غليظ الطبع، كثيف القلب.
والمراد به حصر أسباب محبته في أمرين: أداء فرائضه، والتقرب إليه بالنوافل.
وأخبر سبحانه أن أداء فرائضه أحب ما تقرب به إليه المتقربون، ثم بعدها النوافل.
وأن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتىٰ يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبة الله له محبة أخرىٰ فوق المحبة الأولىٰ، فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والاهتمام بغير محبوبه، وملكت عليه روحه، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة، فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلىٰ مالكاً لزمام قلبه مستولياً علىٰ روحه استيلاء المحبوب علىٰ محبّه الصادق في محبته التي قد اجتمعت قوىٰ حبه كلها له.
ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به، وإن بطش بطش به، وإن مشىٰ مشىٰ به، فهو في قلبه ومعه ومؤنسه وصاحبه.
فالباء هاهنا باء المصاحبة، وهي مصاحبة لا نظير لها، ولا تدرك بمجرد الإخبار عنها والعلم بها، فالمسألة خيالية لا علمية محضة.
وإذا كان المخلوق يجد هذا في محبة المخلوق التي لم يُخلق لها ولم يُفطر عليها، كما قال بعض المحبين:
خيالك في عيني، وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي، فأين تغيب؟
وقال الآخر:
وتطلبهم عيني، وهم في سوادها ... ويشتاقهم قلبي، وهم بين أضلعي
ومن عجب أني أحن إليهم ... فأسأل عنهم من لقيت، وهم معي
فليس شيء أدنىٰ من المحب لمحبوبه، وربما تمكنت المحبة حتىٰ يصير محبوبه أدنىٰ إليه من نفسه، بحيث ينسىٰ نفسه ولا ينساه، كما قيل:
أريد لأنسىٰ ذكرها فكأنما ... تمثل لي ليلىٰ بكل سبيل
وخص في الحديث السمع والبصر واليد والرجل بالذكر، فإنَّ هذه الآلات آلات الإدراك وآلات الفعل، والسمع والبصر يوردان علىٰ القلب الإرادة والكراهة، ويجلبان إليه الحب والبغض. فإذا كان سمع العبد بالله وبصره به كان محفوظاً في آلات إدراكه، فكان محفوظاً في حبه وبغضه في بطشه ومشيه. =

فقوله: (وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتىٰ أحبه) دليل علىٰ أن محبة الله تعالىٰ للعبد إنما تكون عبر النوافل بعد أداء الفرائض.

قال الإمام ابن تيمية:

«وهذا يبين أن حبه لعبده إنما يكون بعد أن يأتي بمحابه، والقرآن دلّ علىٰ مثل ذلك. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فقوله: ﴿يُحْبِبْكُمُ﴾ جواب الأمر في قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ وهو بمنزلة الجزاء مع الشرط، ولهذا جزم، وهذا ثواب عملهم ـ وهو اتباع الرسول ـ فأثابهم علىٰ ذلك بأن أحبهم»[1].

= وتأمل كيف حقق تعالىٰ كون العبد به عند سمعه وبصره الذي يبصر به وبطشه ومشيه بقول: (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها) تحقيقاً لكونه مع عبده.

فمتىٰ كان العبد بالله هانت عليه المشاق وانقلبت المخاوف في حقه أماناً، فبالله يهون كل صعب ويسهل كل عسير، ويقرب كل بعيد، وبالله تزول الأحزان والهموم والغموم، فلا هم مع الله، ولا غم مع الله، ولا حزن مع الله.

ولما حصلت هذه الموافقة مع العبد لربه تعالىٰ في محابه حصلت موافقة الرب لعبده في حوائجه ومطالبه فقال: (ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه)، أي كما وافقني في مرادي بامتثال أوامري والتقرب إلي بمحابي، فأنا أوافقه في رغبته ورهبته فيما يسألني أن أفعل به ويستعيذني أن يناله مكروه، وحقق هذه الموافقة من الجانبين حتىٰ اقتضىٰ تردد الرب سبحانه في إماتة عبده، لأنه يكره الموت والرب تعالىٰ يكره ما يكرهه عبده ويكره مساءته، فمن هذه الجهة يقتضي أنه لا يميته ولكن مصلحته في إماتته، فإنه ما أماته إلا ليحييه، وما أمرضه إلا ليصحه، وما أفقره إلا ليغنيه، وما منعه إلا ليعطيه، ولم يخرج من الجنة في صلب أبيه إلا ليعيده إليها علىٰ أحسن الأحوال، ولم يقل لأبيه ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ إلا ليعيده إليها فهذا هو الحبيب علىٰ الحقيقة لا سواه، بل لو كان في كل منبت شعرة من العبد محبة تامة لله لكان بعض ما يستحقه علىٰ عبده. [«الجواب الكافي» ص٢٦٧ ـ ٢٧١].

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ٧/٤٤٣.

الفصل الثاني
بين الطاعة والاتباع

إن الإنسان بعد أن يمنَّ الله عليه بالهداية، ويستقر الإيمان في قلبه، مدعو إلىٰ:

- الالتزام بطاعة الله تعالىٰ وطاعة رسوله ﷺ.
- واتباع الرسول ﷺ.

ولما كانت الطاعة أخص من الاتباع، كان من المستحسن إيضاح ذلك، وبيان ما يترتب علىٰ كل منهما.

الطاعة:

وردت آيات كثيرة تأمر المؤمنين بإطاعة الله ورسوله ﷺ، منها: قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].

وقال تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ

نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

يلاحظ في الآية الأولى أن «الكفر» جعل في مقابل «الطاعة».

ويلاحظ كذلك في الآية الرابعة أن «الطاعة» جعلت في مقابل «المعصية» ولا وجود لحالة ثالثة بين الطاعة والمعصية.

ويلاحظ في الآية الثانية اشتراط الطاعة في الإيمان.

فالطاعة هي الترجمة الحقيقية للإيمان، وبها يستدل عليه، ومن هنا تأتي مكانتها العظيمة التي تصل بالمؤمن إلى أعلى الرتب.

قال تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء].

وإذا كان الأمر كذلك، فما هي الطاعة؟

عرفت كتب اللغة الطاعة بـ«الانقياد».

وأما الطاعة في المفهوم الإسلامي فهي متمثلة في أمرين:

- تنفيذ الأوامر.
- واجتناب النواهي.

قال ﷺ: (إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم)[1].

وقال ﷺ: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله)[2].

وقال ﷺ: (ما أمرتكم به فخذوه، وما نهيتكم عنه فانتهوا)[3].

(١) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).
(٢) رواه البخاري (٢٩٥٧)، ومسلم (١٨٣٥).
(٣) رواه ابن ماجه (١).

وقد كان هذا واضحاً تماماً في أذهان الصحابة رضي الله عنهم:

فعن جابر رضي الله عنه قال: لما استوى رسول الله ﷺ يوم الجمعة قال: (اجلسوا) فسمع ذلك ابن مسعود، فجلس على باب المسجد..[1].

وهكذا جلس ابن مسعود رضي الله عنه عندما سمع الأمر بذلك وكان على باب المسجد.

وغضب ﷺ في حجة الوداع عندما أمر من لم يسق الهدي أن يتحلل ويجعلها عمرة فتردد بعض الصحابة في ذلك..

قالت عائشة رضي الله عنها: فدخل علي وهو غضبان، فقلت: من أغضبك يا رسول الله، أدخله الله النار، قال: (أوما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون؟)[2].

إن مجرد التردد يدخل في ميدان المعصية.

وقد كان الموضوع واضحاً في أذهان الصحابة حتى الإماء منهم.

قال ﷺ لبريرة متشفعاً لزوجها مغيث: (لو راجعته) قالت: يا رسول الله، تأمرني؟ قال: (إنما أنا شافع) قالت: لا حاجة لي فيه[3].

فقد عرفت - وهي أمة من الإماء - أن الأمر يقتضي التنفيذ، فسألت عن كلامه ﷺ هل هو أمر؟..

هذه هي الطاعة: تنفيذ أمر واجتناب نهي.

ولكن هذا التنفيذ تارة يكون تحت عامل القهر والخوف من العقوبة، وتارة يكون عن حب ورغبة ورضى وطواعية..

(١) رواه أبو داود (١٠٩١).
(٢) رواه مسلم (١٢١١).
(٣) رواه البخاري (٥٢٨٣).

والنوع الثاني هو الذي يقوم به المسلم، وهو الذي يحبه الله ويطلبه، بل قد علق الله تعالىٰ وجود الإيمان علىٰ وجوده.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء].

إن الإذعان هنا غير كافٍ ولا بد أن يكون الرضىٰ والاطمئنان من صميم القلب، والانقياد في الظاهر والباطن لا يخالطه أي شائبة.

إن الطاعة لله تعالىٰ ولرسوله ﷺ هي طاعة الحب والرضا، والتي يسارع المسلم إلىٰ أدائها بدافع الإيمان.

ومن خلال هذا الأداء تتضح معالم الحب ناصعة جلية.

الاتباع والتأسي:

قلت: إن الطاعة أخص من الاتباع، فهي مرتبطة بالأمر والنهي، ويقابلها المعصية التي هي ترك المأمور به أو فعل المنهي عنه.

أما «الاتباع والتأسي» فهو أمر وراء ذلك إنه السعي في التأسي بالفعل والقول دون أن يكون مأموراً بذلك.

يقال في اللغة: اتبع فلان فلاناً: مشىٰ خلفه.

وتأسىٰ به: جعله أسوة، أي قدوة.

والمراد هنا: أن يجعل المسلم النبي ﷺ قدوة له وأسوة، يتبعه في كل صغيرة وكبيرة في أقواله وأفعاله، وحبه وكرهه..

فدائرة الاتباع أوسع وأشمل من دائرة الطاعة.

ولعل الأمثلة تساعدنا علىٰ فهم المقصود بالاتباع والتأسي.

● عن أنس ﷺ قال: جاء ثلاثة رهط إلىٰ بيوت أزواج النبي يسألون عن عبادة النبي ﷺ..(١).

فهؤلاء الصحابة ﷺ رغبوا في معرفة عبادته ﷺ في بيوته مما خفي عليهم فجاؤوا يسألون بغية اتباعه ﷺ فيما لم يؤمروا به.

● وعن عائشة ﷺ: أن رسول الله ﷺ خرج ذات ليلة من جوف الليل، فصلّىٰ في المسجد، فصلّىٰ رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم فصلُّوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا، فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ فصلُّوا بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة، عجز المسجد عن أهله، حتىٰ خرج لصلاة الصبح، فلما قضىٰ الفجر أقبل علىٰ الناس فتشهد، ثم قال: (أما بعد، فإنه لم يخف عليَّ مكانكم، لكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها)(٢).

فالنبي ﷺ لم يدع أحداً إلىٰ هذه الصلاة، ولكن الصحابة ﷺ حباً به ﷺ ورغبة في اتباعه والتأسي به فعلوا ذلك.

● وعن عبدالله بن عمر ﷺ: أن النبي ﷺ واصل فواصل الناس، فشقّ عليهم، فنهاهم..(٣).

والنبي ﷺ لم يدْعُهم إلىٰ مواصلة الصوم ولكنهم هم الذي تأسوا به.

● وعن أنس بن مالك ﷺ: أنه رأىٰ في يد رسول الله ﷺ خاتماً من وَرِق(٤) يوماً واحداً، ثم إن الناس اصطنعوا الخواتيم من ورق ولبسوها، فطرح رسول الله ﷺ خاتمه، فطرح الناس خواتيمهم(٥).

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).
(٢) رواه البخاري (٩٤٢)، ومسلم (٧٦١).
(٣) رواه البخاري (١٩٢٢)، ومسلم (١١٠٢).
(٤) الورق: هو الفضة.
(٥) رواه البخاري (٥٨٦٨)، ومسلم (٢٠٩٣).

وهكذا فهو الاتباع، فهو ﷺ لم يأمرهم بلبس الخواتيم، كما لم يأمرهم بطرحها.

● لما كانت المفاوضات في صلح الحديبية أرسل ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه إلىٰ قريش مبلغاً عنه ما جاء له، فأجاره أبان بن سعيد بن العاص، ابن عمه، فلما رأىٰ إزار عثمان إلىٰ نصف ساقه قال: أسبل إزارك كما يسبل قومك، قال عثمان: كهذا يأتزر صاحبنا - يعني رسول الله ﷺ - إلىٰ أنصاف ساقه، قال: يا ابن عم، طف بالبيت، قال: إنا لا نصنع شيئاً حتىٰ يصنع صاحبنا، ونتبع أثره[1].

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لبس عمر قميصاً جديداً، ثم دعاني بشفرة فقال: مدَّ يا بني كمَّ قميصي وألزق يديك بأطراف أصابعي، ثم اقطع ما فضل عنها، فقطعت من الكمين من جانبيه جميعاً، فصار فم الكم بعضه فوق بعض، فقلت: يا أبته لو سويته بالمقص، فقال: دعه يا بني، هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل، فمازال عليه، حتىٰ تقطع، وكان ربما رأيت الخيوط تساقط علىٰ قدمه[2].

أجل: هكذا رأيت رسول الله ﷺ يفعل.

● وعن عمر رضي الله عنه: أنه جاء إلىٰ الحجر الأسود فقبله، فقال: إني أعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبّلك ما قبّلتك[3].

إنه مجرد الاتباع والتأسي.

● وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه كان يأتي شجرة بين مكة والمدينة، فيقيل[4] تحتها، ويخبر أن النبي ﷺ كان يفعل ذلك[5].

---

(١) «طبقات ابن سعد» ٤٦١/١.

(٢) «حلية الأولياء» ٤٥/١.

(٣) رواه البخاري (١٥٩٧)، ومسلم (١٢٧٠).

(٤) يقيل: ينام في منتصف النهار.

(٥) «مجمع الزوائد» رقم الحديث (٨١٣) وقال: رواه البزار ورجاله موثقون.

● وعن عروة بن عبدالله بن قشير قال: حدثني معاوية بن قرة، عن أبيه رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ في رهط من مزينة، فبايعناه وإنه لمطلق الأزرار.

قال عروة: فما رأيت معاوية ولا ابنه في شتاء ولا صيف إلا مطلقي الأزرار[1].

هذه نماذج من اتباعه ﷺ والتأسي به، في جوانب شتىٰ من شؤون الحياة، تدل علىٰ مدىٰ تتبع الصحابة لفعله ﷺ وقوله، رغبة في التأسي به.

وما ذلك إلا تنفيذاً لقوله تعالىٰ:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وقوله تعالىٰ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

وإذا قارنا بين الطاعة والاتباع، رأينا:

- أن الطاعة إنما تعمل في دائرة الفرض والواجب والابتعاد عن المحرم والمكروه، فهي تمثل: درجة المقتصدين التي سبق ذكرها.

- وأن الاتباع والتأسي إنما يكون لمن التزم بالطاعة أولاً ثم انطلق في ميدان الترقي فدخل في هذه الدائرة التي هي درجة السابقين أو درجة الفضل والنفل، كما سبق ذكر ذلك[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٥٧٨).

(٢) قال ابن تيمية: «من كان محباً لله لزم أن يتبع الرسول فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسىٰ به فيما فعل» «الفتاوىٰ» ١٩١/١٠ وقوله هذا تفريق واضح بين الطاعة والاتباع وهو الموضوع المطروح.

وبتعبير آخر:

فميدان الطاعة هو مجال التعبير عن حب العبد لله تعالى.

وميدان الاتباع والتأسي هو ميدان السعي إلى الوصول إلى حب الله تعالى للعبد كما أرشدت إليه الآية السابقة في قوله:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

فاتباعه ﷺ هو الطريق إلى رضوان الله تعالى ومحبته لعبده.

وإنه لا بد من التأكيد على أن الاتباع مجال واسع يتناول «اتباع الأقوال والأفعال، في كل صغيرة وكبيرة، في العادات وفي العبادات، في الفروض والواجبات والمباحات في العمل وفي طريقة أدائه، في القول، وبالطريقة التي أدي بها هذا القول، إنه التأسي بالشكل والمضمون».

«وقد فهم الصحابة ﷺ هذا المعنى من الآية الكريمة، فنقلوا لنا كل ما شاهدوه أو سمعوه منه ﷺ، نقلوا الطريقة والأسلوب.. طريقة الأكل والشرب والنوم والكلام والمشي.. وكل شيء، حتى ما كان من خاصة الإنسان في شؤون بيته..»[1].

وفي ضوء هذا نفهم قوله تعالى ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية:

«هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي، في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي

(١) «السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة» للمؤلف، ص(٩ ـ ١٠)، نشره المكتب الإسلامي.

يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، إنما الشأن أن تُحَبَّ».

وقال العلامة سيد قطب في «الظلال»:

«إن حب الله ليس دعوى باللسان، ولا هياماً بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ﷺ والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة، وإن الإيمان ليس كلمات تقال ولا مشاعر تجيش ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله رسوله».

نخلص من هذا كله إلى أنه لا بد من الطاعة التي هي نتاج محبة العبد لله ورسوله ثم ما يزال العبد يعيش في ظلال محابِّ الله تعالى من خلال اتباعه وتأسيه برسول الله ﷺ، ثم يوسع دائرة هذا الاتباع «حتى يصير كأنه مع النبي ﷺ من بعض أصحابه»[1] كما يقول الإمام ابن القيم. وعندها يكون من الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥ﴾ [المائدة: ٥٤] وهي الغاية التي يسعى إليها كل مسلم.

هل تقع المعصية ممن يحب الله ورسوله؟

إن هذا الدين يراعي شؤون الإنسان في أحواله المختلفة، والإنسان عرضة للوقوع في المحظورات أو ترك المأمورات، فهل يكون ذلك خروجاً من حب الله ورسوله؟

والجواب على ذلك نجده في «صحيح الإمام البخاري» رحمه الله حيث قال:

عن عمر بن الخطاب ﷺ: أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ

(١) «مدارج السالكين» ٢٦٨/٣.

كان اسمه عبدالله، وكان يلقب حماراً، وكان يضحك رسول الله ﷺ، وكان النبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأتي به يوماً، فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتىٰ به. فقال النبي ﷺ: (لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إنه يحب الله ورسوله)[1].

فهذا الحديث نص في الموضوع. قال في فتح الباري:

«وفيه: أن لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب، لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه، وأن من تكررت منه المعصية لا تنزع منه محبة الله ورسوله»[2].

علىٰ أن من كان هذا شأنه لا بد أن يرجع إلىٰ نفسه ويندم علىٰ ما فرط منه، ويتدارك نفسه بالتوبة فإن الله يحب التوّابين.

والذنوب تنقص من محبة الله تعالىٰ بقدرها.

قال الإمام ابن تيمية: «والذنوب تنقص من محبة الله تعالىٰ بقدر ذلك، لكن لا تزيل المحبة لله ورسوله إذا كانت ثابتة في القلب، ولم تكن الذنوب عن نفاق»[3].

وقد جعل الإمام ابن تيمية الذنوب سبباً في نقص محبة الله تعالىٰ، كما هو واضح من قوله.

وذهب بعض العلماء إلىٰ أن الذنوب إنما تصدر عن إنسان مقصر في محبة الله ورسوله، وقد نقل هذا الرأي الإمام ابن حجر حيث قال: «فمن وقع في معصية من فعل محرم، أو ترك واجب، فلتقصيره في محبة الله، حيث قدم هوىٰ نفسه. والتقصير تارة يكون مع الاسترسال في المباحات والاستكثار منها، فيورث الغفلة المقتضية للتوسع في

(١) رواه البخاري (٦٧٨٠).
(٢) «فتح الباري» ٧٨/١٢.
(٣) «قاعدة في المحبة» للإمام ابن تيمية، ص(١٤٠).

الرجاء فيقدم علىٰ المعصية، أو تستمر الغفلة فيقع، وهذا الثاني يسرع إلىٰ الإقلاع مع الندم..»[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الارتباط وثيق بين المعاصي ونقصان المحبة.

قال الإمام ابن القيم: «من عقوبات الذنوب: أنها تضعف في القلب تعظيم الرب جلّ جلاله، وتضعف وقاره في قلب العبد ولا بد، شاء أم أبىٰ، ولو تمكن وقار الله وعظمته في قلب العبد لما تجرأ علىٰ معاصيه..».

ويعالج الإمام ابن القيم مسألة الخطأ في «حسن الرجاء» التي ربما كانت وراء الوقوع في المعصية فيقول:

«وربما اغترّ المغتر وقال: إنما يحملني علىٰ المعاصي حسن الرجاء، وطمعي في عفوه، لا ضعف عظمته في قلبي!

وهذا من مغالطة النفس، فإن عظمة الله تعالىٰ وجلاله في قلب العبد يقتضي تعظيم حرماته، وتعظيم حرماته يحول بينه وبين الذنوب. والمتجرئون علىٰ معاصيه ما قدروه حق قدره، وكيف يقدره حق قدره، أو يعظمه، أو يكبره، أو يرجو وقاره ويجله، من يهون عليه أمره ونهيه؟ هذا من أمحل المحال وأبين الباطل، وكفىٰ بالمعاصي عقوبة أن يضمحل في قلبه تعظيم الله جلّ جلاله..»[2].

وخلاصة القول:

إن المعاصي قد تقع من محب الله تعالىٰ، الذي يتدارك نفسه بالتوبة..

والمعاصي إنما تقع في دائرة «الطاعة» أي حب المقتصدين، لأن

(١) «فتح الباري» ٦١/١.
(٢) «الجواب الكافي» لابن القيم، ص١١٩ - ١٢٠.

المعصية إنما تكون عن ترك مأمور، أو ارتكاب منهي، وهذا غير متصور في دائرة الاتباع التي هي ميدان النوافل، وترك النافلة لا يكون معصية.

وبعد التوبة.. «تحصل للتائب المغفرة.. وكذلك المحبة والود»[1]

(١) انظر في ذلك ـ إن رغبت ـ «مجموع الفتاوىٰ» ٣٠٦/١٠.

الفصل الثالث

فيما يحبه الله تعالىٰ

جاءت الآيات الكريمة بذكر حب الله تعالىٰ للمحسنين والتوّابين، وغيرهم ممن ذكرهم القرآن الكريم.

وهذا الفصل يجمع ما ورد بهذه الصيغة، وهي:

الإحسان، والتوبة، والطهارة، والتقوىٰ، والصبر، والتوكل، والقسط، والجهاد في سبيل الله تعالىٰ.

ولا بد من وقفة قصيرة عند كل منها، نستجلي فيها معالم الموضوع محل البحث. غير ناسين أن كل واحدة من هذه المحاب لا يكون التعامل معها في مستوىٰ واحد بل في كل منها ما هو بدرجة الفرض الذي لا يجوز التهاون في الالتزام به، ثم تكون بعد ذلك درجات الفضل التي بها يحصل علىٰ محبة الله تعالىٰ:

* * *

١ ـ الإحسان
قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

جاء في «القاموس»:

ـ الحُسن ـ بالضم ـ: الجمال.

ـ والإحسان: ضد الإساءة، والحسنة: ضد السيئة.

ـ وهو يحسن الشيء إحساناً: أي يعلمه.

ـ والحَسَن ـ محركة ـ: ما حَسُنَ من كل شيء.

وهكذا تجمع هذه المادة بين الجمال والخير والعلم. وليس هناك من كلمة أخرىٰ تقوم مقامها في هذا الأداء، ولهذا اختارها الله سبحانه لتكون استحقاق الوالدين من الولد عندما قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

والإحسان واحد من محابّ الله تعالىٰ، كما ورد ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة].

وقد ترددت هذه الكلمة ومشتقاتها في القرآن الكريم أكثر من سبعين ومائة مرة مما له أكبر الدلالة علىٰ مكانة الإحسان عند الله تعالىٰ.

ولهذا كان ميدان عمل «الإحسان» هو كل جوانب الحياة، كما بيّن ذلك النبي ﷺ بقوله:

(إن الله كتب الإحسان علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتْلَة[1]، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبح، وليحدَّ أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته)[2].

(١) القتلة: هي هيئة القتل وطريقته.

(٢) رواه مسلم (١٩٥٥).

ينبغي أن يكون الإحسان في كل شيء، واختياره ﷺ القتل والذبح لبيان الإحسان فيهما، هو اختيار في غاية من الدقة والبيان، كيف لا وهو سيد البلغاء، فقد اختار ميداناً لا يتصور فيه الإحسان أصلاً، فبيّن أن القتل الذي لا يكون فيه تعذيب للمقتول هو من الإحسان، والذبح الذي ليس فيه تعذيب للدابة هو من الإحسان، وإذا استطاع الإسلام أن يوصل الإحسان إلىٰ هذا المجال. فإعماله في بقية المجالات من باب أولىٰ.

ـ فالإحسان بالقول مطلوب، بل قد دعا القرآن الكريم إلىٰ ذلك بقوله: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ـ والإحسان بالعمل مطلوب، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[1] وإحسان العمل جعله القرآن مناط النجاح في الابتلاء الذي كتبه الله علىٰ الناس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

فالمقصد من الابتلاء هو ظهور إحسان الأعمال، فإحسان المحسنين إنما يكون به.

ـ وكان من دعائه ﷺ طلب التوفيق من الله لإحسان العبادة. ففي الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن النبي ﷺ أخذ بيده وقال: (يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك) فقال: (أوصيك يا معاذ، لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنّي علىٰ ذكرك وشكرك وحسن عبادتك)[2].

فانظر إلىٰ قوله ﷺ: (وحسن عبادتك).

(١) «مجمع الزوائد» (٦٤٦٠).

(٢) رواه أبو داود (١٥٢٢)، والنسائي (١٣٠٢).

إن الإحسان مطلوب في كل ميادين الحياة ابتداء من كف الأذىٰ عن الطريق وانتهاء بالعبادة، كما رأينا.

* * *

هذا في ميدان المساحة الأفقية لعمل الإنسان.

وهناك تقويم آخر يضعه الصادق المصدوق ﷺ بين أيدينا يأتي «الإحسان» فيه في مكان الذروة والقمة، بين مجموعة القواعد والأسس التي يقوم عليها هذا الدين الحنيف.

وهو ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال:

«بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام: أن تشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلاً).

قال: صدقت.

قال: فعجبنا له، يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: (أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان.

قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك).

قال: فأخبرني عن الساعة.

قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل).

قال: فأخبرني عن أماراتها.

قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة، رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان).

قال: ثم انطلق، فلبثت ملياً، ثم قال لي: (يا عمر، أتدري من السائل؟) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)»[1].

ومحل الشاهد من سوق الحديث قوله ﷺ: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

قال الإمام ابن حجر نقلاً عن الإمام النووي:

«فتقدير الحديث: فإن لم تكن تراه، فاستمر علىٰ إحسان العبادة فإنه يراك».

وقال النووي:

«هذا القدر من الحديث، أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ»[2].

هذه هي مكانة «الإحسان» حيث وصفه الرسول ﷺ (أن تعبد الله كأنك تراه..) وإذا علمنا أن العبادة في هذا الدين تشمل كل أعمال الإنسان، أدركنا مدىٰ الإحاطة والشمول التي تتناولها هذه الكلمات اليسيرة، إنها البلاغة النبوية، وإنها لمن جوامع الكلم.

* * *

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) «فتح الباري» ١/١٢٠.

بعد هذه الجولة التي تعرفنا فيها على معنى الإحسان ومكانته، وميادين عمله، نعود إلى الآية موضوع البحث، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقد جاء هذا النص وما هو قريب منه في ختام خمس آيات من القرآن الكريم يحسن بنا أن نتوقف عندها لنستطلع معناها وما قصدت إليه من خلال سياق النص التي هي ختامه.

ـ قال تعالى:

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾ [البقرة].

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ قال: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقة، أن تمسك بيدك عن النفقة في سبيل الله ولا تلقِ بيدك إلى التهلكة.

وقال الحسن البصري: هو البخل.

قال ابن كثير: ومضمون الآية: الأمر بالإنفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم. والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار، ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة. اهـ(١).

وإذا علمنا أن الآيات التي تسبق هذه الآية كان موضوعها الحث على الجهاد في سبيل الله وأن الجهاد ـ كما يقول سيد قطب ـ يحتاج للرجال ويحتاج للمال، وأن المجاهد المسلم كان يجهز نفسه بعدة القتال ومركب القتال وزاد القتال، وأن كثيراً من المسلمين القادرين على القتال هم من الفقراء تبين لنا معنى الأمر بالإنفاق الوارد في هذه الآية وغيرها.

(١) «تفسير ابن كثير» عند الآية المذكورة.

وهنا يعد عدم الإنفاق تهلكة للنفس بالشح، وتهلكة للجماعة بالعجز والضعف، وبخاصة في نظام يقوم على التطوع، كما هو الشأن لدى المسلمين(١).

وقوله: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وإن كان أمراً عاماً بالإحسان في شتى نواحي الحياة، إلا أنه في سياق الآية جاء تأكيداً للأمر بالعطاء والإنفاق، وقد تعارف المسلمون على إطلاق لفظ «المحسن» على من سخر أمواله في أعمال البر ومشروعات الخير.

وكل مسلم حريص دائماً أن يقوم بما يحبه الله من العمل، فكان ختام الآية تحريضاً واستجاشة للعواطف في سبيل المساهمة والإحسان في ميدان الإنفاق.

٢ ـ وقال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠) وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٣٢) وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ [آل عمران].

تبرز في الآية الكريمة عدة أمور، يطالب بها المسلم حتى يكون في عداد المتقين، وهي:

ـ الإنفاق والجود بالمال في الشدة والرخاء والمنشط والمكره، وجميع الأحوال.

ـ والجود والسماحة بكظم الغيظ.

ـ والجود والسماحة بالعفو عن إساءات الناس.

(١) «في ظلال القرآن» عند الآية المذكورة.

ثم تختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان كما رأينا يشمل هذه الجوانب وغيرها.

بل إن هذا الختام ليبدو أكثر ملاءمة حينما نربطه بأول الآيات، حيث جاء النهي عن الربا، هذا النظام الذي يكرس غنىٰ الأغنياء ويزيد في فقر الفقراء، وينشر الشح والبخل في المجتمع، فتختفي منه أعمال الخير والبر، وأخلاق السماحة والعطف.

وإذا كان الإسلام ينهىٰ عن الربا، فإنه يقيم مكانه في المجتمع الإسلامي نظام «الإحسان» سواء أكان بصورة القرض الحسن أم بصورة العطاء دون مقابل تقرباً إلىٰ الله تعالىٰ.

إن الإحسان الذي تدعو إليه الآية من خلال ختامها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ يغطي كل مساحات العمل الإسلامي من إنفاق في وجوه الخير في السراء والضراء، ومن كظم للغيظ، وعفو عن الناس، وإحسان يلبي حاجة المحتاجين ويمنعهم من اللجوء إلىٰ تغطية ضروراتهم من خلال الاستدانة الربوية.

٣ ـ وقال تعالىٰ:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران].

إن الآية الأولىٰ من هذا النص تشير إلىٰ ما أصاب المسلمين في غزوة أحد، حين انكشف المسلمون.. وأشيع بأن الرسول ﷺ قد قتل.

فكان البيان الذي لا بد منه وهو أن محمداً ﷺ رسول من عند الله مهمته التبليغ وأنه إذا مات فإن الله حي باقٍ لا يموت.

ثم كانت التسلية لهم عما أصابهم بذكر ما أصاب الأنبياء السابقين. وبيان ثباتهم وما دعوا به ربهم..

وكان جزاؤهم أن آتاهم الله ثواب الدنيا، والله يحب المحسنين.

كان ختام الآية شهادة لهم بالإحسان، فقد أحسنوا الأدب وأحسنوا الجهاد..

إنه لفت النظر للمؤمنين بإحسان العمل في الجهاد والثبات فيه، وحسن تقدير الأمور والصبر في الشدائد، واللجوء إلىٰ الله في طلب المغفرة والثبات..

إن الإحسان يتناول كل تلك التصرفات ولذلك ختمت الآيات بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

٤ ـ وقال تعالىٰ:

﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة].

جاء هذا خطاباً للرسول ﷺ وتعليقاً علىٰ وضع اليهود وموقفهم منه، وأن الله لعنهم بنقضهم ميثاقهم، وأن الخيانة لا تزال تظهر منهم من وقت لآخر، ومع ذلك كان الأمر بالعفو والصفح لعل ذلك يؤلف قلوبهم ويردهم إلىٰ الصواب.

وختام الآية واضح العلاقة بما قبله، فالعفو والصفح إنما هو بعض الإحسان.

٥ ـ وقال تعالىٰ:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [المائدة].

جاءت هذه الآية بعد آيات تحريم الخمر، وسبب نزولها: أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: كيف بمن مات منا وهو

يشربها، ويأكل الميسر وماتوا وهي في بطونهم؟ فنزلت مبينة أنهم ماتوا قبل تحريمها فلم يكن عليهم في شربها إثم.

قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وهؤلاء الذين ماتوا قبل تحريم الخمر ولم يكن عليهم إثم في شربها.

﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ ما حرم عليهم بعد ذلك من الخمر والميسر ﴿وَآمَنُوا﴾ بتحريمه.

﴿ثُمَّ اتَّقَوا﴾ كل ما حرم بعد ذلك ﴿وَأَحْسَنُوا﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة الموافقة لما أمر الله تعالىٰ به.

ثم كان ختم الآية بقوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله.

فالإحسان الالتزام بأوامر الشرع في أمر الطعام والشراب تحليلاً وتحريماً.

* * *

وهكذا رأينا من خلال ما جاءت به الآيات أن الإحسان يدخل في كل الأمور، كما نصّ عليه الحديث السابق (إن الله فرض الإحسان علىٰ كل شيء).

وإذا كان الله تعالىٰ يحب المحسنين، وهم الذين اتصفوا بالإحسان، فمن واجب كل مسلم أن يكون فيما يحبه الله تعالىٰ ليكون في جملة من يعنيهم قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤].

نكتفي بهذا القدر من الحديث عن الإحسان ونختم الموضوع بقول الفضيل رَحِمَهُ اللهُ: «ما قطع ظهر إبليس شيء، مثل من أحسن عمله، قال تعالىٰ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] ولم يقل أكثر عملاً»(١).

* * *

(١) «مواعظ الإمام الفضيل بن عياض»، ص١١٢، جمعها صالح أحمد الشامي، نشرها المكتب الإسلامي.

٢ ـ التوبة

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾

جاء في «القاموس»:

تاب إلىٰ الله: رجع عن المعصية، وهو تائب وتوّاب.

وتاب الله عليه: وفّقه للتوبة، أو رجع عليه بفضله وقبوله.

لما كان العبد عرضة للوقوع في المعاصي، والخروج علىٰ أوامر الله تعالىٰ أو الوقوع فيما نهىٰ عنه، جعل الله له برحمته فسحة يراجع فيها حسابه، ليندم علىٰ ما فرط في جنب الله، ويتوب عائداً إلىٰ طريق الصواب والتزام الحق.

ومن رحمة الله تعالىٰ بعباده أن جعل باب التوبة مفتوحاً طول الحياة الدنيا، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها وذلك بدء العلامات الكبرىٰ لقيام الساعة.

قال ﷺ: (مَن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)(١).

ومن رحمته تعالىٰ أن جعل جميع الأوقات محلاً للتوبة، فقد قال ﷺ: (إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار، ليتوب مسيء الليل، حتىٰ تطلع الشمس من مغربها)(٢).

* * *

وقد جاءت الأحاديث الشريفة كثيرة في صدد حث العبد علىٰ التوبة، ومبادرته إليها ومن ذلك قوله ﷺ: (للّه أشد فرحاً بتوبة عبده ـ حين يتوب إليه ـ من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة، فانفلتت

(١) رواه مسلم (٢٧٠٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).

منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتىٰ شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح)[1].

قال الإمام الغزالي: والفرح وراء القبول، فهو دليل علىٰ القبول وزيادة[2].

وقد سبق القرآن الكريم إلىٰ دعوة العباد إلىٰ التوبة. قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

* * *

وقد جاءت الآية الكريمة بلفظ ﴿ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ والتي هي جمع: توّاب، وهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل «تائب» وهي تعني تكرار التوبة، أو التوبة مرة بعد مرة.

فالمسلم العاقل المهتم لأمر آخرته، كلما وقع منه ذنب بادر بالتوبة، فهو لا يترك ذنوبه تتراكم فوق بعضها حتىٰ تصبح راناً يغلف قلبه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] الذين يجددون توبة عند كل مخالفة تقع منهم أو يقعون فيها والله سبحانه وتعالىٰ تتكرر منه المغفرة بتكرر توبة العبد.

قال ﷺ: (أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب.

ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ! اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب

(١) رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧) واللفظ له.

(٢) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٢٥٤.

ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ، اغفر لي ذنبي، فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب.

اعمل ما شئت فقد غفرت لك)[1].

كما أنه سبحانه وتعالىٰ يقبل التوبة مهما كانت الذنوب عظيمة وكبيرة باستثناء الشرك به سبحانه وتعالىٰ، فقد جاء في الحديث المتفق عليه قوله ﷺ:

(كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ علىٰ راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ علىٰ رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟

فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلىٰ أرضك فإنها أرض سوء.

فانطلق، حتىٰ إذا نَصَفَ الطريقَ أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط.

فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيتهما كان أدنىٰ، فهو له.

فقاسوه فوجدوه أدنىٰ إلىٰ الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)[2].

* * *

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

و«التوّاب» اسم من أسماء الله الحسنىٰ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] وهو ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣].

ولأنَّ اسمه تعالىٰ «التوّاب»، ولأنه سبحانه يحب التوّابين، فليس لمذنب حجة أو عذر عندما يقصر، ولا يسارع إلىٰ التوبة، وقد قال ﷺ: (والذي نفسي بيده! لو لم تذنبوا، لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم)(١).

وهذا ليس دعوة لمقارفة الذنوب، وإنما هو دعوة حثيثة للتوجه إلىٰ الله تعالىٰ ـ الذي من أسمائه التوّاب ـ بالتوبة والاستغفار.

* * *

والإسلام لا يقيم طقوساً خاصة للتوبة من الذنوب، وإنما هي قضية بين العبد وربه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ تبدأ من الشعور بالإثم كأثر للذنب، والندم علىٰ ذلك.

و(الندم توبة)(٢) كما قال الرسول الكريم ﷺ، فإذا استقر هذا الندم، كان لا بد له من نتائج في مقدمتها الإقلاع عن الذنب وعدم التفكير بالعودة إليه، يصاحب ذلك استغفار ولجوء إلىٰ الله تعالىٰ في قبول هذه التوبة.

* * *

إن التوبة تنظيف للروح مما أصابها، وتطهير لها لتكون أهلاً للوقوف بين يدي الله تعالىٰ ومناجاته، فمن كان كذلك كان أهلاً لمحبة الله تعالىٰ له.

فالتوبة هي طريق النجاة، لأنها تُدخل صاحبها في عداد مَن يحبهم الله تعالىٰ.

(١) رواه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٥٢).

قال الإمام ابن القيم:

«قسم الله تعالىٰ خلقه إلىٰ قسمين لا ثالث لهما: تائبين وظالمين، فقال: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات].

وكذلك جعلهم قسمين: معذبين وتائبين، فمن لم يتب فهو معذَّب ولا بد. قال تعالىٰ: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴿٧٣﴾﴾ [الأحزاب].

وأمر جميع المؤمنين من أولهم إلىٰ آخرهم بالتوبة، ولا يستثني من ذلك أحد، وعلق فلاحهم بها. قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

وعدد سبحانه نعمه علىٰ خير خلقه، وأكرمهم عليه وأطوعهم له فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة]»(١).

وقال الحسن البصري وقد سئل عن التوبة النصوح: «هي ندم القلب، واستغفار اللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود إليه»(٢).

* * *

والتوبة نوعان:

ـ توبة خاصة من ذنب معين.

ـ وتوبة عامة مطلقة.

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله:

«كثير من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض [الذنوب]

(١) «شفاء العليل» ١/٣٥٠، طبعة العبيكان.

(٢) «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، ١/١٧٩.

المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها، أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضرراً عليه مما فعله من بعض الفواحش، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي يصير بها العبد من المؤمنين حقاً، أعظم نفعاً من ترك بعض الذنوب الظاهرة..

فمن تاب توبة عامة كانت هذه التوبة مقتضية لغفران الذنوب كلها، وإن لم يستحضر أعيان الذنوب..

والذنوب تزول عقوبتها - التي هي جهنم - بأسباب التوبة، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة.. وتزول أيضاً بدعاء المؤمنين كالصلاة عليه وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً».

ثم قال:

والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبة عامة، مع حاجتهم إلى ذلك، فإن التوبة واجبة على كل عبد في كل حال، لأنه دائماً يظهر له ما فرط فيه، من ترك مأمور، أو ما اعتدى فيه من فعل محظور، فعليه أن يتوب دائماً، والله أعلم»[1].

* * *

ومن محبة الله تعالى للتوابين، أنه جعل التوبة منه - سبحانه - عليهم سابقة على التوبة الصادرة منهم.

وإنما يُقبل العبد على التوبة بتوفيق الله تعالى له، فيطلب منه - سبحانه - المغفرة، ويسأله العفو، ولولا هذا التوفيق لم تكن تلك التوبة.

وهذا ما قررته الآيات الواردة في سورة التوبة.

---

(1) «مجموع الفتاوى» ١٠/٣٢٨ - ٣٣٠ باختصار.

قال تعالى:

﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى قوله ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة].

فلولا التوبة السابقة منه سبحانه المقررة بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ﴾ لم تكن التوبة اللاحقة منهم المذكورة بقوله ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾.

فالأولى في مقام العلة للثانية.

فله الفضل سبحانه أن جعلهم محلاً للتوبة، ووفقهم لطلبها، ثم قبلها منهم، بل وفرح بها كما ورد في الحديث الصحيح.

فهو التوّاب سبحانه، وهو قابل التوب وهو الغفور الرحيم.

فشأن «التوبة» في كونها سابقة منه تعالى، كشأن «المحبة» كما مرّ الحديث عنها.

ذلك أن الفضل كله لله تعالى.. في التوفيق للعمل.. وفي قبول العمل.

* * *

٣ ـ الطهارة

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

الطهارة: في اللغة: نقيض النجاسة.

والطهور: المصدر، واسم ما يتطهر به.

جاء الإسلام يدعو إلىٰ الطهارة الكاملة، في ظاهر الإنسان وباطنه، ولحرصه علىٰ ذلك جعل هذه الطهارات مرتبطة بالعبادات ارتباطاً وثيقاً لا تنفك عنها، وإذا علمنا أن بعض هذه العبادات ـ كالصلاة مثلاً ـ هي عمل يومي يؤديه المسلم خمس مرات عرفنا مكانة الطهارة من هذا الدين.

يوضح هذا قوله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان)[1].

ويشرح الإمام الغزالي هذا الحديث، ويرىٰ في شرحه: أن الطهارة هنا تتناول ظاهر الإنسان وباطنه، نظافة ظاهره باستعمال الماء لإزالة الأخباث والأقذار، وإزالة الحدث استعداداً للصلاة، ونظافة الباطن بتطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة، إذ يبعد أن يكون الغسل والوضوء شطر الإيمان.

وبعد هذه المقدمة الموجزة يحسن بنا أن نكون مع الآيتين اللتين تحدثتا عن حب الله تعالىٰ للمتطهرين:

١ ـ قال تعالىٰ:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

ويلاحظ في الآية الكريمة أنها من حيث ظاهرها تتناول أمر

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

الطهارة الظاهرة، فتعالج أمر الحيض عند النساء، وأمر الطهارة بشكل عام عند الرجال والنساء من خلال الحض عليها باعتبارها من محابّ الله تعالىٰ.

والملفت للنظر هو مجيء قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ بين الحديث عن الطهارة من الحيض، والطهارة بشكل عام.

والذي يبدو ـ والله أعلم ـ أن هذه الفقرة من الآية، لا تخرج عن موضوع الآية الكريمة الذي هو الطهارة.

وإذا كانت الطهارة بمفهومها العام تتناول الظاهر والباطن، فليست التوبة من الذنوب والمعاصي إلا التطهير للباطن من الدنس الذي أصابه، والله يحب التوّابين الذين يتعهدون باطنهم دائماً بالطهارة المعنوية، كما يتعهدون ظاهرهم بالطهارة الحسية.

وهكذا نجد أن الآية الكريمة تعالج موضوعاً واحداً، وتؤكد صحة ما ذهب إليه الإمام الغزالي في فهمه للحديث السابق الذكر.

٢ ـ وقال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة].

هذا النص الكريم يسجل جانباً من قصة النفاق التي كانت في المدينة في حياته ﷺ، وقصة مسجد الضرار جزء من أعمال المنافقين، وهي قصة معروفة، وقد أمر ﷺ بهدم هذا المسجد.

ثم أثنىٰ علىٰ مسجد قباء الذي أسس علىٰ التقوىٰ وأثنىٰ علىٰ الأنصار الذين يقومون فيه، وذكرهم بحبهم للطهارة، وقد جاء في الحديث أنهم سئلوا عن طهارتهم فأخبروا أنهم كانوا يستعملون الماء في طهارتهم.

ومهما يكن من أمر فالآيتان تعرضان لفريقين متقابلين.

الأول: الذي أنشأ مسجد قباء على التقوى، وأخلص إيمانه لله فطهر باطنه، كما طهر ظاهره باستعمال الماء.

والثاني: الذي هو فريق النفاق - والنفاق قرين الكفر - فهم تظاهروا بالإسلام ولم ترَ قلوبهم الإيمان ثم بنوا مسجد الضرار، ليكون كما وصفه القرآن الكريم وكراً للتآمر على الإسلام والمسلمين.. فهم رجس في باطنهم وظاهرهم.

والآية مختومة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ والمراد: كل ما تعنيه الطهارة من معنى.

نقل ابن كثير عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المطهرون من الذنوب. وقال الأعمش: التوبة من الذنب، والتطهر من الشرك.

وبعد:

فإن الطهارة التي يحث عليها الإسلام ليست قاصرة على ما سبق الحديث عنه، والذي هو ظاهر الإنسان وباطنه.

بل يدخل فيها طهارة البيوت حساً ومعنى، ويكون الأول بالمحافظة على نظافتها أرضاً وفرشاً..، ويكون الثاني بالمحافظة على شرف البيوت وأمنها وحسن سمعتها، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب].

ويدخل في ذلك طهارة المساجد التي جاء الأمر بها صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج].

وطهارة الأزقة والطرق..

إلى آخر ما هنالك في هذا الباب مما يصعب حصره.

فمن أراد أن يكون ممن يحبهم الله، وهو مطلب رفيع، فليكن من المتطهرين.

* * *

٤ - التقوى

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

التقوى لغة: يقال: اتقيت الشيء: حذرته، والاسم التقوى.

وفي «الرسالة القشيرية»: حقيقة الاتقاء: التحرز بطاعة الله من عقوبته، يقال: اتقى فلان بترسه، وأصل التقوى: اتقاء الشرك، ثم بعد ذلك اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعد ذلك اتقاء الشبهات، ثم بعد ذلك ترك الفضلات(١).

* * *

جاء ذكر محبة الله للمتقين في ثلاث آيات في القرآن الكريم، من المستحسن أن نذكرها، قبل الخوض في الموضوع:

١ - قال تعالى:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران].

٢ - وقال تعالى:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة].

٣ - وقال تعالى:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة].

---

(١) «الرسالة القشيرية» ص١٠٥، تحقيق معروف زريق، دار الجيل بيروت.

يلاحظ أن هذه الآيات الكريمة تتحدث جميعاً عن قضية العهود والالتزام بها. ثم كان التعقيب على ذلك بذكر محبة الله للمتقين، مما يشعر أن قضية الوفاء بالعهود أثر من آثار التقوىٰ ومَن اتصف بها يستحق محبة الله تعالىٰ.

علىٰ أننا إذا رجعنا إلىٰ آيات الكتاب الحكيم نجد كثيراً منها يحدد معالم التقوىٰ وصفات المتقين، ويحسن بنا أن نذكر نماذج لذلك:

* * *

١ ـ قال تعالىٰ:

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة].

٢ ـ وقال تعالىٰ:

﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة].

٣ ـ وقال تعالىٰ:

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝١٣٥﴾ [آل عمران].

* * *

وإذا نظرنا في الآية الأولىٰ وما تبعها، نجد أن «المتقين» وُصفوا بالصفات الآتية:

ـ الإيمان بالغيب.

ـ إقامة الصلاة.

ـ الإنفاق في سبيل الله.

ـ الإيمان بالكتب السماوية.

ـ الإيمان بالآخرة.

ونلاحظ في الآية الثانية أنها ذكرت طائفة من أعمال البر، ثم قالت عن القائمين بهذه الأعمال أنهم هم المتقون وهذه الأعمال هي:

ـ الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين.

ـ إيتاء المال في سبل الخير.

ـ إقامة الصلاة.

ـ إيتاء الزكاة.

ـ الوفاء بالعهد.

ـ الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

ولدىٰ النظر في الآية الثالثة وما تبعها نستطيع ذكر ما وُصف به المتقون بالآتي:

ـ الإنفاق في السراء والضراء.

ـ كظم الغيظ.

ـ العفو عن الناس.

ـ الاستغفار من الذنوب.

ـ عدم الإصرار علىٰ المعاصي.

هذا ما جاء في وصف المتقين في هذه الآيات التي إنما هي نماذج لما جاء في تبيان صفات المتقين، ولو ذهبنا نتتبع الآيات الواردة في الموضوع لوجدنا كثيراً غيرها، ويكفي في ذلك أن الله تعالىٰ أطلق علىٰ شهادة التوحيد اسم كلمة التقوىٰ فقال تعالىٰ:

﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]، فكلمة التقوىٰ هي «لا إله إلا الله».

ويكفي أيضاً أن الله سبحانه جعل مستقر التقوىٰ هو القلوب فقال تعالىٰ في وصف الصحابة رضي الله عنهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات: ٣] أي أخلصها لها وجعلها أهلاً ومحلاً لذلك.

وقال ﷺ: (التقوىٰ هاهنا) ويشير إلىٰ صدره الشريف ثلاث مرات[1].

ويكفي أيضاً أن الله تعالىٰ جعلها عامل التكريم والتقديم عنده فقال:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

نخلص من هذا إلىٰ أن «التقوىٰ» كلمة ذات مدلول كبير شامل، يعني الاستقامة مع أوامر الله تعالىٰ فيما أمر به، والابتعاد عما نهىٰ عنه، ولذلك كانت العاقبة للمتقين، كما قال تعالىٰ:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

وفي ضوء ما سبق يتضح لنا: لماذا استحق المتقون محبته سبحانه وتعالىٰ.

قال الإمام ابن تيمية :

«إن اسم «تقوىٰ الله» يجمع فعل كل ما أمر الله به، إيجاباً واستحباباً، وترك ما نهىٰ عنه تحريماً وتنزيهاً. وهذا يجمع حقوق الله وحقوق العباد..

وتفصيل أصول التقوىٰ وفروعها، لا يحتمله هذا الموضع، فإنها الدين كله..»[1].

* * *

(١) «مجموع الفتاوىٰ» ١٠/٦٥٨ - ٦٥٩.

٥ ـ الصبر

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾

الصبر في اللغة: الحبس والكف، وهو نقيض الجزع.

وقد ورد ذكر محبة الله تعالى له في آية واحدة وهي قوله تعالى:

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران].

جاءت هذه الآية في سورة آل عمران خلال الحديث عن آثار غزوة أحد وما أصاب المسلمين، وإشاعة أن الرسول ﷺ قد قُتل فجاء قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ ثم بيَّن أن الآجال محدودة، وأن دخول المعارك لا يغير هذه الآجال.. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾.

ومن المعروف أن القتال في سبيل الله يحتاج إلى الصبر، بل لا يكون إلا بالصبر فكان قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ دفعاً للمسلمين إلى إتيان ما يحبه الله وهو الجهاد في سبيل الله.

على أن النص يظل عاماً يتناول الصبر في كل ميادينه.

قال الإمام ابن القيم:

«قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً.

وهو واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان: نصف صبر، ونصف شكر».

وقال: «وهو مذكور في القرآن على ستة عشر نوعاً:

ـ منها: الأمر به، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

ـ ومنها: الثناء على أهله نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة].

ـ ومنها: إيجاب معيته لهم كقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]»[1].

وقال الإمام ابن القيم نقلاً عن صاحب المنازل:

«والصبر على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: الصبر عن المعصية بمطالعة الوعيد، إبقاء على الإيمان، وحذراً من الحرام، وأحسن منها: الصبر عن المعصية حياء.

الدرجة الثانية: الصبر على الطاعة، بالمحافظة عليها دواماً، وبرعايتها إخلاصاً، وبتحسينها علماً ـ أي وقوعها على مقتضى العلم ـ.

الدرجة الثالثة: الصبر في البلاء، بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وبذكر سوالف النعم»[2].

وقال الإمام الغزالي:

«واعلم أن الصبر باعتبار حكمه ينقسم إلى: فرض ونفل ومكروه ومحرم.

فالصبر عن المحظورات: فرض.

وعلى المكاره: نفل.

---

(١) «مدارج السالكين» ٢/١٥٢ ـ ١٥٣.

(٢) «مدارج السالكين» ٢/١٦٤ ـ ١٦٦، وجاء في «تقريب طريق الهجرتين» ص٣٧٤

«الصبر ثلاثة أقسام:

ـ إما صبر عن المعصية فلا يرتكبها.

ـ وإما صبر على الطاعة حتى يؤديها.

ـ وإما صبر على البلية فلا يشكو ربه فيها.

وإذا كان العبد لا بد له من واحد من هذه الثلاثة، فالصبر لازم له أبداً، لا خروج له عنه البتة».

والصبر على الأذى المحظور محظور، كمن يقصد حريمه بسوء، فإن لم تهج غيرته وسكت فهذا الصبر محرّم»[1].

والصبر إنما يكون عند الصدمة الأولى. فقد مرّ النبي ﷺ بامرأة تبكي عند قبر، فقال: (اتقي الله واصبري) قالت: إليك عني فإنك لم تُصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي ﷺ، فأتت باب النبي ﷺ، فلم تجد عنده بوّابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[2].

ولا بد من ضبط اللسان عند المصيبة حتى يكون الإنسان صابراً كما قال ﷺ: (ولا نقول إلا ما يرضي ربنا)[3].

ولهذا قالوا: الصبر حبس النفس على المكروه، وعقل اللسان عن الشكوى.

إن رحلة الحياة مليئة بالمصاعب ولا يمكن التغلب عليها إلا بالصبر، فكانت دعوة الإسلام إلى الصبر توجيهاً إلى الطريق الأمثل والذي لا سبيل غيره في كثير من الأحيان، ثم إن الله تعالى يثيب الإنسان على ما يصيبه، ويثيبه على الصبر، ويكفي المسلم عزاء عما يصيبه أن يكون في عداد من أحبّه الله إذا صبر.

* * *

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٢٨٠.
(٢) رواه البخاري (١٢٨٣)، ومسلم (٩٢٦).
(٣) رواه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٣١٥).

٦ ـ التوكل

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾

«التوكل مشتق من الوكالة، يقال: وكل أمره إلى فلان، أي فوّضه إليه، واعتمد عليه فيه.

فالتوكل: عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده»[1].

قال الإمام ابن القيم:

«قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب.

ومعنى ذلك: أنه عمل قلبي، ليس بقول اللسان، ولا عمل الجوارح»[2].

أما الآية محل الشاهد في موضوعنا، فهي قوله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران].

وإذا أمعنا النظر في الآية الكريمة رأينا أن اتخاذ الأسباب يسبق التوكل، وأن التوكل الذي أحبّ الله المتصفين به لا يكون بغير ذلك:

ففي الآية الكريمة:

ـ الأمر بالمشاورة، وهي تداول الرأي في الموضوع محل البحث، وتقليب وجوهه حتى إذا استبان له ما يعتقد أنه الصواب وأنه الأفضل جاء دور العزم.

ـ فالعزم: هو الخطوة الثانية بعد الوصول إلى ما رؤي أنه الصواب.

(١) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٥١.
(٢) «مدارج السالكين» ٢/١١٤.

- ثم التوكل والإقدام على إنفاذ ذلك.

فالتوكل يسبقه اتخاذ الأسباب، وهذه الأسباب مرتبطة بطبيعة الأمر الذي هو محل البحث، فالمزارع مثلاً: يحرث الأرض، ويعدها، ويعمل فكره فيما تصلح له من المزروعات وما يتناسب مع طبيعة تربتها، ثم يختار البذر، ثم ينتظر الوقت المناسب لبذر الحب.. ثم يتوكل على الله في أن يكلل عمله وجهده بالنجاح.

وفعله وقوله ﷺ لا يخرج عن هذا التسلسل الذي ذكرته الآية الكريمة، وإن أي واقعة في حياته ﷺ - إذا تفحصناها رأينا أنها - تندرج وفق هذا النظام.

فلو نظرنا في هجرته ﷺ لوجدناه قد اتخذ من الأسباب الشيء الكثير، وحسب لكل شيء حسابه.

- فقد جاء إلى بيت أبي بكر في حر الظهيرة في الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، وذلك حتى لا يراه أحد.

- ثم رتب الموعد معه وقام أبو بكر بإعداد المركوب والزاد واستئجار الدليل.

- ولما كان الموعد كان الانطلاق من بيت أبي بكر ؓ من باب خلفي.

- ثم كان الاختفاء في الغار لمدة ثلاثة أيام حتى يخف الطلب.

- ثم كان تدبير الأمور خلال هذه الأيام في معرفة الأخبار.

إلى غير ذلك مما هو معروف ومقرّر في كتب السيرة.. كانت كل هذه الاحتياطات وكان مع ذلك كله وبعده التوكل، هذه هي سنته الفعلية.

وأما سنته القولية فكثيرة.

منها الحديث المتفق عليه عن علي ؓ: أن الصحابة ؓ قالوا

إثر سماع حديث من رسول الله ﷺ: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل، قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

وعن عمر بن الخطاب ؓ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (لو أنكم توكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً[١] وتروح بطاناً)[٢].

فالطير لم تجلس في أعشاشها تنتظر مجيء الرزق إليها، وإنما تخرج في الغدو أول النهار ساعية، وترجع وقد حصلت رزقها.

وفي حديث أنس: أنه ﷺ قال للرجل الذي ترك ناقته بباب المسجد دون أن يعقلها ظاناً أن التوكل يقتضي ذلك: (اعقلها وتوكل)[٣].

فالإعداد والعمل يسبق التوكل.

قال الإمام الغزالي:

«قد يُظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة، وهذا ظن الجهّال.

وذلك حرام في الشرع، والشرع قد أثنى على المتوكلين، فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين؟»[٤].

وقال عبدالكريم القشيري: «واعلم أن التوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب، بعدما تحقق العبد أن التقدير

(١) خماصاً: أي جياعاً.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٥١٧).

(٤) «المهذب من إحياء علوم الدين» ٢/٣٥٤.

من قبل الله تعالى، وإن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره»[1].

إن اتخاذ الأسباب أمر مطلوب بل ومأمور به في نصوص كثيرة لا تحصى، والتوكل أمر مطلوب ومأمور به، بل هو من مكملات الإيمان، ولا تعارض بين الأمرين بل كل منهما يكمل الآخر.

والوقوف على الآية الكريمة الآنفة الذكر يوضح الطريق لمن أراد التوكل الذي أحبه الله فليمعن المسلم النظر إليها والتفكر فيها ليتعلم التوكل الصحيح، وكيف أن العمل يسبقه.

قال الإمام ابن القيم :

«اعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل البتة، لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سبباً في حصول المدعو به»[2].

* * *

(١) «الرسالة القشيرية» ص١٦٣.
(٢) «مدارج السالكين» ١١٨/٢.

٧ ـ القسط

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

القسط: العدل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ جاء ختاماً لثلاث آيات في القرآن الكريم هي:

قوله تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات].

وقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة].

هذه الآيات جميعها تطلب إقامة العدل بغض النظر عن الأطراف المتخاصمة، فإقامة العدل بحد ذاتها هدف من أهداف هذا الدين.

فالآية الأولى جاءت في صدد الحديث عن اليهود، وطلبت من الرسول ﷺ إذا جاؤوا إليه طالبين حكمه: أن يعرض عنهم، أو أن يحكم بينهم بالعدل.

وجاءت الآية الثانية في شأن الإصلاح بين المؤمنين وأن يكون ذلك بالقسط.

وجاءت الآية الثالثة بشأن المشركين الذين لم يقاتلوا الرسول ﷺ، وقد طلب منه ﷺ أن يعدل فيما بينه وبينهم: بأداء ما لهم من حق، كالوفاء بالوعد وغير ذلك مما هو من تعاليم هذا الدين وشعائره.

إن إقامة العدل في الحياة هدف رئيس سعىٰ الإسلام إلىٰ إقامته في شتىٰ ميادين الحياة وليس في إطار الخصومات والمنازعات وحسب، وكيف لا يفعل ذلك والله سبحانه يجعله غاية لإرسال الرسل وإقامة الشرائع، كما قال تعالىٰ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

إن الإمام العادل يأتي علىٰ رأس قائمة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله. وما رشحه إلىٰ هذه المكانة في ذلك اليوم العصيب إلا عدله.

والقضاة ثلاثة قاض في الجنة وقاضيان في النار، أما الذي في الجنة، فهو الذي عرف الحق وحكم به.

والعدل بين الأولاد أمر واجب فالرسول الكريم ﷺ يقول: (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)[١].

والعدل بين الزوجات واجب بنص القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣].

ويعمم الإسلام أمر العدل في كل الميادين تنفيذاً لقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

ولعله من المفيد أن نعلم أن «المقسط» هو اسم من أسماء الله الحسنىٰ[٢]، ولهذا دلالة كبيرة علىٰ شأن القسط والعدل.

إن كل ما سبق يبين استحقاق المقسطين لمحبة الله سبحانه وتعالىٰ.

* * *

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢) كما جاء ذلك في حديث الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١).

٨ ـ الجهاد في سبيل الله

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ﴾

قال ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه علىٰ الله)[١].

هذه هي الغاية من الجهاد، وهي انصياع الخلق إلىٰ الاعتراف بألوهية الخالق وإقامة حياتهم علىٰ وفق ما شرع لهم أمراً ونهياً.

فليست الغاية استعباد الناس، ولا السيطرة علىٰ دنياهم من أموال ومتاع، ولا ارتفاع أمة علىٰ حساب أمة أخرىٰ.

إن الجهاد لا يقارَن بأي نوع من أنواع القتال التي تحدث بين الأمم، والتي عادة ما تكون بغية الاستيلاء علىٰ الأرض أو السيطرة علىٰ الناس وتسخيرهم، أو تلبية لنزوات كبار القوم.

إن الجهاد هو الوسيلة لإيصال دعوة الإسلام إلىٰ الناس، فهي في غاية الأمر لمنفعة المدعوين، وقد قال ﷺ لعلي رضي الله عنه: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن المسلم الذي يذهب إلىٰ ساحة القتال، لا يدفعه إلىٰ ذلك مغنم أو شهرة أو حمية قومية، وإنما تنفيذاً لأمر الله وابتغاء رضوانه، تاركاً دنياه وأهله وماله في سبيل ذلك إنه يقوم بعمل يستحق أن يكرم من أجله ولذلك كان ممن يحبهم الله تعالىٰ.

ولهذا المعنىٰ كان الجهاد ذروة سنام الإسلام، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه:

(١) رواه البخاري (٢٩٤٦)، ومسلم (٢١).

(٢) رواه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦).

(ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟) قلت: بلىٰ يا رسول الله، قال: (رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد)[1].

* * *

أما الآية الكريمة التي نحن بصدد الحديث عنها فهي قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف].

إن الآية تقرر حب الله تعالىٰ للذين يقاتلون في سبيله، ولكنها تخصهم بوصف التراص في الصف حتىٰ كأنهم بنيان مرصوص.

وإذن فالجانب الذي تسلّط الآية الكريمة عليه الضوء هو أن يكون المجاهدون جماعة متراصة.

والإسلام في كل شؤونه يربي أبناءه علىٰ روح الجماعة.. ولا أدل علىٰ ذلك من التأكيد علىٰ صلاة الجماعة.. وهي تقام صفوفاً كصفوف الملائكة..

وإذا كان مطلوباً من الجماعة أن تكون صفوفاً في صلاتها، فإنه مطلوب منها أن تكون كذلك في جهادها.. ولا فرق في الأصل: فالصلاة عبادة والجهاد عبادة.

قال العلامة سيد قطب

«ونقف أمام الحالة التي يحب الله للمجاهدين أن يقاتلوا وهم عليها: ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ فهو تكليف فردي في ذاته، ولكنه فردي في صورة جماعية، في جماعة ذات نظام، ذلك أن الذين يواجهون الإسلام يواجهونه بقوىٰ جماعية، ويؤلبون عليه تجمعات ضخمة، فلا بد لجنود الإسلام أن يواجهوا أعداءه صفاً، صفاً سوياً

---

(١) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

منتظماً، وصفاً متيناً راسخاً، ذلك أن طبيعة هذا الدين حين يغلب ويهيمن: أن يهيمن علىٰ جماعة وأن ينشىء مجتمعاً متماسكاً متناسقاً.

فصورة الفرد المنعزل الذي يعبد وحده، ويجاهد وحده، ويعيش وحده، صورة بعيدة عن هذا الدين، وعن مقتضياته في حالة الجهاد.

وهذه الصورة التي يحبها الله للمؤمنين، ترسم لهم طبيعة دينهم، وتوضح لهم معالم الطريق، وتكشف لهم عن طبيعة التضامن الوثيق الذي يرسمه التعبير القرآني المبدع ﴿صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾»[1]

هؤلاء المقاتلون الذين يقدمون أرواحهم ابتغاء مرضاة الله تعالىٰ ممتثلين أمره في أداء مهمتهم وهم صف واحد كما أرادهم الله وكما أمرهم.. هم الذين يحبهم الله تعالىٰ.. وهذا مبتغاهم.

---

(١) «في ظلال القرآن» عند تفسير الآية الكريمة.

الفصل الرابع

ما لا يحبه الله تعالىٰ

كان الفصل السابق في ذكر ما يحبه الله تعالىٰ، وفي هذا الفصل أذكر ما لا يحبه الله تعالىٰ مما ورد بهذه الصيغة في القرآن الكريم.

وهي أمور يجب اجتنابها والابتعاد عنها.

وقد سبق أن العبد لا يكون محباً لله تعالىٰ، إلا إذا أحبَّ ما يحب وأبغض ما يبغض.

وسوف أذكر هذه الأمور مع شرح مختصر لكل منها، مذكراً بأنها ليست في درجة واحدة. فما لا يحبه الله كثير، منه ما هو في دائرة التحريم، ومنه ما هو في دائرة الكراهة، ومنه ما هو أقل من ذلك..

فالكفر لا يحبه الله، وهو مقابل الإيمان، وهو الذنب الذي لا يغفره الله تعالىٰ.

والظلم لا يحبه الله، ولكنه ليس في درجة الكفر، إذ يمكن التوبة منه بعد إرجاع الحق لصاحبه.

والإسراف لا يحبه الله، ولكنه في بعض معانيه لا يصل إلىٰ درجة الظلم.

والمسلم الحريص علىٰ محبة الله تعالىٰ، عليه الابتعاد عما لا يحبه الله تعالىٰ بغض النظر عن درجته.

* * *

١ ـ الكفر

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

جاءت مادة «الكفر» في اللغة بمعنيين:

١ ـ الكفر: ضد الإيمان:

ومعظم الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها ذكر الكفر، إنما ورد فيها بهذا المعنىٰ ومنها قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٦)﴾ [البقرة].

وقوله تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ (١٠)﴾ [المائدة]

قال الإمام ابن تيمية:

«الكفر: عدم الإيمان ـ باتفاق المسلمين ـ سواء اعتقد نقيضه وتكلم به، أو لم يعتقد شيئاً ولم يتكلم به[1]».

٢ ـ الكفر: جحود النعمة، وهو ضد الشكر.

ومنه قوله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ (١٢)﴾ [لقمان].

وقوله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

(١) «الفتاوىٰ» ٨٦/٢٠.

٣ ـ وهناك معنىً ثالث وهو: الستر والغطاء، يقال: كَفَر عليه يكفر: غطاه، والشيء: ستره. والكافر: الزارع لأنه يغطي البذر بالتراب.

وهذا المعنىٰ يرجع إلىٰ المعنيين السابقين:

ـ فالكافر بالمعنىٰ الأول: ستر حقيقة وجود الله تعالىٰ والإيمان به.

ـ والكافر بالمعنىٰ الثاني: ستر النعمة بجحده إياها وعدم شكرها.

* * *

بعد هذه المقدمة نعود إلىٰ الآيات التي ختمت بـ: (إن الله لا يحب الكافرين) وهي:

١ ـ قوله تعالىٰ:

﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَٰتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾ [البقرة].

جاءت هذه الآية الكريمة بعد آيتين إحداهما تحض علىٰ البذل والإنفاق للفقراء وبخاصة الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، والثانية تنفر من الربا وتحرّمُ التعامل به.

وختام الآية وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ لا بد أن يكون ذا علاقة بما سبقه، ولهذا فـ«كفار» هنا بالمعنىٰ الثاني وهو جحود النعمة.

وهذا ما ذهب إليه الإمام ابن كثير في شرح الآية الكريمة فقال:

«أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضىٰ بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من الكسب المباح،

فهو يسعىٰ في أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم يأكل أموال الناس بالباطل..».

٢ ـ وقوله تعالىٰ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ (٣٢)﴾ [آل عمران].

وقد جاء قوله تعالىٰ هنا: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ﴾ تعقيباً علىٰ أمرين:

ـ ادعاء الحب لله.

ـ وطاعة الله ورسوله.

فادعاء الحب له آثار وهو اتباعه ﷺ، ومن ادعىٰ ذلك ولم يكن له رصيد في الاتباع والتطبيق فهو كاذب.

وطاعة الله ورسوله لا بد منها ليكون المسلم في عداد المؤمنين.

وقد جاء ختام الآية بهذا الشكل للتنفير من الأمرين وأن الاستمرار في الادعاء دون اتباع، وبغير طاعة ربما أديا إلىٰ الكفر.

٣ ـ وقوله تعالىٰ:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَٰفِرِينَ (٤٥)﴾ [الروم].

فالكافر: الذي لم يؤمن ولم يعمل الصالحات فإن الله لا يحبه.

* * *

وبعد: فإن هذه الآيات الكريمة تقرر أن الله تعالىٰ لا يحب الكافرين.

ويترتب على ذلك أن المسلم دائماً يكون فيما أحبه الله بعيداً عما كرهه، وهذا يستلزم سلوكاً عملياً ينبغي عليه أن يسلكه يمكن تلخيصه وفقاً لما جاءت به الآيات السابقة بالآتي:

١ ـ البُعد عن الكافرين الذين لم يؤمنوا بالله ورسوله، وكرههم في ذات الله، وعدم موالاتهم أو موادتهم.

٢ ـ التزام الإيمان والعمل الصالح وهو ما جعله الله تعالى في مقابل الكفر، كما جاء في آية الروم ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

٣ ـ المداومة على شكر الله تعالى فإن الله تعالى جعله في مقابل الكفر كما ورد في الآيات الكريمة في أول الموضوع.

٤ ـ البُعد عن الربا وملابسة أهله فإن الله جعله قرين الكفر عندما عقب على النهي عنه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾ [البقرة].

٥ ـ التزام طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ فإنهما الوجه المقابل للكفر كما ورد في الآية الثانية.

وخلاصة القول:

إن المسلم مطالَب بالبُعد عن الكفر سواء أكان كفر اعتقاد، أو كفر جحود للنعمة وعدم شكرها، أو كل ما يمت إلى هذين الأمرين بصلة، حتى إن المرأة مطالبة بالبُعد عن الكفر الذي هو سبب كثرة النساء في أهل النار، والذي فسّره الرسول ﷺ بقوله: (يكفرن الإحسان، ويكفرن العشير، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئاً قالت: ما رأيت منك خيراً قط)[١].

* * *

(١) رواه البخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧).

٢ ـ الظلم

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾

الظلم لغة: وضع الشيء في غير موضعه. وظلمه حقه، فهو ظالم.

والظلمة والظلام: ذهاب النور.

جاء ذكر الظلم في القرآن الكريم في قريب من مائتي آية، كلها تندد بالظلم وتتوعد الظالمين. وما ذلك إلا لأن العدل هو إحدى القواعد الكبرى التي أقام الإسلام بناءه عليها في هذه الحياة، وكذلك الحساب في الحياة الآخرة إنما يقام لإحقاق الحق وإقامة العدل، فلا ظلم في ذلك اليوم.

والعدل: اسم من أسماء الله الحسنى، والله هو الحكم العدل[١].

وكثيرة كثيرة هي الآيات التي تتحدث عن عاقبة الظلم والظالمين. وكيف أن الله لعنهم وأبعدهم من رحمته.

وقد جاء قوله تعالى في عدم محبة الظالمين في ثلاث آيات كريمة هي:

١ ـ قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران].

(١) كما جاء في حديث الترمذي (٣٥٠٧)، وابن ماجه (٣٨٦١).

والتعقيب هنا ـ والله أعلم ـ بيان بأن الكافرين الذين سيُعذَّبون في الآخرة إنما يُعذَّبون وفقاً لنظام العدل الذي وضعه الله، فلا ظلم في ذلك اليوم فالله سبحانه وتعالىٰ لا يحب الظالمين.

وفيه إشارة إلىٰ أن الكافرين ظلموا أنفسهم بكفرهم، والله لا يحب الظالمين فاستحقوا العقوبة لذلك.

٢ ـ وقال تعالىٰ:

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [آل عمران].

جاءت هذه الآيات في صدد مواساة المؤمنين عما أصابهم يوم أحد، ومن ذلك أن الشهداء الذين قضوا في سبيل الله، كانوا فيما يحبه الله تعالىٰ وهو مواجهة الظالمين الذين لا يحبهم الله تعالىٰ.

٣ ـ وقال تعالىٰ:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الشورى].

للمفسرين في هذه الآية الكريمة مذهبان:

ـ فذهب بعضهم إلىٰ أن الله سبحانه سمح لمن بُغي عليه بالانتصار، لأنه لا يحب الظالمين. والظالم هنا الذي ابتدأ بالبغي والسيئة، فاستحق أن يلقىٰ سيئة كالتي بادأ بها.

ـ وذهب بعضهم إلىٰ أن الله تعالىٰ أتاح لمن اعتُدِيَ عليه أن ينتصر ممن ظلمه، ولكن ذلك مشروط بأن لا يتجاوز في انتصاره

حقه، فجزاء سيئة سيئة مثلها، وفي الآية تحذير له من أن يتحول من منتصر ممن ظلمه إلىٰ أن يصبح ظالماً، فالله سبحانه لا يحب الظالمين. فلا ينبغي للمظلوم أن يتحول إلىٰ ظالم.

❋ ❋ ❋

إن المسلم الذي يسعىٰ أن يكون في مرضاة الله وفيما يحبه سبحانه وتعالىٰ، عليه أن يبتعد عن الظلم بكل أشكاله

هذا الأمر الذي حرمه الله وأمر بالابتعاد عنه.

قال ﷺ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالىٰ:

(يا عبادي! إني حرّمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظالموا)[1].

وقال ﷺ:

(اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[2].

وعن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله ليملي للظالم[3] فإذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود])[4].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه قوله ﷺ:

(واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب)[5]

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٣) ليملي: أي يمهله.

(٤) رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٥) رواه البخاري (٢٤٤٨)، ومسلم (١٩).

ويعد الحكام الظلمة في طليعة الظالمين. وهذا ما جاء في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

(صنفان من أهل النار لم أرهما:

قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس.

ونساء كاسيات عاريات مميلات[1] مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت[2] المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا)[3].

* * *

---

(١) مميلات: مميلات لأكتافهن، ومائلات: متبخترات في مشيتهن.

(٢) البخت: الإبل الخراسانية، أي رؤوسهن كبيرة بسبب شكل تسريحة الشعر.

(٣) رواه مسلم (٢١٢٨).

٣ ـ التعدي

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾

التعدي: مجاوزة الشيء إلى غيره.

واعتدى عليه وتعدى عليه، كله بمعنى.

والعدوان: الظلم.

وقد جاء قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في ثلاث آيات هي:

١ ـ قال تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة].

قال ابن كثير قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله، أي كما يقاتلونكم قاتلوهم أنتم.

قال: وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك، ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة.

فالتعدي هنا التجاوز في القتال من المقاتلين إلى غيرهم ممن لا مشاركة لهم في ذلك.

٢ ـ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [المائدة].

قال ابن كثير: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم، كما قاله من قاله من السلف.

ويحتمل أن يكون المراد: كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تتجاوزوا الحد فيه.

فالتعدي إذن: يكون في التضييق في ما أحلّ الله تعالىٰ، كما يكون في استباحة ما حرّم الله، فكلاهما تجاوز لحدود ما شرعه الله تعالىٰ، والله لا يحب المعتدين.

٣ ـ وقال تعالىٰ:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف].

قال ابن جرير: «تضرعاً: تذللاً واستكانة لطاعته، وخفية: يقول بخشوع قلوبكم وصحة اليقين بوحدانيته وربوبيته».

وقال الحسن البصري: «لقد أدركنا أقواماً ما كان علىٰ الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر فيكون علانية أبداً، لقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسْمَع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم وذلك أن الله تعالىٰ يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾».

وقال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ في الدعاء ولا في غيره.

وقد جاء تفسير قول ابن عباس في «السنن».

فقد روىٰ أبو داود عن ابن لسعد بن أبي وقاص قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة ونعيمها وبهجتها وكذا وكذا وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها وكذا وكذا فقال: يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون قوم يعتدون في الدعاء) فإياك أن تكون منهم، إن أُعطيت الجنة أُعطيتها وما فيها، وإن أُعذت من النار أُعذت منها وما فيها من شر(١).

---

(١) رواه أبو داود (١٤٨٠).

وروىٰ ابن ماجه عن عبدالله بن مغفل: أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها، فقال: أي بني، سل الله الجنة، وعذ به من النار، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (سيكون قوم يعتدون في الدعاء)(١).

قال ابن القيم:

«وعلىٰ هذا فالاعتداء في الدعاء:

تارة بأن يسأل ما لا يجوز له سؤاله من الإعانة علىٰ المحرمات.

وتارة بأن يسأل ما لا يفعله الله، مثل أن يسأله تخليده إلىٰ يوم القيامة، أو يسأله أن يرفع عنه لوازم البشرية من الحاجة إلىٰ الطعام والشراب، أو يسأله أن يطلعه علىٰ غيبه، أو يسأله أن يجعله من المعصومين، أو يسأله أن يهب له ولداً من غير زوجة ولا أمة، ونحو ذلك مما هو اعتداء.

فكل سؤال يناقض حكمة الله، أو يتضمن مناقضة شرعه وأمره، أو يتضمن خلاف ما أخبر به، فهو اعتداء لا يحبه الله ولا يحب سائله.

ومن العدوان: أن يدعوه غير متضرع، بل دعاء مدلّ كالمستغني بما عنده، المدلّ علىٰ ربه به، وهذا من أعظم الاعتداء المنافي لدعاء الضارع الذليل المسكين من كل جهة في مجموع حالاته.

فمن لم يسأل مسألة مسكين متضرع خائف، فهو معتد.

فالآية دالة علىٰ شيئين:

أحدهما: محبوب للرب تبارك وتعالىٰ، مرضي له وهو الدعاء تضرعاً وخفية.

والثاني: مكروه له مبغوض، وهو الاعتداء.. ومن لم يدعه تضرعاً وخفية فهو من المعتدين الذين لا يحبهم.

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٨٦٤).

فقسمت الآية الناس إلىٰ قسمين: داع لله تضرعاً وخفية، ومعتدٍ بترك ذلك»[1].

❋ ❋ ❋

وهكذا جاءت الآيات بذكر التعدي ـ الذي لا يحبه الله ـ في ثلاث مجالات:

- في ميدان المعارك والقتال في سبيل الله تعالىٰ
- في مجال الطعام والشراب.
- في مجال الدعاء.

وما هي إلا نماذج تشير إلىٰ حقيقة واحدة، وهي الابتعاد عن التعدي في كل الشؤون، والتقيد بما جاء به الشرع.

فالمفهوم من التعدي من خلال هذه الآيات الكريمة أنه الوجه المقابل للالتزام بالسنّة المطهرة وما جاء بها من تعاليم.

وكل خروج عليها فإنما هو من التعدي.

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللهُ:

«لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنّة»[2].

فالسنّة هي الضابط المسدّد للقول والفعل والنية.

نخلص من هذا كله:

إلىٰ أن علىٰ المسلم أن لا يتصف بحال من أحواله بصفة التعدي حتىٰ لا يكون من المعتدين الذين لا يحبهم الله.

❋ ❋ ❋

(١) «بدائع الفوائد» للإمام ابن القيم، ٣/١٣ ـ ١٤، دار الكتاب العربي.

(٢) «مواعظ الإمام سفيان الثوري» المكتب الإسلامي، ص٢٩.

٤ ـ الكبر والاختيال

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾

التكبر: التعظم بالنفس والتجبر.

والمختال: المتكبر المعجب بنفسه.

والفخور: الذي يكثر الفخر: وهو المدح للنفس والتطاول وتعديد المناقب.

وهذه الصفات أصلها جرثومة خبيثة واحدة وهي التعاظم في الذات.

وقد ورد عدم حب الله تعالىٰ للمتكبرين في آية واحدة بهذه الصيغة ـ وإن كان ورد ذمهم في آيات كثيرة غيرها ـ والاستكبار هو فعل إبليس الذي كان سبباً لطرده من رحمة الله تعالىٰ.

قال تعالىٰ:

﴿إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [النحل].

فالكبر منعهم من الاعتراف بوحدانية الله تعالىٰ، والكبر من قبل منع قائدهم إبليس من السجود الذي أمر به.

وأما عدم حبه تعالىٰ لأصحاب الفخر والاختيال فقد ورد في ثلاث آيات كريمة هي:

١ ـ قال تعالىٰ:

﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ

يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ [النساء].

إن الكبر والاختيال والإعجاب بالنفس يجعل هذا الفريق من الناس بعيداً عن التعرف على فئات المحتاجين والضعفاء، فهم يترفعون بأنفسهم عن مجالستهم وبالتالي الاستماع إلى حاجاتهم.

وهؤلاء كما يتعاظمون بأنفسهم، فإنهم يتعاظمون بأموالهم فيصعب عليهم إنفاق شيء منها، لأنه بهذا الإنفاق يشعرون وكأن جانباً من تعاظمهم قد ذهب، ولذلك كان من نتاج صفاتهم الأولى: البخل بأموالهم، ودعوة الناس إلى هذه الخلة الذميمة. فاستحقوا أن لا يحبهم الله تعالى. فصفاتهم لا تؤهلهم لهذا المقام السامي.

٢ ـ وقال تعالى:

﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان].

جاءت هذه الوصية ضمن موعظة لقمان لابنه.

فقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ يقول: لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك احتقاراً منك لهم واستكباراً عليهم.

وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها فشبّه به الرجل المتكبر.

وقوله: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ أي خيلاء متكبراً جباراً عنيداً.

فهذا المسلك في الهيئة وفي طريقة المشي هي فعل المختالين والله لا يحب كل مختار فخور.

٣ ـ وقال تعالى:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ

وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ [الحديد].

يخبر سبحانه وتعالى أن المصائب التي تقع في الأرض من جدب وقحط.. وفي الأنفس من مرض وغيره.. إنما هي مقدرة من الله تعالى، وهو ـ سبحانه ـ يخبرنا بهذه الحقيقة حتى لا نتأسف على ما فات ولا نفرح بما أعطى.

ثم ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ وهذا مشعر بأن المختال الفخور هذه صفته.

قال عكرمة: ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً.

وكما جاء في الآية الأولى من وصف المختال بالبخل، فكذلك جاء هنا، وهذا مشعر بملازمة هذه الصفة له.

وهذا يشير من جانب آخر إلى أن المصائب التي تنزل في الأرض أو تحل في الأنفس تحتاج من الناس إلى التعاون وأن يعطف أصحاب الأموال والسعة على من حلّت بهم تلك المصائب، وهذا شأن المؤمنين في المجتمع الإسلامي، ولكن أصحاب التكبر والفخر والخيلاء ليسوا من هذا الأمر في شيء، فهم يبخلون ويأمرون بالبخل.

* * *

وهكذا تسجل الآيات الكريمة موقف الإسلام من المتكبرين وأصحاب الفخر والخيلاء.

وقد أكدت السنة هذا الأمر.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار)[١].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود واللفظ له (٤٠٩٠).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، ولا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة من خردل من كبرياء)(١).

إن العبودية لله تعالىٰ تقتضي التواضع. وقد قال تعالىٰ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص].

وقال ﷺ:

(إن الله أوحىٰ إلي أن تواضعوا، حتىٰ لا يفخر أحد علىٰ أحد، ولا يبغي أحد علىٰ أحد)(٢).

وقال أنس رضي الله عنه: «لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ، قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك»(٣).

تلك هي سنته ﷺ.

وخلاصة القول:

إنه مما يجب علىٰ المسلم، أن يبتعد عن أخلاق المتكبرين وسلوكهم وهيئتهم حتىٰ لا يقع في دائرة من لا يحبه الله تعالىٰ. فهو ـ سبحانه ـ ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

* * *

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) رواه الترمذي (٢٧٥٤).

٥ ـ الخيانة

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾

الخيانة: أن يؤتمن الإنسان فلا ينصح.

يقال: خانه العهد والأمانة.

وكثيراً ما تستعمل الخيانة في مقابل الأمانة.

وقد جاء في هذا الموضوع ثلاث آيات كريمة هي:

١ ـ قال تعالىٰ:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال].

هذا توجيه من الله تعالىٰ لرسوله ﷺ في كيفية التعامل مع أعدائه الذين بينه وبينهم ميثاق وعهد، إذا توقع منهم خيانة.

قال ابن كثير: يقول تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ﴾ قد عاهدتهم ﴿خِيَانَةً﴾ أي نقضاً لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي عهدهم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم، حتىٰ يبقىٰ علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم علىٰ سواء، أي تستوي أنت وهم في ذلك.

فالله لا يحب الخائنين ولو في حق الكفار.

إنه سبحانه وتعالىٰ يوجه نبيه ﷺ إلىٰ عدم الخيانة، حتىٰ مع الكفار الذين يتوقع أن تقع الخيانة منهم تجاهه، وذلك لأن الله لا يحب الخائنين، وبالتالي فهو ـ سبحانه ـ لا يريد لرسوله أن يقع في ما لا يحبه الله تعالىٰ.

٢ ـ وقال تعالىٰ:

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨﴾ [النساء].

ونترك الكلام لابن عباس ﷺ يحدثنا عن سبب نزول هذه الآية الكريمة، قال:

إن نفراً من الأنصار سرقت درع لأحدهم من قبل أحد المنافقين، فأتىٰ صاحب الدرع رسول الله ﷺ فقال: إن ابن ابيرق سرق درعي. فلما رأىٰ ابن ابيرق افتضاح أمره عمد إلىٰ الدرع فألقاها في بيت رجل بريء واتهمه بسرقتها، وجاء قوم ابن ابيرق يدافعون عنه، حتىٰ كاد ﷺ أن يميل إلىٰ قولهم لعدم وجود البينة في ذلك، فنزلت الآيات لبيان الحق.

فهذا المنافق خان الأمانة عندما سرق، ثم ارتكب جريمة قد تكون أكبر من السرقة وهي اتهام رجل بريء بها فاستحق أن يوصف بالخيانة والإثم وبيان أن الله تعالىٰ لا يحب من كان كذلك.

٣ ـ وقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨﴾ [الحج].

يخبر تعالىٰ أنه يدافع عن عباده الذين آمنوا، ولذلك شرع لهم الجهاد لقتال الكافرين الخائنين الذين أخرجوا المؤمنين من مكة وأخذوا بعد ذلك أموالهم وباعوا دورهم.

* * *

إنها آيات كريمة تعطي نماذج متعددة عن الخيانة التي ينبغي لكل مسلم ـ حريص علىٰ أن يكون في عداد مَن أحبهم الله ـ أن يبتعد عنها، وأن يكون من المؤمنين الذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

* * *

٦ ـ الفساد
قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾

فسد لغة: ضد صلح، والفساد ضد الصلاح.

وقد جاءت هذه المقابلة في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وفي قوله تعالىٰ: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٨].

وقد جاء التصريح بعدم حب الله تعالىٰ الفساد والمفسدين في ثلاث آيات كريمة هي:

١ ـ قال تعالىٰ:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة].

٢ ـ وقال تعالىٰ:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة].

٣ ـ وقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ [القصص].

* * *

إن مهمة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي الإصلاح، إصلاح الأنفس، وإصلاح المجتمعات وإرساء قواعد الحق والخير والعدل في حياة الناس، وعندما يحصل هذا فإن الفساد يختفي.

ولكن بعض النفوس غير قابلة للإصلاح، وكأن الشر والفساد اتخذها وطناً له، واستقر فيها، وملأها ببضاعته، حتىٰ لم يعد فيها مكان يمكن للخير أن ينفذ إليه.

هذا النوع من الناس فسدوا في أنفسهم وعملوا علىٰ إفساد الخلق، فهم عناصر فاعلة في نشر السوء والبغي والطغيان والكفر، غايتها إهلاك الحرث والنسل.

وهؤلاء هم الذين لا يحبهم الله تعالىٰ ولا يحب عملهم كما جاء في الآيات الكريمة السابقة.

وقد وضعت هذه الآيات بين أيدينا نماذج من هذه النفوس حتىٰ نحذرها ونحذر أن يكون عملنا علىٰ طريقة عملها.

فالآية الأولىٰ جاءت في معرض بيان سلوك المنافقين وطريقة عملهم. فهم من حيث الظاهر يتظاهرون بالخيرية وقولهم يعجب سامعه ولكن غاية عملهم إنما هي الفساد الذي يقضي علىٰ الأنفس والأموال.

والآية الثانية تتحدث عن اليهود وعن أقوالهم السيئة وأعمالهم الخبيثة وسعيهم بنشر الفساد في الأرض، وقد فضح القرآن الكريم أعمالهم وما تكنه نفوسهم، إنهم الآلة الكبرىٰ من آلات الفساد في الأرض.

وتتحدث الآية الثالثة عن طغيان المال، وكيف يصبح البغي طريقة صاحبه في الحياة إلا من عصم الله تعالىٰ، فهو يورث الكبر، والكبر منبع كل فساد.

المنافقون، اليهود، أصحاب المال الذين لا يهتدون بهدي الله.

إنها نماذج لمصادر الفساد في الحياه بيَّن الله أمرها في قرآنه الكريم ليكون المسلم علىٰ حذر منها ومن أعمال أصحابها

إنها فئات لا يحبها الله تعالىٰ ولا يحب أعمال أصحابها.

وإذا كان المسلم حريصاً ـ ولا شك بأنه حريص ـ علىٰ أن يكون ممن أحبهم الله تعالىٰ فعليه أن يبتعد عن هؤلاء ومن كان علىٰ شاكلتهم ممن حذر الله تعالىٰ منهم.

* * *

٧ ـ الإسراف

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾

السرف لغة: ضد القصد.

والإسراف في النفقة: التبذير[١].

وقد جاء هذا الموضوع في آيتين كريمتين هما:

١ ـ قال تعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام].

٢ ـ وقال تعالىٰ:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الأعراف].

واضح من سياق الآيتين أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ قد جاء تعقيباً علىٰ قضية الأكل والشرب.

قال ابن كثير: «الظاهر ـ والله أعلم ـ من سياق الآية حيث قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ أن يكون عائداً علىٰ الأكل أي لا تسرفوا في الأكل لما فيه من مضرة العقل والبدن. وفي صحيح البخاري تعليقاً (كلوا واشربوا والبسوا من غير إسراف ولا مخيلة) والله أعلم.

وذهب بعض الأئمة إلىٰ فهم الآية علىٰ عمومها:

قال عطاء: نهوا عن السرف في كل شيء.

---

(١) «مختار الصحاح».

وقال إياس بن معاوية: ما جاوزت به أمر الله فهو سرف.

وقال السدي: في قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ قال: لا تعطوا أموالكم فتقعدوا فقراء.

* * *

والحقيقة أن الرأيين يصبان في غاية واحدة:

فإن قلنا إنها موجهة لقضية الأكل والشرب، فإن هذه القضية هي الأمر الأول في ضرورة حياة الإنسان، وغيرها يكون تبعاً لها.

وإن قلنا إن الآية الكريمة علىٰ إطلاقها، فتأتي قضية الأكل والشرب في المقدمة.

* * *

هذا وإن القصد الذي هو الطرف المقابل للسرف، هو المنهج الذي تبناه الإسلام في كل الأمور ابتداء من العبادة وانتهاء بأمر الأكل والشرب ومروراً بكل ما شرعه الإسلام من أمر الصدقات وغيرها.

قال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء].

وقال تعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان].

وقال تعالىٰ:

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

إن الإسراف يدخل في كل الأمور.

ولعل الأولى أن تفهم الآية على إطلاقها ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ فهي دعوة إلى القصد والوسطية في الأمور كلها وفي مقدمة ذلك تلك القضية اليومية قضية الأكل والشرب.

* * *

وفي ظلال هذا الفهم العام يأتي قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ [الزمر].

فالإسراف هنا عام في كل تصرف يأتيه الإنسان متجاوزاً حدود ما أنزل الله تعالى.

* * *

وخلاصة القول في الموضوع الذي نحن بصدده:

أن على المسلم الحريص على محبة الله له أن لا يكون في عداد المسرفين، سواء أكان ذلك في شأن الطعام والشراب، أم في أي شأن آخر.

* * *

٨ ـ الفرح

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾

والفرح في اللغة يأتي بمعنيين: بمعنى السرور، وبمعنى البطر.

وقد جاءت هنا بالمعنى الثاني.

قال تعالى:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾ [القصص].

فالفرح الوارد في الآية الكريمة هنا ـ كما قال المفسرون ـ هو: البطر.

والبطر ـ كما في «القاموس» ـ هو: الأشر، وقلة احتمال النعمة، والطغيان بها.

وبطر الحق: أن يتكبر عنه فلا يقبله.

وإذن: فالفرح هنا يقابله: التواضع ولين الجانب، والاعتراف بالمنعم وشكره على نعمته.

يؤكد هذا المعنى ما سبق من ذكر «البغي» في الآية الكريمة، وما جاء بعدها من جحود النعمة بقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

فهو فرح مصاحب بالبغي والكبر وجحود النعمة وعدم نسبتها إلى المنعم سبحانه وتعالى.

قال ابن كثير في تفسير الآية: «أي وعظه صالحو قومه، فقالوا على سبيل النصح والإرشاد: لا تفرح بما أنت فيه، يعنون: لا تبطر بما أنت فيه من المال ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال ابن عباس: يعني

المرحين، وقال مجاهد: يعني الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم».

* * *

ومن هذا الفرح المصاحب بالكبرياء ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود].

فالآيات تتحدث عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة - إلا من رحم الله من المؤمنين - أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة، حصل له يأس وقنوط بالنسبة إلى المستقبل، وكفر وجحود لماضي الحال، كأنه لم يرَ خيراً.

وهكذا إذا أصابته نعمة إنه لفرح فخور، إنه الفرح المصاحب بالفخر والتعالي والكبر. وهو البطر الذي سبق الحديث عنه.

ثم استثنت الآيات المؤمنين، فإن إيمانهم يجعلهم دائماً صابرين في البأساء، معترفين بفضل الله عليهم في السراء، بعيدين عن البطر والفخر..

* * *

ومن هذا النوع من فرح البطر وجحود النعم ونسيان المنعم، ما جاء في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَـٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام].

إنهم قوم قساة القلوب لم يتضرعوا في وقت الشدة فأنى لهم أن يشكروا المنعم في وقت الرخاء، فقد كان فرحهم في حال من نسيان الله سبحانه وتعالى.

* * *

وقد جاء ذكر الفرح في القرآن الكريم بالمعنى الثاني، وهو السرور.

وفي هذه الحالة يكون المقابل للفرح هو الحزن لا التواضع ولين الجانب.

فالفرح - المقصود هنا - لذة تقع في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى الفرح والسرور.

فإذا فقده، تولد من فقده حالة تسمى الحزن والغم.

ومن هذا الفرح ما ورد في قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ [الروم].

ومنه قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس].

فلا شيء أحق أن يفرح به العبد من فضل الله ورحمته، التي تتضمن الموعظة وشفاء الصدور من أمراضها بالهدى والرحمة.

* * *

وخلاصة القول: أن «الفرح» ورد في القرآن الكريم بمعنيين:

الأول: بمعنى البطر والذي من بواعثه الكبر، كما جاء في قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [غافر].

وهذا الفرح هو الذي لا يحبه الله والذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

والثاني: بمعنى السرور وهو الذي أباحه الله عند وجود النعمة، وشكر الله تعالى الذي أنعم بها.

وإذا كانت هذه النعمة مما يرتبط بالإيمان والإسلام فقد دعا القرآن إلى الفرح بها ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾.

ومن هذا الفرح، فرح الأنصار بقدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة. قال البراء رضي الله عنه: فما رأيت الناس فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﷺ حتى جعل النساء والصبيان والإماء يقلن: قدم رسول الله، جاء رسول الله[1].

* * *

(١) رواه البخاري (٣٩٢٥).

٩ ـ الجهر بالسوء

قال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾

قال تعالى:

﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾ [النساء].

الجهر بالسوء: هو السباب والشتائم.

قال سيد قطب

«الجهر بالسوء من القول ـ في أية صورة من صوره ـ سهل على اللسان ما لم يكن هناك تحرج في الضمير وتقوى الله. وشيوع هذا السوء كثيراً ما يترك آثاراً عميقة في ضمير المجتمع. كثيراً ما يدمر الثقة المتبادلة في المجتمع فيخيل إلى الناس أن الشر قد صار غالباً.

لذلك كله كره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها قالة السوء، وأن يقتصر حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم، يدفعه بكلمة السوء يصف بها الظالم، في حدود ما وقع عليه منه من الظلم.

﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾.

ففي هذه الحالة يكون الوصف بالسوء ـ ويشمل السب والقذف ـ انتصاراً من ظلم، ودفعاً لعدوان، ورداً لسوء بذاته، قد وقع بالفعل على إنسان بذاته، وتشهيراً بالظلم والظالم في المجتمع، لينتصف المجتمع للمظلوم، وليضرب على يد الظالم، وليخشى الظالم عاقبة فعله فيتردد في تكراره.

والجهر بالسوء عندئذ يكون محدد المصدر: من الشخص الذي وقع عليه الظلم.

محدد السبب: فهو الظلم المعين الذي يصفه المظلوم.

موجهاً إلىٰ شخص بذاته: هو الذي وقع منه الظلم..

عندئذ يكون الخير الذي يتحقق بهذا الجهر مبرراً له، ويكون تحقيق العدل والنصفة هو الهدف لا مطلق التشهير.

إن الإسلام يحمي سمعة الناس ـ ما لم يظلموا ـ فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية، وأُذِن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء في ظالمه، وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كفّ الألسنة عن كلمة السوء[1].

* * *

وبعد:

فإن السوء من القول ميدان واسع حرص الإسلام ألا ترتفع فيه الألسنة، وحذر من إطلاق العنان إلىٰ اللسان، وطلب ضبطه ومراقبته.

جاء في حديث معاذ رضي الله عنه الذي تحدّث فيه الرسول ﷺ عن قواعد الإسلام الكبرىٰ قوله:

(ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده وذروة سنامه؟).

قلت: بلىٰ يا رسول الله.

قال: (رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد).

ثم قال: (ألا أخبرك بملاك[2] ذلك كله؟).

قلت: بلىٰ يا رسول الله.

فأخذ بلسانه، قال: (كفّ عليك هذا).

فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

---

(١) «في ظلال القرآن» عند تفسير الآية الكريمة.

(٢) بملاك: أي بما به يملك الإنسان ذلك كله.

فقال: (ثكلتك أمك[1]، يا معاذ، وهل يكب الناس في النار علىٰ وجوههم ـ أو علىٰ مناخرهم ـ إلا حصائد ألسنتهم)[2].

وهكذا يبين ﷺ مكانة اللسان في نشر مقالة السوء، وأنه مصدر البلاء إذا ترك وشأنه.

ولما كانت نظافة المجتمع الإسلامي غاية من غايات التشريع، كان قوله تعالىٰ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بياناً لما ينبغي أن يكون عليه الفرد المسلم الذي يسعىٰ إلىٰ تنفيذ محابّ الله تعالىٰ.

---

(١) ليس المراد بهذه الكلمة الدعاء عليه، وإنما التعجب من غفلته.

(٢) رواه الترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

الفصل الخامس

محابُّ الله في السنة المطهرة

إن السنة شأنها شأن القرآن الكريم في هذا الموضوع، فقد وردت أحاديث كثيرة تذكر ما يحبه الله تعالىٰ، وأحاديث أخرىٰ تذكر ما يبغضه الله تعالىٰ.

وهذه الأحاديث من الكثرة، بحيث يصعب إحصاؤها، ولذا كان من المستحسن ذكر نماذج لكل من النوعين.

وسوف أكتفي بذكر النصوص دون شرحها، إذ المقصود لفت النظر إلىٰ هذا الجانب من السنة المطهرة.

نماذج من السنّة فيما يحبه الله تعالىٰ:

● عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

(أحب الأعمال إلى الله تعالىٰ أدومها وإن قلّ)[1].

● عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(أحب الكلام إلىٰ الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيهن بدأت)[2].

(١) رواه البخاري (٥٨٦١)، ومسلم واللفظ له (٧٨٢).
(٢) رواه مسلم (٢١٣٧).

● عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال:

(أحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلىٰ الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوماً ويفطر يوماً)[1].

● عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي)[2].

● عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال:

(يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي علىٰ الرفق ما لا يعطي علىٰ العنف وما لا يعطي علىٰ ما سواه)[3].

● عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة، قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس)[4].

● عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن أحب أسمائكم إلىٰ الله: عبدالله وعبدالرحمٰن)[5].

(١) رواه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩).
(٢) رواه مسلم (٢٩٦٥).
(٣) رواه مسلم (٢٥٩٣).
(٤) رواه مسلم (٩١).
(٥) رواه مسلم (٢١٣٢).

● عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(إن الله يحب سمح البيع، سمح الشراء، سمح القضاء)[1].

● عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)[2].

● عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال:

(إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه)[3].

● وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته، فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: (سلوه لأي شيء يصنع ذلك) فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: (أخبروه أن الله يحبه)[4].

أكتفي بهذا القدر من النماذج، التي تضع بين يدي المسلم الكثير الكثير من الأمور التي تحتاج إلى العمل بها، حتى يكون في سبيل الوصول إلى محبة الله تعالى.

نماذج من السنة فيما يبغضه الله تعالى:

● عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال:

(أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه)[5].

---

(١) رواه الترمذي (١٣١٩).
(٢) رواه الترمذي (٢٨١٩).
(٣) «مجمع الزوائد» (٦٤٦٠) قال: رواه أبو يعلى، وفيه: مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة.
(٤) رواه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).
(٥) رواه البخاري (٦٨٨٢).

● عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال:

(إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[1].

● عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها)[2].

● عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال:

(إن الله يبغض البليغ من الرجال، الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة)[3].

● عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(.. أبغض الناس إلى الله وأبعدهم منه مجلساً إمام جائر)[4].

---

(١) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).
(٢) رواه مسلم (٦٧١).
(٣) رواه أبو داود (٥٠٠٥)، والترمذي (٢٨٥٣).
(٤) رواه الترمذي (١٣٢٩).

الفصل السادس

علامة محبة الله تعالىٰ للعبد

كانت الفصول السابقة بياناً للطرق الموصلة إلىٰ محبة الله تعالىٰ للعبد.

فهل هناك من مؤشرات أو دلائل علىٰ أن الله تعالىٰ قبل هذا العبد وأحبه؟

أجل! هناك آية كريمة، وحديث شريف يحملان من المؤشرات ما يعد علامة لذلك.

فلنقف عند هذين النصين الكريمين.

الآية الكريمة:

أما الآية الكريمة، فهي قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾﴾ [مريم].

قال ابن عباس - في رواية سعيد بن جبير عنه -: يحبهم ويحببهم، يعني إلىٰ خلقه المؤمنين[١].

وقال ابن تيمية: أي يحبهم ويحببهم إلىٰ عباده[٢]

(١) «تفسير ابن كثير».
(٢) «مجموع الفتاوىٰ» ١٥/٢٣٢.

ومعنىٰ الآية: أن الله سبحانه وتعالىٰ سيكرم الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الحياة الدنيا قبل الآخرة، فيجعل لهم الود والحب في قلوب عباده.

وأما معنىٰ الود: فهو خالص الحب وألطفه وأرقه، وهو من الحب بمنزلة الرأفة من الرحمة. قال الجوهري: وَدِدت الرجلَ أَوَدُّه: إذا أحببته[١].

أما بيان كيفية حصول هذا الود في قلوب الناس، فقد تكفلت ببيانه الأحاديث الشريفة.

فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله إذا أحبَّ عبداً، دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض..)[٢].

وعن ثوبان ﷺ، عن النبي ﷺ قال:

(إن العبد ليلتمس مرضاة الله ﷻ، فلا يزال كذلك، فيقول الله ﷻ لجبريل: إن فلاناً عبدي يلتمس أن يرضيني، ألا وإن رحمتي عليه، فيقول جبريل: رحمة الله علىٰ فلان، ويقولها حملة العرش، ويقولها من حولهم، حتىٰ يقولها أهل السماوات السبع، ثم يهبط إلىٰ الأرض)[٣].

وهكذا بأمر الله تعالىٰ يوضع للعبد القبول في الأرض فتحبه القلوب وتألفه النفوس، وتلهج الألسنة بالثناء عليه.

(١) «روضة المحبين» ص٦٢.
(٢) رواه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).
(٣) رواه أحمد في «المسند» ٥/٢٧٩، وهو في «مجمع الزوائد» (١٧٥٣٩) وقال: رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح، غير ميمون بن عجلان وهو ثقة.

فهذه المحبة التي تستقر في قلوب العباد، مؤشر واضح على محبة الله تعالىٰ لهذا العبد بدلالة الحديثين الشريفين.

والمثل التطبيقي لهذا الأمر، هو ما رواه الإمام مسلم عن سهيل بن أبي صالح قال:

«كنا بعرفة، فمرَّ عمر بن عبدالعزيز، وهو علىٰ الموسم، فقام الناس ينظرون إليه، فقلت لأبي: يا أبَتِ! إني أرىٰ الله يحب عمر بن عبدالعزيز، قال: وما ذاك؟ قلتُ: لما له من الحب في قلوب الناس، فقال: بأبيكَ أنتَ، سمعتُ أبا هريرة يحدِّث عن رسول الله ﷺ..» وذكر حديث أبي هريرة المتقدم[1].

فأبو صالح هو راوي الحديث عن أبي هريرة، وقد سُرَّ سروراً عظيماً لما توصل له ابنه سهيل بفطرته من محبة الله تعالىٰ لعمر بن عبدالعزيز بناء علىٰ محبة الناس له، فروىٰ له حديث أبي هريرة الذي يؤكد ما ذهب إليه.

وإذاً، فهذا مؤشر له الدلالة الكبيرة علىٰ محبة الله تعالىٰ للعبد بنص حديث رسول الله ﷺ.

الحديث الشريف:

وأما الحديث الشريف، فهو ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن الله قال: مَن عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضت عليه.

وما يزال عبدي يتقرّب إلي بالنوافل حتىٰ أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها،

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٧).

ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه..)[1].

فالحديث يرتب مجموعة أمور علىٰ محبة الله تعالىٰ للعبد، هذه الأمور تكون فيه بعد محبة الله له.

فوجودها فيه مؤشر علىٰ وجود ما سبقها وكان سبباً في وجودها، وهو حب الله للعبد.

وهذه الأمور هي التي ذكرها الحديث بقوله:

(كنت سمعه الذي يسمع به.

وبصْره الذي يبصر به.

ويده التي يبطش بها..) إلىٰ آخر الحديث.

قال ابن القيم

«هذا الحديث الشريف الإلهي، حرام فهم معناه علىٰ غليظ الطبع كثيف القلب.. إن المحب لا يزال يكثر من النوافل حتىٰ يصير محبوباً لله، فإذا صار محبوباً لله أوجبت محبَّة الله له محبة أخرىٰ فوق المحبة الأولىٰ، فشغلت هذه المحبة قلبه.. وملكت عليه روحه.. فصار ذكر محبوبه وحبه مثله الأعلىٰ مالكاً عليه زمام قلبه..

ولا ريب أن هذا المحب إن سمع سمع بمحبوبه، وإن أبصر أبصر به.. فالباء هنا باء المصاحبة..»[2].

ومهما يكن من أمر فإن من جملة ما فسر به الحديث أن هذا العبد ملتزم بشرع الله في كل كبيرة وصغيرة سواء أكانت متصلة بالبصر أو السمع.. أي بجميع جوارحه، التي هي وقّافة عند حدود الله تعالىٰ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) «الجواب الكافي» ص٢٦٧.

إن لفظ الحديث يظل فوق كل إيضاح وشرح، وهو يصل إلىٰ الفهم بيسر وسهولة، وإن صعب تحويل هذا الفهم إلىٰ لغة الحروف[1].

والذي يهمنا أن هذه العلامات التي وضعها الحديث، يمكن أن يستشعرها من وُجدت فيه، فيحمد الله تعالىٰ علىٰ ذلك.

ويمكن للآخرين استشعار وجودها في شخص من خلال سلوكه وتعامله مع الناس.

وخلاصة القول: أن من علامات محبة الله تعالىٰ للعبد:

ـ ما يسجله هذا الحديث القدسي الشريف.

ـ وما سجلته الآية الكريمة السابق ذكرها من سورة مريم.

---

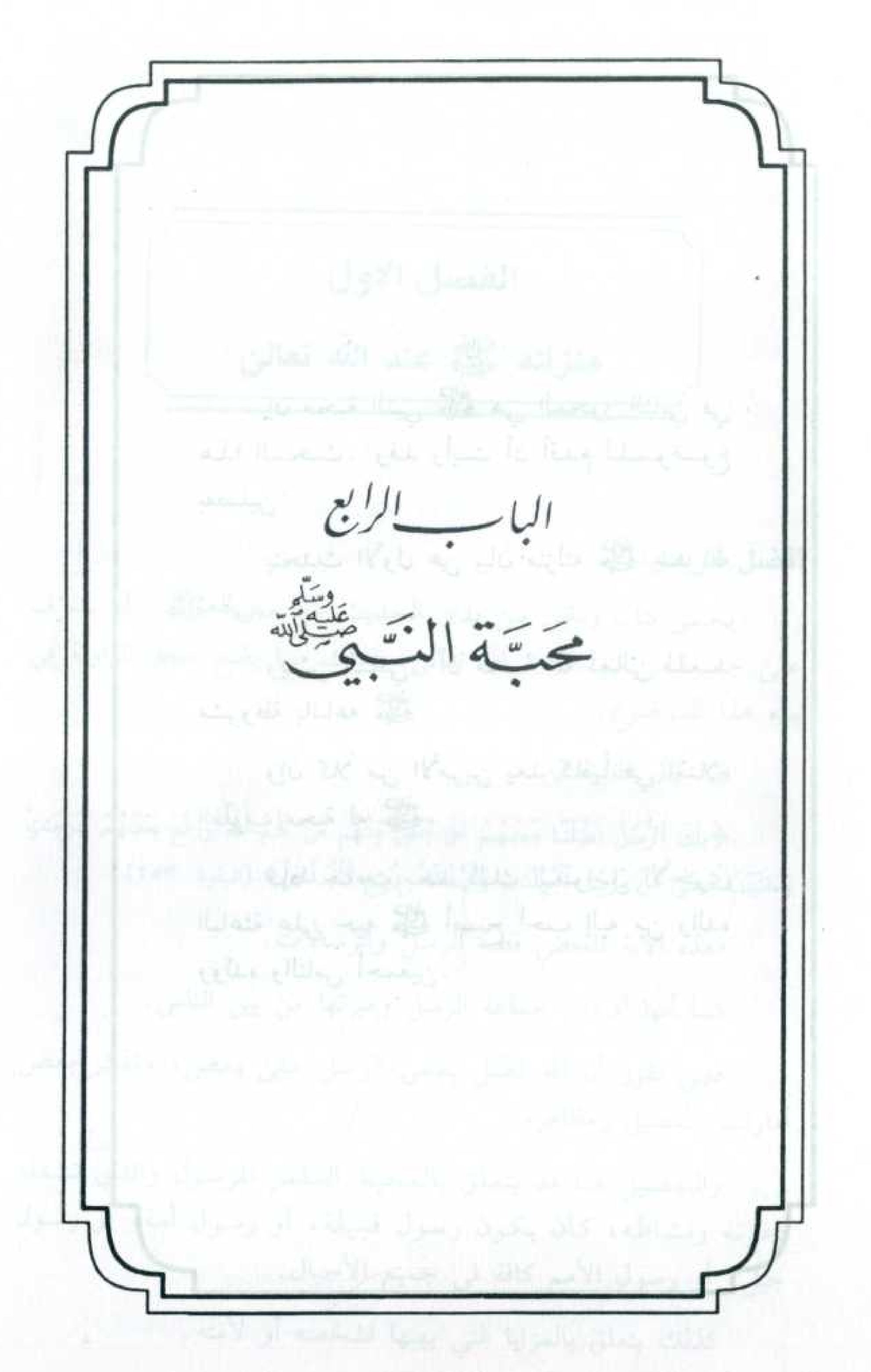
(١) ذكر الإمام ابن حجر في «فتح الباري» (٣٤٤/١١) عدة أقوال في شرح الحديث منها:

١ ـ أنه ورد علىٰ سبيل التمثيل، والمعنىٰ كنت سمعه وبصره في إيثاره أمري فهو يحب طاعتي ويؤثر خدمتي.

٢ ـ أن المعنىٰ: إن كليته مشغولة بي فلا يصغي بسمعه إلا إلىٰ ما يرضيني، ولا يرىٰ ببصره إلا ما أمرته به.

٣ ـ المعنىٰ علىٰ تقدير حذف مضاف والتقدير: كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل استماعه.

وهناك أقوال أخرىٰ. وقد سبق ذكر شرح الإمام ابن القيم له ص (١١٩).



إن محبة النبي ﷺ هي المحور الثاني في هذا البحث. وقد رأيت أن أقدم للموضوع بفصلين:

يتحدث الأول عن بيان منزلته ﷺ عند الله تعالىٰ.

ويبين الثاني: أن محبة الله تعالىٰ للعبد مشروطة باتباعه ﷺ.

وإن كلاً من الأمرين يعد كافياً في امتلاء القلوب محبة له ﷺ.

فإذا جاءت بعد ذلك العوامل الأخرىٰ الباعثة علىٰ حبه ﷺ أصبح أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين.

الفصل الأول

منزلته ﷺ عند الله تعالىٰ

أفضل الرسل:

يحسن بنا ـ ونحن بين يدي الحديث عن محبته ﷺ ـ أن نتعرف علىٰ جانب من منزلته عند الله تعالىٰ، فذلك مما يضع حجر الزاوية في بناء هذا الموضوع.

فقد قال الله تعالىٰ:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

«هذه الآية تلخص قصة الرسل والرسالات.

كما أنها أفردت جماعة الرسل وميزتها من بين الناس.

فهي تقرر أن الله فضّل بعض الرسل علىٰ بعض، وتذكر بعض أمارات التفضيل ومظاهره.

والتفضيل هنا قد يتعلق بالمحيط المقدّر للرسول والذي تشمله دعوته ونشاطه، كأن يكون رسول قبيلة، أو رسول أمة، أو رسول جيل، أو رسول الأمم كافة في جميع الأجيال..

كذلك يتعلق بالمزايا التي يهبها لشخصه أو لأمته.

كما يتعلق بطبيعة الرسالة ذاتها ومدىٰ شمولها لجوانب الحياة الإنسانية والكونية.

وقد ذكر النص هنا مثالين في موسىٰ وعيسىٰ - عليهما السلام - وأشار إشارة عامة إلىٰ من سواهما.

وحين يذكر تكليم الله لأحد من الرسل ينصرف الذهن إلىٰ موسىٰ عليه السلام ومن ثم لم يذكره باسمه.

وذكر عيسىٰ ابن مريم عليه السلام وهكذا يرد اسمه منسوباً إلىٰ أمه في أغلب المواضع القرآنية، والحكمة من ذلك واضحة..

ولم يذكر النص هنا محمداً ﷺ لأن الخطاب موجَّه إليه، كما جاء في الآية السابقة في السياق:

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ...﴾ [البقرة].

فالسياق سياق إخبار له عن غيره من الرسل.

وحين ننظر إلىٰ مقامات الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - من أية ناحية، نجد محمداً ﷺ في القمة العليا. وسواء نظرنا إلىٰ الأمر من ناحية شمول الرسالة وكليتها، أم من ناحية محيطها وامتدادها، فإن النتيجة لا تتغير.

ومحمد ﷺ هو الرسول الذي أُرسل إلىٰ البشر كافة، من يوم مبعثه إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهو الذي اعتمدت رسالته علىٰ الإدراك الإنساني الواعي دون ضغط، حتىٰ من معجزة مادية قاهرة، ليعلن بذلك عهد الرشد الإنساني.

ومن ثَمّ:

كان هو خاتم الرسل.

وكانت رسالته خاتمة الرسالات.

ومن ثَمَّ انقطع الوحي بعده، وارتسمت للبشرية في رسالته تلك الوحدة الكبرىٰ وأعلن المنهج الشامل الواسع، الذي يسع نشاط البشرية المقبل في إطاره..».

* * *

تلك كانت مقتطفات من «الظلال» عند تفسير الآيات الكريمة، بيَّن الكاتب رحمه الله فيها بعض الحقائق التي كان ﷺ بسببها أفضل الرسل - عليهم السلام - وبالتالي فهو أفضل الخلق علىٰ الإطلاق.

وقد جاءت هذه الحقائق في نصوص قطعية واضحة.

خاتم الرسل:

فهو خاتم الرسل، فقد قال تعالىٰ:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

قال ابن كثير رحمه الله: «فهذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده، فلا رسول بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس. وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة».

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

(إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل بنىٰ بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وُضِعَتْ هذه اللبنة؟! قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين)(١).

(١) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

عموم رسالته ﷺ:

وأما عموم رسالته ﷺ، فقد قال تعالىٰ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال تعالىٰ:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالىٰ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].

وقد روىٰ جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قوله:

(أُعطيت خمساً لم يُعطهن أحد قبلي..) وذكر منها (وكان النبي يُبعث إلىٰ قومه خاصة وبُعثت إلىٰ الناس عامة)[1].

فهذه النصوص وغيرها كثير، تثبت عموم رسالته ﷺ، وانفراده بهذه الفضيلة.

سيد ولد آدم:

ولهذه المعاني وغيرها، كان ﷺ سيد ولد آدم، كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة، منها قوله:

(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة..)[2].

وقوله ﷺ: (يوم القيامة) فذلك لأن السيادة إنما تظهر بأجلىٰ معانيها في ذلك اليوم، حيث الخلق كلهم مجتمعون من آدم إلىٰ آخر

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٢٧٨) وهو متفق عليه بلفظ: (سيد الناس). البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

ذريته، بينما في الحياة الدنيا لا يجتمع في الزمن الواحد إلا جيل واحد، ولم يحدث أن اجتمع الجيل الواحد من الخلق في مكان واحد. فكان ذكر يوم القيامة لبيان هذه السيادة المطلقة..

وفي ذلك اليوم تكون له ﷺ الشفاعة العظمىٰ بعد أن يبدي كل من الأنبياء والرسل السابقين اعتذاره.

النبي ﷺ أفضل الخلق:

قال الإمام ابن تيمية

والنبي ﷺ خُلق مما يُخلق منه البشر، ولم يُخلق أحد من البشر من نور. بل قد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله خلق الملائكة من نور، وخلق إبليس من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[1].

وليس تفضيل بعض المخلوقات علىٰ بعض باعتبار ما خُلقت منه فقط.

وآدم خلقه الله من طين، فلما سوّاه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له الملائكة وفضله عليهم بتعليمه أسماء كل شيء، وبأن خلقه بيديه، وبغير ذلك، فهو وصالحو ذريته أفضل من الملائكة، وإن كان هؤلاء مخلوقين من طين، وهؤلاء من نور.

وقد ظهر فضل نبينا علىٰ الملائكة ليلة المعراج، لما صار بمستوىٰ يسمع فيه صريف الأقلام، وعلا علىٰ مقامات الملائكة.

ومحمد سيد ولد آدم، وأفضل الخلق، وأكرمهم عليه.

ومن هنا قال من قال: إن الله خلق من أجله العالم، أو: إنه لولا هو لما خلق عرشاً، ولا كرسياً، ولا سماء، ولا أرضاً، ولا شمساً، ولا قمراً.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

لكن ليس هذا حديثاً عن النبي ﷺ، لا صحيحاً ولا ضعيفاً. . بل هو كلام لا يدرىٰ قائله.

ويمكن أن يُفسَّر بوجه صحيح:

كقوله: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]. . وأمثال ذلك من الآيات التي يبين فيها أنه خلق المخلوقات لبني آدم.

ومعلوم أن لله فيها حكماً عظيمة غير ذلك وأعظم من ذلك.

والله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وكان آخر الخلق يوم الجمعة، وفيه خلق آدم، وهو آخر ما خلق، خلق يوم الجمعة بعد العصر في آخر يوم الجمعة.

وسيد ولد آدم هو محمد ﷺ آدم فمن دونه تحت لوائه. .

فإذا كان الإنسان هو خاتم المخلوقات وآخرها، وهو الجامع لما فيها، وفاضله: هو فاضل المخلوقات مطلقاً، ومحمد إنسان هذا العين، وقطب هذه الرحىٰ. . كان كأنه غاية الغايات في المخلوقات.

فما ينكر أن يقال: إنه لأجله خُلقت جميعها، وأنه لولاه لما خُلقت، فإذا فُسّر هذا الكلام ونحوه مما يدل عليه الكتاب والسنة، قُبل ذلك.

وأما إذا حصل في ذلك غلو من جنس غلو النصارىٰ بإشراك بعض المخلوقات في شيء من الربوبية، كان ذلك مردوداً غير مقبول.

والله قد جعل له [أي لذاته] حقاً لا يشركه فيه مخلوق، فلا تصلح العبادة إلا له، ولا الدعاء إلا له، ولا التوكل إلا عليه. . (1).

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس].

(1) «مجموع الفتاوىٰ» ١١/٩٤ ـ ٩٨ باختصار.

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلىٰ الله عليه وعليهم وسلم.

وأفضل أولي العزم محمد ﷺ، خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا. صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون. وصاحب لواء الحمد، وصاحب الحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة. الذي بعثه بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه.

وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقاً، وأول الأمم بعثاً.

وفضائله ﷺ وفضائل أمته كثيرة. . (1)

بعض الدلالات علىٰ بيان مكانته ﷺ:

إن الأدلة التي تبين مكانته ﷺ أكثر من أن تحصىٰ، وإن كل سورة وكل آية في القرآن الكريم تنطق بذلك.

وأنقل في هذه الفقرة بعض ما ذكره الإمام ابن تيمية عند حديثه عن متابعة الرسول ﷺ، حيث ذكر طائفة من الأدلة عرضاً دون أن يقصد إلىٰ ذلك. وهي مع ذلك تؤدي الغرض فيما نقصد إليه:

قال:

«١ ـ قال صلوات الله وسلامه عليه: (إن الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب) وهذا المقت كان لعدم هدايتهم بالرسل، فرفع عنهم هذا المقت

(1) «مجموع الفتاوىٰ» ١١/١٥٩ ـ ١٦٣ باختصار.

برسول الله ﷺ، فبعثه رحمة للعالمين ومحجة للسالكين، وحجة على الخلائق أجمعين، وافترض على العباد طاعته ومحبته، وتعزيره وتوقيره، والقيام بأداء حقوقه.

٢ ـ وسدّ إليه جميع الطرق، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه، وأخذ العهود والمواثيق بالإيمان به واتباعه على جميع الأنبياء والمرسلين، وأمرهم أن يأخذوها على من اتبعهم من المؤمنين.

٣ ـ أرسله الله بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً. فختم به الرسالة، وهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة.

وفتح برسالته أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء.

وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، وجعل الذلة والصغار على ما خالف أمره..

أرسله على حين فترة من الرسل.. فهدى الله به الخلائق.

٤ ـ وجعله قسيم الجنة والنار، وفرق ما بين الأبرار والفجار.

٥ ـ وجعل الهدى والفلاح في اتباعه وموافقته، والضلال والشقاء في معصيته ومخالفته.

٦ ـ وامتحن به الخلائق في قبورهم، فهم في القبور عنه مسؤولون، وبه يُمتحنون، يؤتى العبد في قبره فيقال: ما كنت تقول في هذا الرجل الذي بُعث فيكم؟..

٧ ـ وقد أمر الله بطاعة رسوله ﷺ في أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن.

٨ ـ وقرن طاعته بطاعته، وقرن بين مخالفته ومخالفته.

٩ ـ كما قرن بين اسمه واسمه، فلا يذكر الله إلا ذكر معه.

قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح] قال: لا أذكر إلا ذُكرت معي، وهذا: كالتشهد، والخطب، والأذان: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله».

فلا يصح الإسلام إلا بذكره والشهادة له بالرسالة.

وكذلك لا يصح الأذان إلا بذكره والشهادة له.

ولا تصح الصلاة إلا بذكره والشهادة له.

ولا تصح الخطبة إلا بذكره والشهادة له.

١٠ ـ وحذّر الله سبحانه وتعالى من العذاب والكفر لمن خالفه. قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [النور] قال الإمام أحمد رحمه الله: أي فتنة هي؟ إنما هي الكفر.

١١ ـ وألبس الذلة والصغار لمن خالف أمره كما في مسند الإمام أحمد من حديث عبدالله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: (.. وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري).

١٢ ـ وكما أن من خالفه وشاقه وعاداه هو الشقي، فكذلك من أعرض عنه وعما جاء به، واطمأن إلى غيره ورضي به بدلاً منه، هو هالك أيضاً.

فالشقاء والضلال في الاعراض عنه وفي تكذيبه، والهدى والفلاح في الإقبال على ما جاء به وتقديمه على ما سواه»[1]

(١) «الفتاوى» ١٩/١٠١ ـ ١٠٥.

أقول: ومما يبين لنا درجة هذه المكانة، ويجلّي لنا رفعتها، أن الله سبحانه وتعالىٰ أمرنا أن نلبّي نداء الرسول ﷺ إذا دعانا، ولو كنا في الصلاة.

وذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] وبتفسيره ﷺ لهذه الآية.

فقد أخرج الإمام البخاري عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال:

«كنت أُصلّي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه [فصلّيت ثم أتيته.

فقال: (ما منعك أن تجيبني؟)][1].

فقلت: يا رسول الله، إني كنت أُصلي.

فقال: (ألم يقل الله ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟).

ثم قال لي: (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن، قبل أن تخرج من المسجد). ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟

قال: (﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته)»[2].

إن إمعان النظر في القسم الأول من الحديث ـ وهو محل البحث ـ يغني عن كل تعليق عليه أو إيضاح له. فالمصلي في عبادة، وهو في تنفيذ لأمر الله تعالىٰ، وحينما يأتيه نداء الرسول ﷺ، وهو في صلاته فإن تلبيته أيضاً عبادة ـ وفقاً للآية الكريمة ـ فعليه أن يجيبه،

(١) من رواية النسائي (٩١٢).

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٤).

والقيام بالعبادة الثانية لا يبطل الأولىٰ وهو ما ذهب إليه الفقهاء، فإن المنادىٰ يجيب ثم يتابع صلاته.

إنه تكريم، وأي تكريم، أن يؤمر المصلي بتلبية ندائه ﷺ

إنه تكريم من الله تعالىٰ أكبر من أن تتحدث عنه الكلمات أو تبين عنه الحروف.

آيات كريمة في بيان مكانته ﷺ:

وقد وردت آيات قرآنية كثيرة في بيان فضله ﷺ نكتفي بذكر بعضها بغير شرح بغية عدم الإطالة.

قال تعالىٰ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة].

وقال تعالىٰ:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾ [آل عمران].

وقوله تعالىٰ: ﴿مَنَّ﴾ هنا، لها من الإيحاءات ما لا يمكن حصره.

وقال تعالىٰ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

وقال تعالىٰ:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالىٰ:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالىٰ:

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾ [الشرح].

وقال تعالىٰ:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى].

وقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب].

وقال تعالىٰ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

إن هذه الآيات الكريمة لتبين بوضوح مكانته ﷺ عند الله تعالىٰ وإكرامه له.

وبناء علىٰ مفهوم هذه الآيات وغيرها قال حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنه:

«إن الله تعالىٰ فضل محمداً ﷺ علىٰ أهل السماء وعلىٰ الأنبياء»[1].

ومن هذا الفهم ما نقله الإمام ابن القيم عن العلامة ابن عقيل وأقره عليه:

«قال ابن عقيل: سألني سائل: أيما أفضل: حجرة النبي ﷺ أو الكعبة؟

فقلت: إن أردت مجرد الحجرة، فالكعبة أفضل، وإن أردت وهو فيها، فلا والله، ولا العرش وحملته ولا جنة عدن ولا الأفلاك الدائرة، لأن بالحجرة جسداً لو وزن بالكونين لرجح»[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير» عند تفسير الآية ٢٨ من سورة سبأ.

(٢) «بدائع الفوائد» للإمام ابن القيم ١٣٥/٣ ـ ١٣٦.

وسئل هذا السؤال ابن تيمية فأجاب:

«الحمد لله، أما نفس محمد ﷺ فما خلق الله خلقاً أكرم عليه منه، وأما نفس التراب فليس هو أفضل من الكعبة البيت الحرام»[1].

تلك بعض المؤشرات التي تلقي الضوء علىٰ جانب من منزلته ﷺ عند الله تعالىٰ ولو لم يكن في حقه إلا قوله تعالىٰ: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحىٰ] لكفىٰ.

إن أياً من الأمور السابق ذكرها كافٍ ليجعل منه ﷺ أحب الخلق إلىٰ كل إنسان مسلم، فما بالنا وقد اجتمعت كلها في شخصه الكريم ﷺ. بل إنها بعض ما جاء في منزلته ﷺ عند الله تعالىٰ، إذ لا يحصي ذلك إلا الله سبحانه وتعالىٰ.

---

(١) «الفتاوىٰ» ٣٨/٢٧.

الفصل الثاني

محبة الله تعالىٰ مشروطة باتباعه ﷺ

وجانب آخر من بيان منزلته ﷺ عند الله تعالىٰ، نجده في قوله ﷻ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

إن محبة العبد لله تعالىٰ، ومحبة الله تعالىٰ للعبد، اللتان جمعهما قوله تعالىٰ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] هما المنزلة العليا التي لا يصل إليها إلا من تفضّل الله عليه وجعله أهلاً لذلك، كما ورد ذلك في ختام هذه الآية الكريمة: ﴿... ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومن هذا الفضل أن يُوَفِّقَ الله تعالىٰ الإنسان المؤمن إلىٰ سلوك الطريق الموصل إلىٰ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والذي رسمه القرآن واضحاً جلياً، في قوله تعالىٰ:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

وتبدأ القضية من حب المؤمن لله تعالىٰ..

فالحب في هذا الدين ليس مجرد عاطفة وحسب، وإنما لا بد لهذه العاطفة أن تنتج الآثار المترتبة عليها..

فهذا الحب إذا كان صحيحاً، يدفع إلىٰ الاتباع وبمقدار قوة

الحب تكون درجة الاتباع أعم وأشمل وأعمق..

فالمؤمن عندما يلتزم اتباع النبي ﷺ فيما جاء به، مما أمر به أو نهىٰ عنه، أو فعله، أو امتنع عن فعله... فإنه يدل بفعله هذا ـ كما نصّت الآية الكريمة علىٰ ذلك ـ علىٰ أنه محب لله، وأن هذا الحب هو الدافع إلىٰ انتظامه في هذا المسلك.

فهذا الحب..

ومن بعده الاتباع المترتب عليه.

ينتجان غاية ما يسعىٰ إليه المؤمن وهو الانضواء في جملة من أحبهم الله تعالىٰ.

ومن كرمه ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أنه رتب حصول الحب الثاني علىٰ وجود الحب الأول المصاحب بالاتباع لهذا النبي المكرم ﷺ.

إنها طريق سهلة ميسورة، مضمونة النتائج، محققة الأهداف بضمان الله تعالىٰ، وفقاً لوعده وتقريره.

والمراد المقصود من هذا البحث:

هو أن «اتباعه ﷺ» المعبر عنه بقوله تعالىٰ: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ هو محور الموضوع الذي نحن بصدده.

فالوصول إلىٰ مقام الحب المذكور إنما يكون باتباعه ﷺ.

واتباعه يقتضي التعرف عليه والتعرف علىٰ سيرته ﷺ وسنته.

وإذن من خلال شخصه الكريم يكون الوصول.

وهي منزلة تفرّد بها ﷺ كما هو واضح من الآية الكريمة.

إنه التكريم الكبير من الله سبحانه وتعالىٰ لعبده ورسوله محمد ﷺ أن جعل اتباعه طريق الوصول إلىٰ هذه المنزلة العظيمة، بل طريق النجاة لكل من أرادها.

وهذا ما فهمه كثير من محققي علماء هذه الأمة، وقد يكون من المستحسن الاستشهاد بقول واحد من أعلامهم في هذا المجال.

جاء في مقدمة كتاب «زاد المعاد» للإمام ابن القيم قوله:

«.. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأمينه علىٰ وحيه، وخيرته من خلقه، وسفيره بينه وبين عباده، المبعوث بالدين القويم والمنهج المستقيم، أرسله الله رحمة للعالمين، وإماماً للمتقين، وحجة علىٰ الخلائق أجمعين، أرسله علىٰ حين فترة من الرسل، فهدىٰ به إلىٰ أقوم الطرق، وأوضح السبل، وافترض علىٰ العباد طاعته وتوقيره ومحبته، والقيام بحقوقه.

وسدَّ دون جنته الطرق، فلن تفتح لأحد إلا من طريقه..».

وجاء في مقدمة كتابه «إغاثة اللهفان»:

«وسدَّ إلىٰ جنته الطرق، فلم يفتح لأحد إلا من طريقه..».

وتقدم في الفصل السابق قول الإمام ابن تيمية: وسدَّ إليه جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه.

فأي تكريم هذا، وأية منزلة هذه وأية مكانة..

إنه بعض ما جاء به قوله تعالىٰ:

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحىٰ].

الفصل الثالث

حب النبي ﷺ

سبق الحديث عن جانب من هذا الموضوع، في الباب الأول، وفي هذا الباب سيكون الحديث عن حبه ﷺ خاصة.

وجوب حبه ﷺ:

من المعلوم أن حب الله تعالىٰ ورسوله ﷺ شرط في الإيمان، وقد سبق إيراد الأدلة والنصوص المتعلقة بذلك.

وفي هذه الفقرة سيكون الموضوع قاصراً علىٰ النصوص المتعلقة بحبه ﷺ.

● قال أنس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ:

(لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)[1].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

(فوالذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتىٰ أكون أحب إليه من والده وولده)[2].

(١) رواه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).
(٢) رواه البخاري (١٤).

● وعن عبدالله بن هشام ﵁ قال: كنا مع النبي ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي.

فقال النبي ﷺ: (لا، والذي نفسي بيده، حتىٰ أكون أحب إليك من نفسك).

فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي.

فقال النبي ﷺ: (الآن يا عمر)[١].

● وعن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ:

(وليأتين علىٰ أحدكم زمان لأن يراني أحب إليه من أن يكون له مثل أهله وماله)[٢].

● وعنه ﵁، أن رسول الله ﷺ قال:

(مِنْ أشد أمتي لي حباً، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني، بأهله وماله)[٣].

إن هذه النصوص واضحة الدلالة علىٰ مكانة حبه ﷺ في بناء الإيمان، ورأينا ـ فيما سبق ـ ما قرره الإمام الغزالي وغيره من اعتبار حب الله تعالىٰ ورسوله ﷺ شرطاً في الإيمان.

علىٰ أن محبته ﷺ لدىٰ الناس ليست في مستوىٰ واحد، ولذلك رأينا الإمام ابن حجر رحمه الله عندما شرح كلمة (لا يؤمن) الواردة في الأحاديث السابقة قال: «أي إيماناً كاملاً»[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) رواه البخاري (٣٥٨٩)، ومسلم (٢٣٦٤).

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٢).

(٤) «فتح الباري» ١/٥٨.

وإذا علمنا أن الإيمان يزيد وينقص، فالوصول إلىٰ الكمال أمر صعب في هذا الميدان.

ولعل في كلام القرطبي ما يوضح ذلك. قال:

«كل من آمن بالنبي ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجدان شيء من تلك المحبة الراجحة، غير أنهم متفاوتون، فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظ الأوفىٰ، ومنهم من أخذ منها بالحظ الأدنىٰ، كمن كان مستغرقاً في الشهوات، محجوباً في الغفلات في أكثر الأوقات، لكن الكثير منهم إذا ذكر النبي ﷺ اشتاق إلىٰ رؤيته، بحيث يؤثرها علىٰ أهله وولده وماله ووالده، ويبذل نفسه في الأمور الخطيرة، ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردد فيه. وقد شوهد من هذا الجنس مَن يؤثر زيارة قبره ورؤية مواضع آثاره علىٰ جميع ما ذكر، لما وقر في قلوبهم من محبته، غير أن ذلك سريع الزوال بتوالي الغفلات، والله المستعان»[١].

ومهما يكن من أمر، فإن أصل الحب للرسول ﷺ لا بد من وجوده للوفاء بالشرط اللازم للإيمان.

حب الرسول ﷺ غير حب الله تعالىٰ:

اتفق علىٰ تقسيم الحب إلىٰ قسمين:

ـ حب الله تعالىٰ، وهو جنس خاص لا يشاركه فيه غيره، وقد سبق تفصيل ذلك.

ـ حب غيره تعالىٰ، ومنه حب الرسول ﷺ.

فحبه ﷺ من أنواع حب البشر، ولكن البواعث عليه تكثر وتتعدد وترتقي حتىٰ لا نكاد نجد حباً آخر يدانيه أو يقاربه.

---

(١) «فتح الباري» ١/٦٠.

وهكذا ينفرد حبه ﷺ عن محابّ البشر بعضهم بعضاً، ليكوْن جنساً خاصاً، فهو وإن كان مشتركاً من حيث الأصل، فإنه متميز من حيث الدوافع والغايات.

وهو ما أوضحه - إن شاء الله - في الفصل القادم.

الفصل الرابع
الدوافع إلى محبته ﷺ

كل محبوب فلا بد من أسباب كانت وراء الدافع الباعث على حبه، والوقوف على هذه الأسباب يلقي الضوء على مقدار قوة هذا الحب وحجمه، وما ينبغي أن يكون عليه.

وكلما ارتقت هذه الدوافع فوق المستوى المادي، كلما كانت أعظم رتبة وأعلى مقاماً.

وإني أحاول في هذا الفصل أن أذكر بعض الدوافع الباعثة على حب النبي ﷺ، إذ لا يمكن جمعها أو إحصاؤها.

١ - محبته ﷺ من محبة الله تعالى:

محبة النبي ﷺ فرع من محبة الله تعالى، فهي تابعة لها ومنبثقة عنها، ومن هذا تستمد قوتها.

قال ابن تيمية: «ومحبة الرسول هي من محبة الله..»[١].

وقال ابن رجب الحنبلي: «ومعلوم أن محبة الرسول إنما هي تابعة لمحبة الله ﷻ، فإن الرسول إنما يحب موافقة لمحبة الله له، ولأمر الله بمحبته وطاعته واتباعه، فإذا كان لا يحصل الإيمان إلا

(١) «قاعدة في المحبة» للإمام ابن تيمية، ص١٣٦.

بتقديم محبته على الأنفس والأولاد والآباء والخلق كلهم، فما الظن بمحبة الله ﷻ»[1].

٢ ـ منزلته ﷺ عند الله تعالى:

إن مَن تعرَّف على جانب من جوانب هذه المنزلة، دفعه ذلك إلى حب النبي ﷺ، فإعلاء الله تعالى منزلته كاف لبعث الحب في القلب لمن كرَّمه الله، ولِمَن أحبَّه الله، ولِمَن ختم به النبوات، ولِمَن امتنَّ الله بإرساله على المؤمنين.

وقد سبق بيان جانب من هذه المنزلة في الفصل الأول من هذا الباب.

٣ ـ اتباعه ﷺ سبيل النجاة:

قال تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقد سبق الحديث عن ذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

وللإمام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلام طيب في هذا الموضوع حيث قال:

«فإذا تأمل [المسلم] النفع الحاصل له من جهة الرسول ﷺ الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، إما بالمباشرة وإما بالسبب، علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات، فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره، لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره، ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه، ولا شك أن حظ الصحابة ﷺ من هذا

(١) «استنشاق نسيم الأنس» للإمام ابن رجب، ص٢٨.

المعنىٰ أتم، لأن هذا ثمرة المعرفة، وهم بها أعلم»[1].

٤ ـ كونه ﷺ يمثل الكمال الإنساني:

إن كل إنسان يعجب بالأعمال الخيِّرة الفاضلة، وبخاصة عندما تكون في موقع متقدم في ميدانها.

فقد يسمع الإنسان برجل كريم في بلد ما، وتروىٰ له قصص كرمه وعطاءاته، فيحبه وهو لم يره، كما لم ينله من عطائه شيء.

وذلك لأن الإنسان مفطور على تقدير الفضائل وحب فاعليها، وبخاصة عندما تكون في مستواها الأعلى.

وقد جرت العادة أن يبرز الرجل في ميدان واحد ويشتهر به.

فإذا ذكرت الشجاعة قيل عنترة.

وإذا ذكر الجود قيل حاتم.

وإذا.. وهكذا.

فإذا تصورنا اجتماع هذه الفضائل جميعها ـ من جود وحلم وشجاعة وعفو وسماحة وصدق ـ في رجل واحد، وكانت كلها في المستوى الرفيع والمتقدم، أمكننا تقدير عظيم حبنا وإعجابنا بذلك الرجل.

وهذا هو الشأن بالنسبة إليه ﷺ، فقد جمع في شخصه الكريم كل الفضائل ـ وهي في حالة من الكمال الذي لا مزيد عليه ـ بشهادة الحكم العدل ـ سبحانه ـ القائل:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم].

(١) «فتح الباري» ٥٩/١ ـ ٦٠.

وهذا ما دفع كثيراً من العلماء ـ الذين لا يدينون بالإسلام ـ إلىٰ الإشادة به ﷺ وبيان فضائله[1].

إنه ﷺ يمثل الكمال الإنساني بكل أبعاده.

ولذا فإنه يستحق كل الحب والتوقير من كل مسلم.. كما يحترمه ويكنُّ له كل تقدير من توفر له العقل السليم والفكر الواعي من غير المسلمين إذا سلم من التعصب.

٥ ـ إنه رسول الله:

وهذه الصفة ـ وحدها ـ كافية لتصل بمحبيه ﷺ إلىٰ الغاية القصوىٰ في حبهم.

فهو الرجل الوحيد الذي اختاره ـ سبحانه وتعالىٰ ـ من خلقه ليكون صاحب الرسالة الخاتمة، ولهذا الاختيار من العليم الحليم دلالته الواضحة، علىٰ أن ذاته ﷺ هي المحل الذي يصلح لهذا العمل الخطير الجليل، و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقد جعلها حيث علم، واختار لها أكرم خلقه وأخلصهم له ﷺ.

فهو «رسوله وخيرته من خلقه وأمينه علىٰ وحيه، وسفيره بينه وبين عباده، أرسله رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، ومحجة للسالكين، وحجة علىٰ العباد أجمعين.

أرسله علىٰ حين فترة من الرسل، فهدىٰ به إلىٰ أقوم الطرق وأوضح السبل.

وافترض علىٰ العباد طاعته ومحبته، وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه، وسدَّ إلىٰ جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه.

(١) ومنهم العالم الأمريكي «مايكل هارت» الذي وضع النبي ﷺ في أول كتابه: «المائة الأوائل» باعتباره الرجل الأول في تاريخ الإنسانية كلها.

فشرح له صدره، ورفع له ذكره، ووضع عنه وزره، وجعل الذلة والصغار علىٰ من خالف أمره، فهدىٰ به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وبصر به من العمىٰ، وأرشد به من الغي، وفتح برسالته أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً.

فبلّغ الرسالة وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتىٰ أتاه اليقين. فلم يدع خيراً إلا دلّ أمته عليه، ولا شراً إلا حذّر منه ونهىٰ عن سلوك الطريق الموصلة إليه..

فدعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة، وسار في الأمة ـ بالعدل والإحسان.. ـ أحسن سيرة، إلىٰ أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت به القلوب بعد شتاتها.. وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار..»[1].

ذلك هو رسول الله.

أفلا يستحق هذا الحب الذي ليس وراءه حب؟!

* * *

هذه بعض الأسباب الرئيسة الباعثة علىٰ حب النبي ﷺ.

وهناك أسباب أخرىٰ تعود بجملتها إلىٰ ما ذكر.

هذا في الدنيا..

وأما في الآخرة فإنه صاحب الشفاعة العظمىٰ وهي وحدها تعد من أعظم الدوافع إلىٰ محبته ﷺ.

والخلاصة: فمَن عرف رسول الله ﷺ أحبّه حقاً.

(١) «تقريب طريق الهجرتين» ص٢٨.

الفصل الخامس

معرفة النبي ﷺ أساس محبته

«معلوم أن قوة المحبة لكل محبوب، يتفاوت الناس فيها تفاوتاً عظيماً..»[1].

وأعتقد أن العامل الرئيس في هذه القضية يعود إلىٰ أمر «المعرفة» فكلما كان الإنسان أكثر معرفة بالرسول ﷺ كان أكثر محبة له..

فالمعرفة والقرب منه تتيح للمرء أن يطلع علىٰ فضائله ويتعرّف علىٰ أخلاقه، بالشكل الذي يجعله علىٰ قناعة كاملة أنه أمام سلوك متميز، يفرض احترامه ومحبته معاً علىٰ المتعامل معه.

وليس هذا الذي أقوله من باب المبالغات، وإنما هو أمر توثقه الوقائع. ومن ذلك ما دوّنته كتب السيرة:

● قدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة ـ وكان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ـ فالتقىٰ به أهل مكة يحذرونه من رسول الله ﷺ وينفرونه منه، حتىٰ قال: فوالله ما زالوا بي حتىٰ أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه.. حتىٰ حشوت في أذني حين غدوت إلىٰ المسجد كرسفاً[2]، فرقاً أن يبلغني شيء من قوله وأنا لا أريد أن أسمعه.

(١) «قاعدة في المحبة» ص١١٣.

(٢) الكرسف: القطن.

قال: فغدوت إلىٰ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً.

فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفىٰ عليّ الحسن من القبيح..

والتقىٰ الطفيل بالنبي ﷺ وسمع منه.. وشهد شهادة الحق[1].

إنها جلسة واحدة، غيّرت وضع الرجل، وتحول بها إلىٰ صحابي محب للنبي ﷺ، شأنه شأن كل الصحابة ﷺ.

● كانت سرايا رسول الله ﷺ في العام السادس، بعد غزوة الأحزاب، تجوب الأرض حول المدينة تستطلع الواقع وتتحسس الأخبار.. خوفاً من أمر يدبَّر لها في الخفاء.

ووقع في يد إحدىٰ السرايا رجل من بني حنيفة.. فجاؤوا به إلىٰ رسول الله ﷺ وعرف النبي ﷺ الرجل عندما رآه وقال: (هذا ثمامة بن أثال الحنفي، أحسنوا إساره).

إنه سيد في قومه، وأمر النبي ﷺ أن يكون في المسجد.. ويغدىٰ عليه ويراح باللقاح ليشرب من لبنها..

وخرج عليه ﷺ فقال: (ما عندك يا ثمامة؟).

فقال: عندي ـ يا محمد ـ خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم علىٰ شاكر، وإن كنت تريد المال، فسل تعطَ منه ما شئت..

ثم تكرر هذا الموقف في اليومين التاليين.

ثم أمر ﷺ بإطلاق سراحه..

فانطلق إلىٰ نخل قريب من المسجد فاغتسل.. ثم دخل المسجد فأعلن إسلامه.

(١) «سيرة ابن هشام» ٣٨٢/١.

ولنترك الكلام له يحدثنا عن نفسه وعن مشاعره.

وقال مخاطباً النبي ﷺ:

والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك. فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي.. ودينك أحب الدين كله إلي.. وبلدك أحب البلاد كلها إلي..[1].

ما الذي أحدث هذا الانقلاب في شخصية الرجل؟ وما الذي غيّر مشاعره من أقصى البغض إلى أقصى الحب..

إنه القرب.. وإنها المعرفة..

أياماً ثلاثة، وفي ظل الأسر، كانت كافية لتبديد الصورة القاتمة التي تكونت بفعل الإعلام المعادي له ﷺ.. وانجلى الموقف.. ويرى ثمامة في سلوكه ﷺ ما لم يكن رآه في الرجال من قبل.. ويذهب الظلام تحت وهج الحقيقة.. فإذا الحب يعترف به اللسان فيضاً بعد أن استقر في الجنان.

* * *

إن المعرفة هي السبيل الذي يتيح للحب أن يتسرب إلى القلب.. ومن ثم يشغل المشاعر كلها.. حتى يتحرك في الأعضاء سلوكاً وعملاً.

وإذا كانت المشاهدة في الجيل الأول هي الوسيلة إلى المعرفة.. فإن الأجيال التالية تملك من سيرته ﷺ ما يجعل الإنسان بعد الوقوف عليها، وكأنه في حال من المشاهدة القلبية والذهنية والشعورية.. بالحال التي لم يفقد فيها إلا رؤيته ﷺ..

إن التعرف على أخباره ﷺ وسيرته وسنته.. وسيلة وأي وسيلة للحصول على المعرفة التي تحدث المحبة، وكلما ازدادت هذه المعرفة ازدادت المحبة.

(1) حديث ثمامة رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

وهذا ما يفسر لنا إلحاح السلف الصالح على الأخذ بالنصيب الأوفر من تعلّم سيرته ﷺ.

قال زين العابدين، علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله:

«كنا نُعلَّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن»[1].

وقال الزهري رحمه الله:

«في علم المغازي علم الدنيا والآخرة»[2].

ولنستمع إلى قول ابن القيم في هذا الصدد، مبيناً ضرورة هذه المعرفة والطريق إليها، قال:

«.. ومن هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل اضطرار إلى معرفة الرسول ﷺ وما جاء به وتصديقه فيما أخبر..» إلى أن يقول:

«وإذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدي النبي ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحب نجاتها وسعادتها، أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به..

والناس في هذا، بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»[3].

ولا يكتفي الإمام ابن القيم بهذا بل يذهب إلى أبعد من هذا فيقول:

«.. فيطالع سيرته ﷺ ومبادئ أمره، وكيفية نزول الوحي عليه، ويعرف صفاته وأخلاقه وآدابه في حركاته وسكونه، ويقظته ومنامه،

(1) «البداية والنهاية» لابن كثير، ٣/٢٤٢.

(2) «البداية والنهاية» لابن كثير، ٣/٢٤٢.

(3) «زاد المعاد» ١/٦٩.

وعبادته، ومعاشرته لأهله وأصحابه، حتىٰ يصير كأنه معه، من بعض أصحابه..»[1]

هكذا: «حتىٰ يصير معه وكأنه واحد من أصحابه»..

هذا هو طريق ترسيخ المحبة.. وهي لا تُكتسب ولكنها تفرض نفسها.

إن الحب يبدأ بالإعجاب.. فإذا ترسخ هذا الإعجاب تحول إلىٰ حب.

إن مطالعة سيرته ﷺ تجعلك في تعجب من كل مواقف السمو في هذه السيرة.. ثم يكون الحب.. ثم يأخذ هذا الحب أبعاده حتىٰ يملك علىٰ الإنسان نفسه وفكره ومشاعره.

لقد أدرك سلف هذه الأمة مكانة السيرة كوسيلة للتعرف عليه ﷺ، فألحُّوا ودعوا الناس إلىٰ تعلمها والعيش في ظلالها، لأنه عن طريقها يتحقق شرط الإيمان.

فقد تبيَّن أن محبة الرسول ﷺ شرط في الإيمان.

والسبيل الوحيد للحصول علىٰ هذا الشرط هو المعرفة، التي لا يمكن توفيرها إلا من خلال العلم والبحث والتتبع..

وقد قال علماء الأصول في قواعدهم: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

ومن هنا كان تعلُّم سيرته ﷺ واجباً.

ولا نقصد بالسيرة ـ هنا ـ أمر الغزوات والسرايا وحسب، وإنما:

ـ السيرة التي سجلت أحداث حياته حسب التسلسل الزمني.

(١) «مدارج السالكين» ٣/٢٦٨.

ـ والسيرة التي تُعنىٰ بشمائله ﷺ وأخلاقه.

ـ والسيرة التي تُعنىٰ بخصائصه ومعجزاته..

ـ والسيرة التي تُعنىٰ بعباداته..

ـ وغير ذلك مما يمت إليه ﷺ بصلة، أو يتصل به بسبب.

وكما قال ابن القيم: «والناس في ذلك، بين مستقل ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء».

الفصل السادس

نماذج من محبة النبي ﷺ

وإذا كنا في هذا الباب نتحدث عن حب النبي ﷺ فيحسن بنا أن نذكر بعض المشاهد التي تمثل ما يعنيه هذا الحب وما يفعله في النفوس عندما تخالط بشاشته القلوب..

ولا شك بأن هذه المشاهد ما زالت تتكرر بصورة أو بأخرىٰ منذ بعثته ﷺ وحتىٰ يومنا هذا، بل وحتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها..

ذلك أن هذا الحب مرتبط بالإيمان ارتباطاً وثيقاً لا ينفك عنه..

وإذا كانت معظم المشاهد التي تم اختيارها، إنما كانت من جيل الصحابة رضي الله عنهم، فذلك ليسر الوصول إليها إذ هي منبثة في سيرته ﷺ، ونتمنىٰ لو يسّر الله جمع هذه المشاهد عبر القرون..

● مضىٰ علىٰ الدعوة السرية ثلاث سنوات.. وألحّ أبو بكر رضي الله عنه علىٰ الرسول ﷺ في الظهور..

وقام أبو بكر في المسجد الحرام ليكون أول خطيب دعا إلىٰ الله ورسوله..

وما إن تكلم.. وأدرك المشركون مغزىٰ ما يدعو إليه.. حتىٰ ثاروا عليه، فضرب ضرباً مبرحاً، ووطىء.. وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعل مخصوفة ويحرفها لوجهه.. حتىٰ ما يعرف وجهه من أنفه.

وحمله بنو تيم إلىٰ داره ما يشكون في موته..

ولكنه تكلم آخر النهار، فكان أول ما قال: ما فعل رسول الله[١]؟

كان ذلك قبل أن يتحسس جسده ويتعرّف علىٰ ما أصابه.

ولم تطمئن نفسه.. حتىٰ خرج ـ بعد أن خيّم الظلام ـ معتمداً علىٰ والدته وامرأة أخرىٰ، والتقىٰ برسول الله ﷺ الذي أكبّ عليه وقبّله ورقّ له رقة شديدة.

أجل، ما فعل رسول الله؟ هو الأمر الذي يشغل بال أبي بكر علىٰ الرغم من معاناته..

إنه الحب.

● وقف ﷺ يوم بدر يسوّي الصفوف بسهم كان بيده، وكان سواد بن غزية ـ شاب من الأنصار ـ بارزاً في الصف، فقال له ﷺ: (استوِ يا سواد).

فقال: أوجعتني يا رسول الله، فدعني أقتد منك.

فأعطاه ﷺ السهم وكشف له عن بطنه الشريف، إذ لم يكن علىٰ بطن سواد ما يستره.

فاعتنقه سواد وجعل يقبّله.

فقال له: (ما حملك علىٰ هذا؟).

فقال: يا رسول الله، قد حضر ما ترىٰ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

فدعا له ﷺ بخير[٢].

(١) «البداية والنهاية» ٣٠/٣.

(٢) «سيرة ابن هشام» ٦٢٦/١.

● وتزدحم مشاهد الحب يوم أُحد، وهل يظهر الحب إلا في الأزمات؟

ـ فقد شاع خبر مقتله ﷺ فارتبك بعضهم، وأصابت الحيرة بعضهم.. ومر أنس بن النضر بهم فقال: ما يحبسكم؟ قالوا: قتل رسول الله، قال: فما تصنعون بالحياة بعده، موتوا على ما مات عليه، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل[1].

ـ وجعل أبو طلحة جسمه درينة يقي بها النبي ﷺ وهو يرمي بين يديه، ويقول: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك..[2].

ـ وقاتل مصعب بين يدي رسول الله ﷺ ومعه اللواء حتى قُتل[3].

ـ وفي بعض مراحل المعركة انحازت أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية إلى جانب النبي تقاتل إلى جانبه ودونه حتى خلصت إليها الجراح[4].

ـ وفي جولة أخرى وجد أبو دجانة ـ البطل المعلَّم ـ أن القتال دونه ﷺ لم يعد يجدي فترس بنفسه فانحنى على رسول الله ﷺ يقع النبل في ظهره حتى كثر فيه النبل حتى انحاز إليهم بعض الصحابة[5].

ـ وعاد المجاهدون من أحد إلى المدينة.. وفي الطريق مروا بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها.. فلما نعوا لها

(١) «سيرة ابن هشام» ٢/٨٣.
(٢) رواه البخاري (٤٠٦٤)، ومسلم (١٨١١).
(٣) «سيرة ابن هشام» ٢/٧٣.
(٤) «سيرة ابن هشام» ٢/٨١.
(٥) «سيرة ابن هشام» ٢/٨٢.

قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: هو ـ بحمد الله ـ بخير، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، فلما رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[1].

ـ وهذا سعد بن الربيع ﷺ على أرض المعركة يجود بأنفاسه الأخيرة.. يبعث برسالة إلى قومه.. إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم ﷺ وفيكم عين تطرف[2].

● كانت معركة بدر على غير ميعاد، واستشار النبي ﷺ أصحابه، وأدلى كل من له رأي برأيه..

وقال سعد بن معاذ ﷺ: يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونعدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا فقد تخلّف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم..[3].

إن كلمة سعد ﷺ تصف الحقيقة، وتنصف الجميع.. إن الذين تخلّفوا ليسوا بأقل حباً ممن حضر.. فالحب له ﷺ يعمر قلوب الجميع.

● زيد بن الدثنة، هو أحد الصحابة الذين بعثهم النبي ﷺ إلى عضل والقارة ـ بعد أن تظاهروا بالإسلام ـ ليعلموهم..

ولكن عضلاً والقارة غدروا بأصحاب النبي ﷺ..

وبيع زيد إلى قريش التي أجمعت على قتله، فلما قدم ليقتل، قال له أبو سفيان: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟

(١) أي هينة، «سيرة ابن هشام» ٢/٩٩.
(٢) «سيرة ابن هشام» ٢/٩٥.
(٣) «سيرة ابن هشام» ١/٦٢٠.

قال زيد: والله ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي.

فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً[1].

رضي الله عنك يا زيد، فوالله إن هذا لهو الحب، الذي تعجز عن وصفه الكلمات فليس في قواميس اللغة ما يعبّر عنه، وإنما يدركه من خلال المشاعر أولئك الذين امتنّ الله عليهم بالإيمان فأدركوا من خلاله هذه المعاني الرفيعة..

● وأردف العباس رضي الله عنه أبا سفيان خلفه على بغلة النبي ﷺ وانطلق به مسرعاً إلى النبي ﷺ.. ورآه عمر فقال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا ذمة.. ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ.

وأعلم العباس النبي أنه أمَّن أبا سفيان، وألحّ عمر طالباً الإذن بضرب عنقه فقال العباس: مهلاً يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا..

فقال عمر: مهلاً يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم[2].

ورضي الله عن العباس وعن عمر، ولقد صدق ـ والله ـ عمر فيما قال، فقد كانت محابُّ رسول الله ﷺ مقدّمة على رغباتهم، ولهذا المعنى كان سروره بإسلام العباس مقدماً على سروره بإسلام أبيه الخطاب لو أسلم.

(١) «سيرة ابن هشام» ١٧٢/٢.
(٢) «سيرة ابن هشام» ٤٠٣/٢.

إنه عمر، صاحب (الآن يا عمر)[1].

فقد كان ﷺ أحب إليه من نفسه.. وبالتالي فرغباته مقدّمة على رغباته، وسروره مقدم على سروره.. وهذا هو الحب في كمال معانيه.

● وفي غزوة بني المصطلق يبرز النفاق بصورته الكالحة ورائحته النتنة ويتكلم رأس المنافقين معرضاً برسول الله ﷺ فيقول: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» يعني رسول الله ﷺ..

وتأخذ الكلمة أبعادها في المعسكر.. ويشاع أنه ﷺ عازم على قتل عبدالله.

ويصل الخبر إلى عبدالله، ابن رأس المنافقين، فيستأذن على النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبدالله، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله فأقتل مؤمناً بكافر فأدخل النار.

فقال ﷺ: (بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا..)[2].

وإني لألمح من خلال القرون.. كيف ارتفعت درجة الحب للنبي ﷺ في نفس عبدالله الابن، بعد سماعه هذه الكلمات التي لا يمكن صدورها إلا من نبي.. بعدما اقترف ابن أبي ما اقترف..

إنه رسول الله الذي يسع الناس جميعاً، فكيف لا يسع عبدالله..

وفي طريق العودة وقف الابن على مدخل المدينة، فلما جاء أبوه قال له: وراءك.

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).
(٢) «سيرة ابن هشام» ٢٩٣/٢.

فقال: ما لك؟ ويلك!

فقال: والله لا تجوز حتى يأذن لك رسول الله، فإنه العزيز وأنت الذليل.

وجاء رسول الله ﷺ وكان يسير في اخر الناس..

وأذن له رسول الله ﷺ..[١]

إنه موقف من مواقف الإيمان، ومشهد من مشاهد الحب.

وفي مثل هذه المواقف يصعب التفريق بين الإيمان والحب.. ولكن وفي منهج الإسلام لا يكون الإيمان بغير الحب.

ورضي الله عن عبدالله، الابن، فقد فاز في اختبار الإيمان، كما فاز في اختبار الحب.

● وإذا كان للشعر دوره في صياغة مشاعر الحب، فقد كان للنبي ﷺ النصيب الأوفى من حيث ما قيل فيه مدحاً ووصفاً وثناءً، فعدد الشعراء من الصحابة الذين عبّروا عن مشاعرهم تجاهه ﷺ غير محصور، فما بالنا لو ذهبنا نحصي من جاء بعدهم عبر القرون..؟

وقد قام العلامة ابن سيد الناس[٢] بجمع ما وقع له من شعر الصحابة الذين مدحوا الرسول ﷺ دون استقصاءٍ وتتبعٍ، فزاد عددهم على ثمانين ومائة صحابي وصحابية[٣] رضي الله عنهم.

---

(١) «تفسير ابن كثير» ٢٧٢/٤، تفسير سورة المنافقون.

(٢) هو أبو الفتح، محمد بن محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس المعروف بابن سيد الناس، ولد سنة ٦٧١هـ بالقاهرة، ولازم ابن دقيق العيد، كان أحد الحفاظ، أديباً شاعراً، ألف «السيرة الكبرى» و«الصغرى»، توفي سنة ٧٣٢هـ.

(٣) تم هذا الجمع في كتاب «منح المدح» حققته عفت وصال حمزة، نشرته دار الفكر بدمشق عام ١٤٠٧هـ.

وإذا علمنا أن هذا كله إنما كان بعد الهجرة، أمكننا تقدير «الكم» الكبير الذي قيل بعد ذلك..

وأذكر في هذه الفقرة بضعة نماذج من شعر بعض هؤلاء الصحابة رضي الله عنهم ولن يكون من بينهم من عرفوا بشعراء الرسول ﷺ من أمثال: حسان، وكعب، وابن رواحة رضي الله عنهم فهؤلاء معلوم شعرهم ومعلومة مكانتهم.

أما النماذج:

ـ فمن شعر الجارود العبدي[١] قوله:

وأنتَ أمينُ الله من كلِّ وجهةٍ ... على الوحي من بين القضيضةِ والقضِّ[٢]

فإنْ لا تكن داري بيثرب فيكمُ ... فإني لكم عند الإقامةِ والخفضِ[٣]

أصالحُ من صالحتَ من ذي عداوةٍ ... وأبغضُ من أمسى على بغضكم يُغضي[٤]

وأُدني الذي واليتَهُ وأحبُّه ... وإنْ كانَ في فيهِ العلاقمُ من عَضي[٥]

أذبُّ بسيفي عنكمُ وأجيبكم ... إذا ما دعوتم في الوفاق وفي النقض

وأجعلُ نفسي دونَ كل ملمَّةٍ ... لكم جُنَّةً، من دون عرضكُم عرضي

أقول: وهل الحب إلا الموالاة الكاملة لله ولرسوله ﷺ كما جاء في شعر هذا الصحابي رضي الله عنه.

---

(١) هو الجارود بن المعلى وقيل ابن العلاء، قدم على النبي ﷺ في وفد عبدالقيس، وكان نصرانياً، دعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأسلم.

(٢) القضيضة: الحصا الصغار، والقض: الحصا الكبار والمراد: في كل الأمور صغيرها وكبيرها، أولها وآخرها.

(٣) المعنى: أنه وإن لم يكن من ساكني المدينة، فهو بعواطفه وقلبه معهم سواء أكان مقيماً أو مسافراً.

(٤) يغضي: أغضى على الشيء سكت عنه، والمراد: أنه يبغض كل من يكن بغضهم.

(٥) العلاقم: جمع علقم: وهو الحنظل وكل شيء مر.

ـ ومن شعر صِرمة بن أبي أنس[1] قوله:

ثوىٰ في قريش بضع عشرة حجة ... يذكّرُ لا يلقىٰ صديقاً مواتيا
ويعرضُ في أهلِ القبائلِ نفسَهُ ... فلم يرَ من يؤوي ولم يرَ داعيا
فلما أتانا واستقرت به النوى ... وأصبح مسروراً بطيبة ثاويا
وأصبح لا يخشىٰ ظلامة ظالم ... بعيدٍ ولا يخشىٰ من الناس باغيا
بذلنا له الأموالَ من جلّ مالنا ... وأنفسَنا، عند الوغىٰ، والتآسيا
نعادي الذي عادىٰ من الناس كلهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المواتيا
ونعلم أن الله لا شيءَ غيره ... وأنَّ كتابَ الله أصبح هاديا

قال في «الإصابة»: كان ابن عباس رضي الله عنهما يختلف إلىٰ صرمة رضي الله عنه يتعلم منه هذه الأبيات.

ـ ومن شعر مران بن ذي عمير[2] في رثائه ﷺ قوله:

إن حزني علىٰ الرسول طويل ... ذاك مني علىٰ الرسول قليل
قلتُ: والموتُ ـ يا أمامُ ـ كريهٌ ... ليتني مِتُّ يوم مات الرسول
ليتني لم أكن لقيتُ فِراقاً ... بعده والفراق مني طويل
بكت الأرض والسماء عليه ... وبكاه خليله جبريل

وهكذا لم تعد الحياة شيئاً مرغوباً فيه بعد وفاة النبي ﷺ فتمنىٰ مران رضي الله عنه أن يكون مات يوم مات ﷺ حتىٰ لا يشعر بألم الفراق وذلك هو الحب، وبخاصة إذا علمنا أن الصحابة رضي الله عنهم لا يكذبون وما يقولونه هو الصدق المعبّر عما استقرّ في قلوبهم.

ـ وهذه الأمنية التي تمناها مران تمناها عمرو بن العاص رضي الله عنه،

(١) هو أحد بني عدي بن النجار، همَّ بالنصرانية ولم يفعل، وأدرك الإسلام شيخاً كبيراً فأسلم.

(٢) قال في «الإصابة»: كان من ملوك همدان وأسلم فيمن أسلم منهم، فلما سمع أهل اليمن بوفاته ﷺ تكلم سفهاء همدان بما كرهه حلماؤهم. فقام مران فقال كلمة ثبّت فيها قومه علىٰ الإسلام.

وقد كان والياً علىٰ عُمان يوم مات ﷺ ولم يكن بالمدينة، فقال في ذلك:

يا ليتني أبصرت وجه محمدٍ ... قبلَ الممات وشُلّتِ الكفّان
أو ليتَ عمراً مات قبل مصابه ... وثوىٰ صدىً في القبر والأكفان
أو ليتني لم أبقَ بعد وفاته ... ذهب القضاء بمنية الإنسان
إن كان قد مات النبي فديننا ... دين النبي وما هداه هداني
كان النبي أمانة مضمونة ... فينا إلىٰ أجلٍ وحدّ أوان
فارتدها من كان يملك ردَّها ... هذا لعمرُ أبيك في الفرقان

أكتفي بهذه النماذج من شعر الصحابة رضي الله عنهم[1] والذي يعبّر عن بعض الحب الذي كانوا يكنونه للنبي ﷺ.

● ومن مشاهد الحب المؤثرة: ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً رضي الله عنه إلىٰ اليمن، خرج معه يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: (يا معاذ، إنك عسىٰ أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك تمر بمسجدي هذا وقبري) فبكىٰ معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ[2]

وحق له ـ والله ـ أن يبكي وأن يحزن.

* * *

ومن الأمثلة التي سجلت حب التابعين رحمهم الله أذكر هذه الأخبار:

● قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان يا أبا عبدالله، أرأيتم رسول الله وصحبتموه؟

(١) أخذت هذه النماذج من كتاب «منح المدح» لابن سيد الناس، حققته عفّت وصال حمزة، ونشرته دار الفكر بدمشق.

(٢) «المسند» ٥/٢٣٥.

قال: نعم، يا ابن أخي.

قال: فكيف كنتم تصنعون؟

قال: والله لقد كنا نجهد.

فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا.

فقال حذيفة...[1]

● قال جبير بن نفير: جلسنا إلى المقداد بن الأسود ﷺ يوماً، فمرَّ به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أننا رأينا ما رأيت وشهدنا ما شهدت..[2].

إن هذا الخبر والذي قبله إنما هما التعبير عما كان يجول في نفس كل تابعي، وما هما إلا التعبير عن الحب الذي استقر في القلوب.. فإذا به صنو الإيمان.

والملاحظ أن كلا الرجلين لم يرَ في الحب مجرد عاطفة، بل يرى فيه عملاً إيجابياً يظهر إلى حيز الواقع..

فالأول يقول: ما تركناه يمشي على الأرض..

وقال الثاني: وشهدنا ما شهدت..

● وهذا يحيى بن الحارث الذماري، مقرئ دمشق، وإمام جامعها، يجلس إلى واثلة بن الأسقع، ويجري الحديث بينهما..

فيقول يحيى لواثلة: بايعتَ بيدك هذه رسول الله ﷺ؟

فقال: نعم.

فقال يحيى: أعطني يدك أقبلها.

(١) «سيرة ابن هشام» ٢/٢٣٢.
(٢) «الفتح الرباني» ١/١٠٦.

فأعطاه يده فقبّلها[1].

● وكذلك قَبَّل بعض التابعين يد سلمة بن الأكوع التي بايع بها رسول الله ﷺ[2].

لم يكن تقبيل الأيدي شائعاً بين المسلمين، ولكن هؤلاء التابعين كان تقبيلهم ليد واثلة وسلمة ﷺ تعبيراً عن حبهم لرسول الله ﷺ بتلمس أثر من آثاره، وهذا هو الحب.

(١) «مجمع الزوائد» (١٢٧٩٨).
(٢) «مجمع الزوائد» (١٢٧٩٩).

الفصل السابع

نمط آخر في التعبير عن حبه ﷺ

وللصحابة ومَن بعدهم أساليب متنوعة في التعبير عن حبهم للرسول ﷺ، إنها لا تنضوي تحت عنوان واحد، ولكنها تشترك في الموضوع وهي أنها مظاهر لحبه ﷺ وفي مقدمة ذلك حرصهم على آثاره ﷺ.

ومن المستحسن ذكر نماذج من هذا النمط.

- **قدح النبي ﷺ:**

ـ عن عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع فسلسله بفضة، قال: وهو قدح جيد عريض من نضار[1].

قال: قال أنس: لقد سقيت رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا وكذا.

قال: وقال ابن سيرين: إنه كان فيه حلقة من حديد، فأراد أنس

(١) نضار: هو الخالص من كل شيء، قال ابن حجر: يقال أصله من شجر النبع، وقيل من الأثل، ولونه يميل إلى الصفرة.

أن يجعل مكانها حلقة من ذهب أو فضة، فقال له أبو طلحة: لا تغيرن شيئاً صنعه رسول الله، فتركه[1].

وقال عاصم: رأيت القدح وشربت فيه[2].

وقال علي بن الحسن: وأنا رأيت القدح وشربت منه.

وذكر القرطبي في «مختصر البخاري»: أنه رأىٰ في بعض النسخ القديمة من البخاري: قال أبو عبدالله البخاري: رأيت هذا القدح بالبصرة وشربت فيه، وكان اشتري من ميراث النضر بن أنس بثمانمائة ألف[3].

ـ وهناك قدح آخر كان عند سهل بن سعد ﷺ. قال إنه سقىٰ فيه النبي ﷺ وأصحابه وكانوا في سقيفة بني ساعدة.

وقد استوهبه بعد ذلك عمر بن عبدالعزيز منه فوهبه له[4].

وبيع قدح أنس بذلك المبلغ الكبير، واستيهاب عمر بن عبدالعزيز لقدح سهل، فيهما من الدلالة ما هو كافٍ للتعبير عما في النفوس من حبه ﷺ.

- **خاتم النبي ﷺ:**

عن أنس ﷺ قال: «كان خاتم النبي ﷺ في يده، وفي يد أبي بكر بعده، وفي يد عمر بعد أبي بكر، فلما كان عثمان جلس على بئر أريس، قال: فأخرج الخاتم فجعل يعبث به، فسقط، قال: فاختلفنا ثلاثة أيام مع عثمان، فننزح البئر فلم نجده»[5].

(١) رواه البخاري (٥٦٣٨).

(٢) رواه البخاري (٣١٠٩).

(٣) «المواهب اللدنية» للقسطلاني، ٤١٧/٣.

(٤) رواه البخاري (٥٦٣٧)، ومسلم (٢٠٠٧).

(٥) رواه البخاري (٥٨٧٩).

فهذا الجهد المبذول في سبيل استخراجه، والعمل ثلاثة أيام هو بعض التعبير عن ذلك الحب لما يحمله الخاتم من معنىً وكونه خاتم النبي ﷺ.

قال ابن حجر: «إنما بالغ في التفتيش عليه لكونه أثر النبي ﷺ فقد لبسه واستعمله وختم به، ومثل ذلك يساوي في العادة قدراً عظيماً من المال، وإلا لو كان خاتم غير النبي لاكتفىٰ بطالبه بدون ذلك..»(١).

● شعر النبي ﷺ:

قال ابن سيرين: قلت لعبيدة: عندنا من شعر النبي ﷺ أصبناه من قبل أنس، أو من قبل أهل أنس، فقال: لأن تكون عندي شعرة منه أحب إلي من الدنيا وما فيها(٢).

وإنما صار هذا الشعر إلىٰ محمد بن سيرين من قبل والده الذي كان مولىً لأنس بن مالك خادم النبي ﷺ.

وعبيدة هو ابن عمر ـ كما قال ابن حجر ـ وكلمته تبين ما تحمله نفسه من حب للنبي ﷺ.

واحتفاظ ابن سيرين بهذا الشعر دلالة أخرىٰ تصب في الاتجاه نفسه، وكذا احتفاظ والده من قبله وأنس من قبلهما.

● بيوت أزواجه ﷺ:

ضاق المسجد النبوي بالمصلين في عهد الوليد بن عبدالملك، وكان لا بد من أجل توسيعه من هدم بيوت أزواجه ﷺ التي كانت بجوار المسجد.

(١) «فتح الباري» ١٠/٣٢٩.

(٢) رواه البخاري (١٧٠).

«قال عطاء الخراساني: أدركت حجر أزواج رسول الله ﷺ من جريد النخل علىٰ أبوابها المسوح من شعر أسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبدالملك يُقرأ، يأمر بإدخالها في المسجد، فما رأيت أكثر باكياً من ذلك اليوم.

وقال عطاء: سمعت سعيد بن المسيب يقول يوم هدمت: والله لوددت أنهم تركوها علىٰ حالها، ينشأ ناشئ من أهل المدينة، ويقدم القادم من الأفق، فيرىٰ ما اكتفىٰ به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يزهد الناس في التكاثر والتفاخر.

وقال عمر بن أبي أنس: لقد رأيتني ـ يوم هدمت ـ في مجلس فيه نفر من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ، منهم: أبو سلمة بن عبدالرحمٰن بن عوف، وأبو أمامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت، وإنهم ليبكون حتىٰ أخضل لحاهم الدمع، وقال يومئذ أبو أمامة:

ليتها تركت فلم تهدم، حتىٰ يقصر الناس عن البناء، ويروا ما رضي الله لنبيه ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده»(١).

كان يوماً حزيناً مؤثراً، بكىٰ فيه عامة الناس لفقد آثر يرون فيه رسول الله ﷺ داخلاً وخارجاً إلىٰ هذه البيوت، فيستعيدون من خلال هذا التصور تاريخ السيرة النبوية الشريفة وأيامها..

ورأىٰ فيه علماء الأمة ما رأىٰ العامة وأضافوا إليه بيان بعض الحكمة من بقائها لو بقيت، وهو أن يرىٰ الناس ما كان عليه رسول الله ﷺ، فيتأسوا به، إذ ليس الخبر كالمعاينة.

وإذا كان عبيدة بن عمر يرىٰ في امتلاك شعرة من شعر

(١) جاء هذا في «طبقات ابن سعد» (١/٤٩٩ ـ ٥٠١)، و«الوفا بأحوال المصطفىٰ» (١/٤٠٥ ـ ٤٠٦)، و«البداية والنهاية» (٣/٢٢٠)، و«شرح الزرقاني علىٰ المواهب» (١/٣٧٠).

النبي ﷺ ما هو أحب إليه من الدنيا وما فيها، فكم كانت سعادة الأمة لو بقيت هذه الغرف، إنها سعادة لا تُقدَّر وبخاصة لأولئك الذين أحبُّوا رسول الله ﷺ وترسّموا خطاه.

إن بكاء العامة والخاصة فيه بعض التعبير عن ذلك الحب الذي عمر القلوب، فكان تمنياً من الجميع ظهر على لسان العلماء: ليتها لم تُهدم.

● ابن عمر ﵄:

كان ابن عمر يتبع آثاره ﷺ في كل مسجد صلّى فيه، وكان يعترض براحلته في طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته فيه، وكان إذا وقف بعرفة وقف في الموقف الذي وقف فيه رسول الله ﷺ.

وما ذكر ابن عمر رسول الله ﷺ إلا بكى، ولا مرّ على ربعهم إلا غمض عينيه[1].

وعن نافع عن ابن عمر ﵄ أنه كان في طريق مكة يقول برأس راحلته، يثنيها ويقول: لعل خفاً يقع على خف، يعني خف راحلة النبي ﷺ[2].

● الحسن البصري:

كان الحسن البصري كثير الحنين والشوق إلى رسول الله ﷺ - وهو من التابعين - وكان يحدّث بقصة الجذع الذي كان يخطب رسول الله ﷺ مستنداً إليه، ثم تركه واتخذ المنبر، فحنّ الجذع حتى سمع صوته كل من في المسجد.

(1) «الإصابة» في ترجمة عبدالله بن عمر ﵄.
(2) «حلية الأولياء» ١/٣١٠.

فكان إذا حدّث بهذا الحديث يقول: «يا معشر المسلمين، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه..»[1].

● أذان بلال ﵁:

قال محمد بن إبراهيم التيمي: لما توفي رسول الله ﷺ أذن بلال ورسول الله ﷺ لم يقبر، فكان إذا قال: أشهد أن محمداً رسول الله، انتحب الناس في المسجد، فلما دفن رسول الله ﷺ قال له أبو بكر: أذن يا بلال، فقال: إني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله ﷺ، قال: فذاك إليك.. فلما خرجت بعوث الشام خرج معهم..[2].

ثم إنه رأى النبي ﷺ في منامه وهو يقول: «ما هذه الجفوة يا بلال، أما آن لك أن تزورني» فانتبه حزيناً وركب راحلته وقصد المدينة، فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده.. فأقبل الحسن والحسين فجعل يضمهما ويقبلهما، فقالا له: يا بلال، نشتهي أن نسمع أذانك، ففعل وعلا السطح ووقف، فلما أن قال: الله أكبر الله أكبر، ارتجت المدينة. فلما أن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، ازدادت رجتها، فلما قال: أشهد أن محمداً رسول الله، خرجت العواتق من خدورهن، وقالوا: بعث رسول الله، فما رؤي يوم أكثر باكياً ولا باكية في المدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم[3].

(1) «فتح الباري» ٦/٦٠٢.
(2) «صفة الصفوة» ١/٢٢٩.
(3) «سير أعلام النبلاء» ١/٣٥٨.

الفصل الثامن

حب آل البيت

والصحابة من حبه ﷺ

إن حب النبي ﷺ يقتضي حب كل من أحبه النبي ﷺ وبغض كل من أبغضه، وقد سبق الحديث عن ذلك في الفصل السابع من الباب الثاني.

فحقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهي موافقته ومتابعته في حب ما يحب وبغض ما يبغض.

«قال الطبري: اعلم أن الله تعالىٰ لما اصطفىٰ نبيه ﷺ علىٰ جميع من سواه، وخصّه بما عمّه به من فضله الباهر وحباه، أعلىٰ ببركته من انتمىٰ إليه نسباً أو نسبة، ورفع من انطوىٰ عليه نصرةً وصحبةً، وألزم مودة قرباه كافةَ بريّته، وفرض محبة جملةِ أهل بيته المعظم وذريته..»[1].

إن محبته ﷺ تقتضي محبة أهل بيته الكرام، وكذلك أصحابه الذين اختارهم الله تعالىٰ لنصرته ﷺ أجمعين. وفي هذا الفصل نتحدث عن هذا الموضوع باختصار.

(١) «المواهب اللدنية» للقسطلاني ٣/٣٥٨.

حب آل البيت:

جاءت الأحاديث الشريفة كثيرة في الوصية بآل البيت[1]، والتذكير بحقهم علىٰ المسلمين: ومن ذلك:

● عن زيد بن أرقم ﷺ، قال: قام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، بماء يدعىٰ خماً، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنىٰ عليه، ووعظ وذكر، ثم قال:

(أما بعد: ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدىٰ والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به).

فحث علىٰ كتاب الله ورغب فيه، ثم قال:

(وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي)[2].

● وعن زيد بن ثابت يرفعه إلىٰ الرسول ﷺ:

(إني تارك فيكم خليفتين: كتاب الله، حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يتفرقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض)[3].

● وعن أبي بكر ﷺ قال: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته»[4].

(١) يدخل في مصطلح أهل البيت: أزواج النبي ﷺ وعلي وفاطمة وحسن وحسين ﷺ، وكذلك كل من لا تحل لهم الصدقة، وهم ذوو القربىٰ، وهم بنو هاشم وبنو المطلب.

وقد جاء تحديدهم في حديث زيد بن أرقم حيث قال: هم: آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٤٠٨).

(٣) «الفتح الرباني» (١٠٤/٢٢) وقال البنا: إسناده جيد.

(٤) رواه البخاري (٣٧١٣).

وقال أيضاً: «والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله ﷺ أحب إليَّ أن أصل من قرابتي»[1].

● وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشاً إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم ببشر حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوه لا نعرفها، قال: فغضب النبي ﷺ غضباً شديداً وقال: (والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتىٰ يحبكم لله ولرسوله)[2].

● وعن عبد المطلب بن ربيعة قال: دخل العباس ﷺ علىٰ رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرىٰ قريشاً تحدث، فإذا رأونا سكتوا، فغضب رسول الله ﷺ ودرَّ عرق بين عينيه ثم قال ﷺ: (والله لا يدخل قلب امرىء مسلم إيمان حتىٰ يحبكم لله ولقرابتي)[3].

● وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: (أحبُّوا الله لما يغذوكم من نعمه وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي)[4].

هذه الأحاديث وغيرها دعوة صريحة لحب آل البيت، وهذا ما فهمه الصحابة ﷺ، فكان أهل البيت أحب إليهم من أهلهم.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في التعليق علىٰ قول أبي بكر ﷺ الذي سبق ذكره وعلىٰ قول عمر للعباس ﷺ: «والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، لأن إسلامك كان أحب إلىٰ رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب» قال ابن كثير تعليقاً علىٰ ذلك:

«فحال الشيخين ـ أبي بكر وعمر ـ ﷺ هو الواجب علىٰ كل

(١) رواه البخاري (٤٢٤٠)، ومسلم (١٧٥٩).
(٢) رواه الإمام أحمد، كما في تفسير ابن كثير عند الآية ٢٣ من سورة الشورىٰ.
(٣) كالذي قبله.
(٤) رواه الترمذي (٣٧٨٩) وضعفه الألباني.

أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، ﷺ . .».

وعن عمار بن أبي عمار: أن زيد بن ثابت ركب يوماً، فأخذ ابن عباس بركابه فقال له: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال له: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا وكبرائنا. فقال زيد: أرني يدك، فأخرج يده، فقبلها زيد وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا[1].

تلك هي مفاهيم الصحابة ﷺ في شأن حب آل البيت ﷺ[2].

حب الصحابة:

الصحابة هم الجيل الذي آمن بالرسول ﷺ وصحبه وجاهد معه، ودعا بدعوته، فهم الجيل الذي اختاره الله لهذه المهمة العظيمة.

وقد أجمع جمهور العلماء من السلف والخلف علىٰ أنهم خير خلق الله، وأفضلهم بعد النبيين وخواص الملائكة المقربين. قال ﷺ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم . .)[3].

(١) «كنز العمال» ٣٩٦/١٣ حديث (٣٧٠٦١) والقسم الأول منه في «الإصابة» في ترجمة زيد وقال: سنده صحيح.
(٢) علىٰ أن حبهم ينبغي أن يكون محكوماً بقوله ﷺ: (أحبوا أهل بيتي لحبي)، فحبهم فرع عن حبه ﷺ، ولكن بعض الناس غلا في هذا الأمر، حتىٰ أصبح حب النبي ﷺ بالنسبة إليهم ما يكاد يذكر بجانب حب آل بيته ﷺ، وهذا المسلك خروج علىٰ سنته ﷺ.
إن حب آل البيت لا يعني بحال من الأحوال الغض من مكانة بقية الصحابة ﷺ، قال أبو بكر بن عياش: لو أتاني أبو بكر وعمر وعلي، لبدأت بحاجة عليٍّ قبلهما، لقرابته من رسول الله ﷺ، ولأن أخر من السماء إلىٰ الأرض أحب إلي من أن أقدمه عليهما. [الشفا ٦١٠/٢١].
(٣) رواه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (خير أمتي القرن الذي بُعثت فيهم..)[1].

وقد حاز هذا الجيل من الفضائل ما لا يمكن إحصاؤه، وما لا يمكن أن يتوفر لجيل آخر يأتي بعده.

ويكفيهم أنهم رأوا رسول الله ﷺ وصحبوه، وبذلوا أموالهم وأنفسهم دونه فاستحقوا الثناء من الله تعالىٰ في أكثر من موطن في كتاب الله تعالىٰ.

فمن واجب كل مسلم أحبّ الله ورسوله أن يحبهم في الله ولله، ومَن يكون غيرهم أهلاً لهذه المحبة إن لم يكونوا هم أهلها والأحق بها؟

وقد جاءت أحاديث كثيرة في حب الأنصار ﷺ منها:

(الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق، فمَن أحبهم أحبه الله، ومَن أبغضهم أبغضه الله)[2].

(آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)[3].

(لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر)[4].

وغيرها كثير..

وما كان تخصيص الأنصار بذلك إلا من باب التأكيد لحقهم وذلك لما ورد من أن الأنصار يقلُّون والناس يكثرون[5] فأحب ﷺ أن يحفظ لهم حقهم. وإلا فالصحابة كلهم ينبغي أن نكنّ لهم الحب الكبير. وما المهاجرون بأقل حظاً في هذا من الأنصار. والرسول ﷺ

(١) رواه مسلم (٢٥٣٤).
(٢) رواه البخاري (٣٧٨٣)، ومسلم (٧٥).
(٣) رواه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤).
(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٧٦)، وعن أبي سعيد برقم (٧٧).
(٥) رواه البخاري (٣٨١)، ومسلم (٢٥١٠).

يقول: (لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار)[1]

إن الأمر بحب الأنصار هو أمر - ومن باب أولىٰ - بحب كل الصحابة ﷺ وقد جاء التحذير من الإساءة إليهم أو سبهم جميعاً. قال ﷺ:

(لا تسبُّوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً، ما بلغ مدَّ أحدهم ولا نصيفه)[2].

ويكفي في هذا الحديث أنه بيان لمكانتهم عند الله تعالىٰ، وبيان لدرجات أعمالهم.

إن درجة الصحبة لا يعدلها شيء، وبغض النظر عن هذه الدرجة فهم يُحبون لله لالتزامهم بأوامر الله تعالىٰ واتباعهم سنة نبيه ﷺ فليس في الأجيال التي بعدهم مثلهم في هذا الجانب بل وفي ميدان الفضائل عموماً. وفي مثل هذا يكون الحب في الله ولله..

ولقد أحبّ بعضهم بعضاً، وهم الأسوة.

وقد قال أنس ﷺ: «فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم..»[3].

ولما وضع عمر ﷺ علىٰ سريره، اجتمع الناس يدعون ويصلُّون، وكان فيهم ابن عباس، قال: فلم يرعني إلا رجل آخذ منكبي فإذا هو علي بن أبي طالب، فترحم علىٰ عمر وقال:

«ما خلفتَ أحداً أحب إلي أن ألقىٰ الله بمثل عمله منك..»[4].

(١) رواه البخاري (٧٢٤٤).
(٢) رواه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١).
(٣) رواه البخاري (٣٦٨٨)، ومسلم (٢٦٣٩).
(٤) رواه البخاري (٣٦٨٥)، ومسلم (٢٣٨٩).

إنها كلمة في الحب والتقدير تعجز الكلمات أن تشرحها أو توضحها، فهي أبلغ من كل كلام آخر..

وإذا كانت هذه نماذج من حب الصحابة لبعضهم، فمهما بذلنا لهم من الحب فإنا لا نبلغ أن نوفيهم حقهم.

* * *

«إن محبة مَن أحبّه الرسول ﷺ كآل البيت وأصحابه ﷺ علامة علىٰ محبة رسول الله ﷺ.. ومن محبتهم وجوب توقيرهم وبرهم والقيام بحقوقهم والاقتداء بهم.. وحسن الثناء عليهم.. وقد أثنىٰ الله تعالىٰ عليهم في كتابه المجيد..»[1]

(١) «المواهب اللدنية» للقسطلاني ٣/٣٩٣.

الفصل التاسع

أدبوا أولادكم علىٰ حب نبيكم

هذا ما رواه علي ﷺ عن النبي ﷺ في حديث له، حيث قال:

(أدّبوا أولادكم علىٰ ثلاث خصال:

حب نبيكم.

وحب آل بيته.

وتلاوة القرآن، فإن حملة القرآن في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله مع أنبيائه وأصفيائه)[1].

* * *

والسؤال المطروح: ما هي الطريقة التي تساعدنا علىٰ غرس هذا الحب في نفس الطفل.

ولا شك أن الوسائل تتغير مع تغير الزمن، كما أن الأشخاص ليسوا متساوين في القدرات التي يسخرونها للوصول إلىٰ هذه الغاية.

ولكن الأمر الثابت هو أن الطفل مفطور علىٰ حب القصص، وما زالت الأمهات والجدات يروين القصص لأبنائهن بطرق مختلفة، فبعضهن

(١) قال في «كشف الخفا» ٧٦/١: رواه أبو النصر الشيرازي في «فوائده»، وابن النجار في «تاريخه». وعزاه في كتاب «تربية الأولاد» لمؤلفه عبدالله علوان رحمه الله إلىٰ الطبراني. وهو وإن ضعفه المناوي فالأحاديث التي تؤيد معناه كثيرة.

يستعمل أسلوب الغناء في قصصه وبخاصة عندما يراد تنويم الطفل، فإذا كبر قليلاً رويت له القصة بأسلوب الحكاية..

إن هذه الفطرة في الطفل ينبغي الاستفادة منها في تعريفه بالنبي الكريم ﷺ. وبمقدار ما يكون التعريف واضحاً وجذاباً.. بمقدار ما نكون أقرب إلىٰ هدفنا.

وليكن البدء في هذه القصص من التعريف بالمكان والزمان..

فنحدثه عن مكة المكرمة.. فنصف له مكانها.. ونحدثه عن البيت الحرام.. وهذا يضطرنا إلىٰ الحديث عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وبناء البيت.. ومنه يكون الانتقال إلىٰ قداسة البيت.. وبيان مكانته...

ونحدثه عن الزمان.. عن عام الفيل.. وقصة الفيل.. وأن ذلك كان تقديماً لمولده ﷺ.

ثم نحدثه عن مولده يتيماً، واحتفاء جده به..

وعن ترعرعه.. وصدقه وأمانته.. وذكائه..

وبهذا وأمثاله تبدأ شخصية الرسول ﷺ تأخذ أبعادها ومكانتها في نفس الطفل.

فإذا كبر الطفل ونما إدراكه كان من المستحسن ربط بعض الأعمال اليومية بشخصه ﷺ.. فعندما نأكل ونستعمل يدنا اليمنىٰ في ذلك نبين له أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك، ونحن نفعل مثلما يفعل..

وعندما نشرب أو نأكل نبدأ بقولنا «باسم الله».. وأنا نفعل كما فعل رسول الله ﷺ، وكذلك نحمد الله بعد ذلك.

* * *

وبهذه الطريقة يكون الرسول ﷺ حاضراً في ذهن الطفل عند

كل عمل يقوم به، ومن المهم بيان الحكمة في كل عمل نتبعه فيه، حتىٰ يشعر الطفل بتميزه ﷺ وأن الخير في كل عمل يقوم به.. وبهذا يأخذ الحب مكانه في نفس الطفل وينمو يوماً بعد يوم..

* * *

إن الطفل عندما ينشأ في البيت المسلم، وقد عرف كلٌ من الوالدين واجبه تجاهه من حيث تربيته وفق منهج الإسلام، فسوف تكون صلته قوية بالرسول ﷺ، وسوف يكون حاضراً دائماً في حياته، ففي كل عمل يقوم به المسلم سنّةٌ للرسول ﷺ يحسن مراعاتها.

ينبغي أن يعلم الطفل:

أنَّا نصلي كما كان يصلي رسول الله ﷺ.

وأنَّا نصوم كما كان يصوم.

وأنَّا نحج كما حج.

وأنَّا نسلّم علىٰ من نلقاهم كما كان يسلّم.

وأنَّا ندخل المسجد ونخرج منه كما كان يفعل..

وأنَّا.. وأنَّا..

وهكذا يكون له ﷺ حضور في ذهن الطفل مع كل عمل يراه أو يقوم به.

يصاحب هذا حضور ذكري حيث ينبغي أن نعلمه أن يصلي علىٰ النبي ﷺ كلما ذكر، ونبين له ثواب ذلك: وأن مَن صلّىٰ عليه صلاة واحدة صلّىٰ الله عليه بها عشر صلوات، وحطَّ عنه عشر خطيئات، ورفعه عشر درجات[1].

وأن الله تعالىٰ من حبه له جعل ذكره يتردد علىٰ مسامع المسلمين في كل يوم في الأذان خمس مرات، وفي الإقامة كذلك.

(١) رواه النسائي (١٢٩٦).

وكذلك نذكره في التشهد عقب الوضوء، وفي التشهد في الصلاة..

إن حياة المسلم معطرة بحضوره ﷺ ذهناً وذكراً..

وكل هذه مؤكدات لتنمية الحب الذي نحن بصدد الحديث عنه.

* * *

فإذا بلغ السابعة أو الثامنة من العمر، كان علينا أن نصله بالسيرة المطهرة..

وقد مرَّ من قريب قول زين العابدين رحمه الله: «كنا نعلم مغازي النبي ﷺ كما نعلم السورة من القرآن».

والطفل في هذه السن يحب مواقف البطولة ويحب سماع رواياتها، ولئن كان الناس من غير المسلمين يملؤون أسماع أبنائهم بقصص من الخيال.. فإن السيرة مليئة بالمواقف الصادقة الثابتة.

وهذه المواقف لها قوتها الكبيرة في جعل الحب يهيمن على القلب..

فانظر مثلاً إلى قوله ﷺ مخاطباً عمه أبا طالب: (والله يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته أو أهلك دونه) كم يكون أثره كبيراً عندما يشرح تفصيلاً من خلال الموقف الذي قيل فيه والملابسات المحيطة به!

* * *

إننا اليوم أحوج ما نكون إلى إحياء السيرة في نفوس الكبار والصغار، بعد أن تمذهبت بعض دول المسلمين بمذهب العلمانية المتطرفة التي تعلن الحرب على الإسلام.. وبعد أن انحسرت دروس السيرة من المناهج الدراسية لبعض دول المسلمين.. يضاف إلى ذلك ما أصاب البيت المسلم من وهن وضعف تحت تأثير الإعلام الذي شغل وقت الناس.. فظهر الخواء الروحي..

وفي ظل هذا الواقع المؤلم تتضاعف مسؤولية الآباء والمربين..

على أنه مما يُسَهِّل مهمة الآباء والمربين والعلماء في شأن إحياء السيرة، وجعلها ماثلة في الأذهان، أن القرآن الكريم قد سجّل معظم أحداث السيرة، وفصَّل فيها القول. وقد جاء تسجيل الحدث الأول وهو نزول الوحي بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ﴾ ثم تتابع بعد ذلك نزول الآيات مسجلة الوقائع والأحداث ومن ذلك: الإسراء والمعراج، والهجرة، وغزوة بدر، وأحد، وحمراء الأسد، والنضير، والأحزاب، وقريظة، والحديبية، وتبوك، وفتح مكة.. وغير ذلك.

وإذا كان مطلوب منا أن نقرأ هذا الكتاب العظيم وأن نكون على صلة دائمة به، وأن نتدبر آياته.. فإن الصلة بالسيرة ستحصل تلقائياً..

فربط الناشئة بالقرآن الكريم، هو ربط لهم بالسيرة..

وكذلك ربطهم بالسنة النبوية المطهرة هو ربط لهم أيضاً بالسيرة، وهل السنة غير أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وصفاته؟

بل إن السيرة بالمفهوم الاصطلاحي تشكل ما يقرب من رُبع السنة المطهرة(1).

إن هذه المساحة الواسعة التي تأخذها السيرة من آيات القرآن الكريم، ومن السنّة النبوية الشريفة لهي الدليل الواضح على مكانتها.

وكلُّ حدثٍ يقرأه الإنسان فيها يضعه أمام صاحب الخلق العظيم فيزداد له توقيراً وحباً.

إن قراءتنا للسيرة وارتباطنا بها يجعلنا أمام الحدث الذي ارتبط بالرسول ﷺ وينقلنا إلى الزمان الذي حدث فيه ويوقفنا أمام المكان..

---

(1) يسّر الله لي جمع «الصحيحين». فكان معظم الجزء الرابع في السيرة، وكان الكتاب في أربعة أجزاء.

ويجعلنا نستشعر شخوص الصحابة ﷺ وهم يجيئون ويذهبون محيطين به ﷺ يأتمرون بأمره ويقفون عند قوله.

ولقد حرص الصحابة ﷺ على الاحتفاظ بهذه المعرفة في أذهانهم ونقلها إلى الناس بكل دقائقها. ولنستمع في ذلك إلى قول عبدالله بن مسعود ﷺ إذ يقول: «والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أُنزلت، ولا أُنزلت آية من كتاب الله، إلا أنا أعلم فيما أنزلت..»(١).

إن قول ابن مسعود ﷺ يبين لنا قيمة ربط الحوادث بالزمان والمكان وهو ما تفعله السيرة وما تهتم به.. فلنأخذ دورنا في توجيه الناشئة إلى ذلك.. لنكون وإيانا من محبي الله ورسوله ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

الفصل العاشر
علامات محبة الرسول ﷺ

درجات محبة النبي ﷺ:

بما أن المحبة من أعمال القلوب، فهي أمر غير منضبط. فليس ثمة مقياس تقاس به، ومع ذلك فقد ذهب كثير من العلماء إلى جعل محبته ﷺ على درجتين، منهم الإمامان: القرطبي وابن تيمية(١).

ويوضح لنا ابن رجب الحنبلي هذا الاتجاه بقوله:

«ومحبة الرسول ﷺ على درجتين:

إحداهما فرض: وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله، وتلقيه بالمحبة والتعظيم والرضا به والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه:

وطاعته فيما أمر به من الواجبات.

والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات.

ونصر دينه.

والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة.

فهذا القدر لا بد منه، ولا يتم الإيمان بدونه.

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الباب التالي.

والدرجة الثانية فضل: وهي المحبة التي تقتضي:

حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه، وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة.

والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه.

واهتزاز القلب عند ذكره وتصوره.

وكثرة الصلاة عليه لما سكن في القلب من محبته وتعظيمه وتوقيره.

ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين.

ومن أعظم ذلك: الاقتداء به في زهده في الدنيا، والاجتزاء باليسير منها، ورغبته في الآخرة»[1].

علامات محبته ﷺ:

كثر القول في شأن علامات محبة النبي ﷺ، وكثيراً ما عبّر بعضهم بالآثار عن العلامات، وبعضهم بالأسباب عن العلامات.

والمراد أن المحبة - وهي مرتبطة بالإيمان ارتباطاً وثيقاً - عندما تستقر في القلب، لا بد لها من آثار تظهر على الإنسان في تصرفاته وسلوكه، حتى تصبغ الإنسان بصبغة معينة، تصبح هذه الآثار فيها صفات لازمة للشخص، وهي المراد من علامات الحب.

وقد ذكر صاحب «فتح الباري» بعض هذه الأمور فقال:

«- أن لا يتلقى شيئاً من المأمورات والمنهيات إلا من مشكاته ﷺ.

(١) «استنشاق نسيم الأنس» ص٦١.

- لا يسلك إلا طريقته.

- ويرضى بما شرعه حتى لا يجد في نفسه حرجاً مما قضاه.

- ويتخلّق بأخلاقه في الجود والإيثار والحلم والتواضع وغيرها.

فمَن جاهد نفسه على ذلك وجد حلاوة الإيمان، وتتفاوت مراتب المؤمنين بحسب ذلك»[1].

وقد عقد القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» فصلاً تحت عنوان «علامة محبته ﷺ»، وقد يكون من المستحسن نقل الخطوط العريضة في هذا الفصل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«اعلم أن مَن أحبّ شيئاً آثره وآثر موافقته، وإلا لم يكن صادقاً في حبه، وكان مدعياً، فالصادق في حب النبي ﷺ من تظهر علامة ذلك عليه:

- **وأولها**: الاقتداء به، واستعمال سنته، واتباع أقواله وأفعاله، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره، ومنشطه ومكرهه، وشاهد ذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

- **ومنها**: إيثار ما شرعه وحض عليه، على هوى نفسه، وإسخاط العباد في رضا الله تعالى.

- **ومنها**: كثرة شوقه إلى لقائه، فكل حبيب يحب لقاء حبيبه، كما قال بلال رضي الله عنه حينما حضرته الوفاة - وقد قالت امرأته: واحزناه - قال: واطرباه، غداً ألقى الأحبة، محمداً وحزبه.

- **ومن علامات محبة النبي ﷺ كثرة ذكره له**، فمَن أحبّ شيئاً أكثر ذكره.

(١) «فتح الباري» ٦١/١.

- ومن علاماته - مع كثرة ذكره - تعظيمه له وتوقيره عند ذكره، وإظهار الخشوع والانكسار مع سماع اسمه.. وكان أصحاب النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلا خشعوا، وكذلك كثير من التابعين.

- **ومنها:** محبته لمن أحبَّ النبي ﷺ، ومَن هو بسببه من آل بيته وصحابته، من المهاجرين والأنصار، وعداوة مَن عاداهم، وبغض مَن أبغضهم.

- **ومنها:** بغضُ مَن أبغضَ اللّهَ ورسولَه، ومعاداةُ مَن عاداه، ومجانبة مَن خالف سنته وابتدع في دينه، واستثقاله كل أمر يخالف شريعته. قال الله تعالىٰ:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

- **ومنها:** أن يحب القرآن الذي أتىٰ به ﷺ، ويتخلّق به، ويحب سنته، ويقف عند حدودها. قال ابن مسعود رضي الله عنه: لا يسأل أحد عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن، فهو يحب الله ورسوله.

- ومن علامة حبه للنبي ﷺ شفقته علىٰ أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم، ورفع المضار عنهم، كما كان رسول الله ﷺ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً»(١).

ومن علامات محبته ﷺ:

ومن علامات محبته ﷺ الالتزام بالآداب التي وجّه القرآن الكريم إليها في حقه ﷺ، وذلك مستمر في حياته ﷺ وبعد مماته.

ومن ذلك: ما جاء في سورة الحجرات من قوله سبحانه وتعالىٰ:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ

(١) «الشفا» للقاضي عياض، بتحقيق محمد علي البجاوي، ٢/٥٧١ - ٥٧٧، دار الكتاب العربي.

بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات].

فقد جاء في سبب نزولها ما رواه البخاري عن ابن أبي مُليكة قال: كاد الخيِّران أن يهلكا، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس، أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر - قال نافع: لا أحفظ اسمه - فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، قال: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ...﴾ الآية.

قال ابن الزبير: فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتىٰ يستفهمه(١).

ولئن كان سبب النزول خاصاً فإن الحكم عام، ولقد التزم الصحابة جميعاً بذلك، حتىٰ إن ثابت بن قيس - خطيب رسول الله ﷺ من الأنصار - الذي كان صوته مرتفعاً ظن بعد نزول هذه الآية أن عمله قد حبط فجلس حزيناً في بيته، حتىٰ افتقده رسول الله ﷺ وسأل عنه، فأخبر خبره فأرسل إليه (إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة)(٢).

ولقد كان سلوك الصحابة بعد نزول هذه الآية منضبطاً، فما كان أحد منهم يرفع صوته بحضرته ﷺ أو يحدّ النظر إليه تعظيماً له. كما جاء ذلك في وصفهم علىٰ لسان عروة بن مسعود، أحد المفاوضين في صلح الحديبية، حيث قال لقريش بعد رجوعه من لقاء النبي ﷺ: «أي

(١) رواه البخاري (٤٨٤٥).
(٢) رواه البخاري (٣٦١٣)، ومسلم (١١٩).

قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً.. إذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدُّون إليه النظر تعظيماً له»[1].

وقد استمر العمل بذلك بعد وفاته ﷺ فقد روى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن السائب بن يزيد قال: كنت قائماً في المسجد، فحصبني رجل، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب، فقال: اذهب فائتني بهذين، فجئته بهما، قال: مَن أنتما، أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ[2].

قال الحافظ ابن كثير عند تفسير الآية: «قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ، كما كان يكره في حياته عليه الصلاة والسلام، لأنه محترم حياً، وفي قبره ﷺ دائماً»[3].

وقال القاضي عياض: «اعلم أن حرمة النبي ﷺ بعد موته، وتوقيره وتعظيمه، لازم كما كان حال حياته، وذلك عند ذكره ﷺ، وذكر حديثه وسنته، وسماع اسمه وسيرته..

وقد ناظر أبو جعفر المنصور ـ أمير المؤمنين ـ مالكاً في مسجد رسول الله ﷺ، فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في هذا المسجد، فإن الله تعالى أدّب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات] ومدح قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

(١) رواه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) رواه البخاري (٤٧٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» سورة الحجرات ٤/٢٠٧.

وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات] وذم قوماً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات].

وإن حرمته ميتاً كحرمته حياً.. فاستكان لها[1] أبو جعفر[2].

ومن ذلك: ما وجه إليه القرآن الكريم في شأن تقديم الصدقة قبل مناجاته ﷺ. فقد جاء في سورة المجادلة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٢﴾ [المجادلة].

قال ابن كثير: يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين: إذا أراد أحدهم أن يناجي رسول الله ﷺ ـ أي يساره فيما بينه وبينه ـ أن يقدم بين يدي ذلك صدقة تطهره وتزكيه وتؤهله لأن يصلح لهذا المقام، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا﴾ أي إلا من عجز عن ذلك لفقره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فما أمر بها إلا من قدر عليها[3].

فهذا جانب آخر من إشعار المؤمنين بمقام النبي ﷺ وإكرام الله تعالى له.. والتزام تنفيذ هذا الأمر، هو طاعة لله تعالى، وتعبير عن الحب للرسول ﷺ.

وقد خفف الله سبحانه عن المسلمين أمر الوجوب فَنُسِخَ رحمة بالأمة، ولكن لازمه من التقدير والاحترام مازال قائماً لم ينسخ.

روى مجاهد عن علي رضي الله عنه: آية في كتاب الله عز وجل لم يعمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي، كان عندي دينار فصرفته بعشرة دراهم، فكنت إذا ناجيت رسول الله ﷺ تصدقت بدرهم، فنسخت

(١) فاستكان لها: أي خضع وخشع لمقالة مالك رضي الله عنه.

(٢) «الشفا» للقاضي عياض، ٢/٥٩٥ ـ ٥٩٦، تحقيق محمد علي البجاوي، دار الكتاب العربي.

(٣) تفسير ابن كثير عند الآية الكريمة.

ولم يعمل بها أحد قبلي ولا يعمل بها أحد بعدي ثم تلا هذه الآية[1].

والمراد أن النسخ يتناول نسخ الوجوب، وهذا لا يمنع أن يستمر الحكم علىٰ طريق الندب، وهذا ما فهمه كثير من العلماء، فكانوا ومازالوا يقدمون الصدقة عند إرادتهم السلام عليه ﷺ. وممن ذهب إلىٰ ذلك الإمام ابن القيم وذلك في قوله: «وقد أبقىٰ استحباب الصدقة عند المناجاة...»[2].

وهكذا جاء فهم الصحابة والتابعين ومن بعدهم علىٰ وجوب توقيره ﷺ حياً وميتاً، فالالتزام بهذا الأدب من علامات حبه ﷺ.

---

(١) «تفسير ابن كثير» عند الآية الكريمة وقوله: «ولا يعمل به أحد بعدي» أي علىٰ سبيل الوجوب.

(٢) «الجواب الكافي» ص(٢٧٦)، طبعة دار الكتاب العربي.

الباب الخامس

الحبّ في المجتمع الإسلامي

تمهيـــيـد

سبق الحديث في الفصل الثاني من الباب الأول عن مكانة المحبة، ورأينا كيف ذهب معظم الذين تكلموا في هذا الموضوع إلىٰ أن «المحبة» هي المركز الذي تصدر عنه كل حركة في الوجود الإنساني، بغض النظر عن نوعية هذه المحبة، إذ منها المحمودة، ومنها المذمومة.

وفي هذا الباب أحب أن أبين كيف أن الإسلام جعل من المحبة المحمودة عنصراً أصيلاً في بناء المجتمع، كما جعلها الرابطة التي تصل بين أفراده.

وهذا الموضوع، وإن لم يكن من مفردات البحث الذي نحن بصدده، وهو «حب الله ورسوله شرط في الإيمان» فهو ميدان فسيح لتظهر فيه تطبيقاته.

وقد جعل الله تعالىٰ اتباع الرسول ﷺ برهاناً علىٰ حبه سبحانه وتعالىٰ، كما جعله الطريق الموصلة إلىٰ حبه تعالىٰ لعبده.

وهذا الاتباع إنما هو عمل، سواء أكان في دائرة الأقوال، أو دائرة الأعمال.

وسوف أقتصر في طرح هذا الموضوع علىٰ:

- الحب في إطار الأسرة.
- الحب في إطار المجتمع.



الفصل الأول

مكانة الحب في الأسرة

من المعلوم والمشاهد أن العلاقة بين أفراد الأسرة ـ في كل المجتمعات ـ تقوم علىٰ أساس وطيد من الحب بين أفرادها، وذلك نابع من فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهذه الفطرة كافية في تلبية الحاجات من العناية بالصغير حتىٰ يكبر، وبالكبير عندما يُرد إلىٰ أرذل العمر، والتعاطف والتواد بين الزوجين والإخوة والأخوات.

وعندما لا نجد ذلك، أو نجده ولكنه لا يصل إلىٰ المستوىٰ المطلوب، فذلك يعني أن مؤثراً خارجياً طرأ فأثر علىٰ مسار الفطرة.

وقد جاء الإسلام لتقرير الفطرة وتكميلها، ولم يأتِ لتحويلها وتغييرها. فكان في تشريعه داعماً لها ومؤيداً، بل تحول رباط الحب في تشريعه ـ إضافة إلىٰ كونه تلبية للفطرة ـ إلىٰ أمر يثاب الإنسان عليه، لأنه بعض العبادة والطاعة لله سبحانه وتعالىٰ.

وفي الفقرات التالية توضيح ذلك بشكل مختصر:

والأسرة تتألف من الزوجين والأم والأب والأولاد.

الزوجان:

من الزوج والزوجة يبدأ إنشاء الأسرة، وقد أقام الإسلام العلاقة بينهما علىٰ أساس وطيد من المودة والرحمة، قال تعالىٰ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم].

والمودة من الود، وهو خالص الحب وألطفه وأرقه.

وفي قوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بيان وتقرير لوجود المودة والرحمة بين الزوجين لأن ذلك من صنع الله تعالىٰ.

وقد هيأ الإسلام في تشريعه الأسباب لتكون المودة والرحمة المناخ الذي يعيش في ظله الزوجان، من حسن اختيار كل منهما للآخر، وأن يكون أساس الاختيار هو الدين وهو الأمر الذي يصاحب الإنسان في حياته، ومنه تنبثق الأخلاق التي بها تكون المعايشة بين الزوجين..

كما أوصىٰ الرجال بحسن معاملة النساء، وجعل حسن هذه المعاملة مقياساً لفضل الرجل وكرامته..

ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

(إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً)[2].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

(خياركم خياركم لنسائهم)[3].

إن ما تحث عليه هذه الأحاديث وغيرها هو تأكيد لما جاءت به

(١) رواه الترمذي (٢٦١٢).
(٢) رواه الترمذي (١١٦٢).
(٣) رواه ابن ماجه (١٩٧٨).

الفطرة من ميل كل من الزوجين للآخر وحرصه على ما يكون به سعادته.

وفي سيرته ﷺ من حسن معاملته لأهله ما فيه الكفاية، وقد سأله عمرو بن العاص يوماً عن أحب الناس إليه فقال: (عائشة)[1]..

تلك هي سيرته ﷺ.

الآباء والأبناء:

وعندما يولد للزوجين أولاد، يصبح الزوج أباً، وتصبح الزوجة أماً.

وعلاقة الحب بين الآباء والأبناء لا تحتاج إلى إقامة الدليل عليها، إذ هي الفطرة التي أقامها الله في الخلق حتى تجاوزت الإنسان إلى الحيوان..

فالآباء والأمهات يحبون أبناءهم ويقدمونهم على أنفسهم في كثير من الأمور، والأبناء يحبون آباءهم وأمهاتهم ويسعدون برضاهم.

وقد صرح ﷺ بحب أبناء ابنته فاطمة كثيراً. وجاءه الحسن والحسين يوماً يسعيان فضمهما إليه وقال: (إن الولد مبخلة مجبنة)[2].

فبيّن ﷺ أن حب الأولاد يدفع إلى البخل والجبن.

وقد أوصى ﷺ الآباء بالأبناء فقال: (أكرموا أولادكم وأحسنوا أدبهم)[3].

وكان التأكيد على رفع مستوى هذا الحب والعطف بشأن البنات من الأولاد، والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٦٢)، ومسلم (٢٣٨٤).
(٢) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦).
(٣) رواه ابن ماجه (٣٦٧١).

قالت عائشة رضي الله عنها: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت فخرجت فدخل النبي ﷺ علينا فأخبرته فقال: (من يلي من هذه البنات شيئاً كن له ستراً من النار)[1].

وهذا الحديث فيه دلالتان:

ـ **الأولى**: فطرة الحب في الأم لابنتيها فقد قدمتهما على نفسها فقسمت التمرة بينهما ولم تأكل منها.. وهذه طبيعة الأمومة.

ـ **الثانية**: ثواب العناية بتربية البنات خاصة.

ولا شك بأن الأبناء يبادلون الآباء حبهم وودهم، وقد دعمت الآيات والأحاديث هذا الحب، وحثت على تنميته وتوسيع دائرة تطبيقاته.

قال تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وقال تعالى:

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

والآيات في هذا الموضوع كثيرة.

وكلمة ﴿إِحْسَٰنًا﴾ من (الإحسان) الذي هو في طليعة محاب الله تعالى كما رأينا في الباب السابق، وليس هناك من كلمة تقوم مقامها وتؤدي معناها ودرجتها وقد سبق الحديث عن ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٥٩٩٥)، ومسلم (٢٦٩٩).

ثم قرن الإحسان إلىٰ الوالدين بعبادة الله وحده في الآية الأولىٰ، وبالعبادة له وعدم الإشراك به في الآية الثانية، وهذا إشارة واضحة إلىٰ مكانة الوالدين ومكانة الإحسان إليهما في دائرة أعمال الخير.

والإحسان بالنسبة للوالدين لا يكون إحساناً حتىٰ يكون نابعاً من دائرة الحب.

وكيف لا يكون الأبوان أحب الناس إلىٰ الإنسان وهما طريقه إلىٰ الجنة، فعن أبي هريرة ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه) قيل: مَن يا رسول الله؟ قال: (مَن أدرك والديه عند الكبر، أحدهما أو كليهما، ثم لم يدخل الجنة)[1].

وجعل للأم مكانة متقدمة، كما جاء ذلك في حديث أبي هريرة أيضاً ﷺ قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، مَن أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم مَن؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم مَن؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم مَن؟ قال: (ثم أبوك)[2].

وهكذا تأتي النصوص كثيرة متعاضدة لتؤكد ما قررته الفطرة من حب الوالدين، ثم ترجمة هذا الحب من لغة العواطف إلىٰ لغة العمل والآثار التي يبعث عليها الحب.

وهكذا تسود لغة التعامل علىٰ أساس من الحب بين الزوجين ثم بين الآباء والأبناء وبين الأبناء والآباء..

صلة الرحم:

ولا يكتفي الإسلام بوضع الأسرة في نطاقها الضيق تحت رابطة الحب، بل يوسع دائرتها حتىٰ تشمل الأقارب فيما أطلق عليه اصطلاحاً

(١) رواه مسلم (٢٥٥١).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧١)، ومسلم (٢٥٤٨).

اسم «ذوي الأرحام» أو «ذوي القربى». والآيات والأحاديث كثيرة في هذا الشأن أكتفي منها بحديثين:

فعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: (الرحم معلقة بالعرش تقول: مَن وصلني وصله الله، ومَن قطعني قطعه الله)[1].

وعن جبير بن مطعم ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (لا يدخل الجنة قاطع رحم)[2].

فهل بعد هذا من تأكيد لتفعيل عاطفة الحب في نطاق القرابة في إطارها الواسع؟

وهكذا تتوسع دائرة «الود والرحمة» التي جعلها الله بين الزوجين لتكون ظلالاً وارفة يتفيأ تحتها كل الأقارب.

(١) رواه مسلم (٢٥٥٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦).

الفصل الثاني
مكانة الحب في المجتمع

إن قاعدة «الود والحب» التي أقام الإسلام بناء الأسرة عليها، هي نفسها التي أقام المجتمع عليها. وما المجتمع إلا الأسرة في مفهومها الواسع، كما جاء في التصور الإسلامي.

المجتمع الإسلامي:

إن وصف المجتمع الإسلامي وبيان القواعد التي يقوم عليها، أمر يحتاج إلىٰ وقت طويل وكلام كثير.

ولكن من أوتي جوامع الكلم ﷺ يضع بين أيدينا هذه الصورة واضحة ناصعة في كلمات قليلة، بحيث ترتسم في خطوطها الواضحة آخذة أبعادها في نفس كل مسلم، حتىٰ يعرف مكانه علىٰ هذه اللوحة، التي هي تقرير للواقع وبيان له، كلما استطاع المسلمون الارتقاء إلىٰ التطبيق لأوامر هذا الدين الحنيف.

جاء في الحديث المتفق عليه، عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

(ترىٰ المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد

الواحد، إذا اشتكىٰ منه عضواً، تداعىٰ له سائر جسده بالسهر والحمى)[١].

- إنهم جسد واحد.

- روحه الود والحب والتراحم والتعاطف.

- هذا الجسد شديد التماسك والترابط، فعندما يتألم منه عضو، يتألم الجسد كله، لتألم هذا العضو.

فالروح القائمة في هذا الجسد تصل إلىٰ كل خلية فيه، فمفاصل الأعضاء لا تمنع تواصلها، وكذلك هي في الواقع، فإن الحدود والحواجز الجغرافية لا تحول دون تواصل هذا الجسد من خلال وحدة هذه الروح القائمة علىٰ الحب والود، المنتج للتراحم والتعاطف.

إن هذه الصورة للمجتمع التي أقامها الإسلام علىٰ أرض الواقع إنما وصل إليها من خلال صبغة الأفراد فيه بصبغة الإيمان، وقد رأينا أن الحب شرط في استكمال الإيمان.

ثم جعل من هؤلاء الأفراد «إخوة»، فاتحد المضمون وتساوىٰ الشكل وعندها قام البناء قوياً متيناً، كما قال ﷺ:

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً).

وشبك بين أصابعه[٢].

فما هو دور الأخوة في هذا البناء؟

الأخوة:

قال الله تعالىٰ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

وقال تعالىٰ:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالآية الأولىٰ تقرر أن الأخوة هي العلاقة التي تربط المؤمنين مع بعضهم.

وتسجل الآية الثانية امتنان الله تعالىٰ علىٰ الصحابة من الأوس والخزرج - الذين كانت الحروب قائمة بينهم - بأنه سبحانه ألّف بينهم، وليس هذا فحسب، بل ارتقىٰ بهذا التأليف حتىٰ جعله - بنعمته - بدرجة الأخوة.

وكلمة «إخوة» الواردة في الآية هي: جمع أخ.

وأخوك: مَن ولدته أمك من أبيك. فأنت وإياه تشتركان بالأب والأم.

وعلاقات القرابة الرئيسة ثلاث: الأبوة، والبنوة، والأخوة.

فعلاقة الأبوة: تعني العلاقة التي تربط الأب أو الأم بالأبناء.

وعلاقة البنوة: تعني العلاقة التي تربط الأبناء بالأب والأم.

فالأولىٰ علاقة الأعلىٰ بالأدنىٰ والثانية بالعكس.

أما «الأخوة» فهي العلاقة الرابطة بين الأخ وأخيه.

وهي بهذا المعنىٰ علاقة مساواة، فالأخ الأول يساوي الثاني في الأب والأم، وهذا ما يفسر لنا اختيارها من قبل المنهج الإسلامي لتكون «الرمز» الذي يعبّر عن علاقة المؤمن بالمؤمن.

فهي رابطة قوية في النسب، لا ترتقي إليه أي رابطة أخرىٰ مع ملاحظة معنىٰ المساواة.

وهي تعني الحب والإخاء بمعناه الأصيل، كما تعني عدم التفكير في تعالي الأخ علىٰ أخيه لأي سبب من الأسباب، حينما تكون الفطرة

في وضعها الصحيح بعيداً عن تدخل العوامل الخارجية.

وهكذا يتحول المجتمع المسلم إلىٰ إخوة.

وقد قدمت هذه «الأخوة» في مطلع الحياة الإسلامية في المدينة علىٰ أخوة النسب، حينما آخى ﷺ بين الصحابة، فأصبح الأخ في الإسلام يرث أخاه المسلم، دون أخيه من النسب إذا لم يكن مسلماً. ثم نسخ حكم الميراث وبقي الرابط قائماً.

إن أخوة الإسلام تحمل من «الحب» كل ما تحمل أخوة النسب، بل تزيد عليها ذلك أن رباط الإيمان لا يرتقي إلىٰ مستواه أي رابط آخر. وفي التاريخ وفي السيرة النبوية من الشواهد ما ليس خافياً علىٰ القارئ الكريم.

وهكذا أخذ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ مكانته في القلوب وفي الواقع الإسلامي.

بل أصبح اللفظ الرمز «الأخ» هو لغة الخطاب في السنّة النبوية الشريفة علىٰ اتساع مساحتها، وفي كل الميادين: في ميدان الأخلاق والآداب، وفي ميدان التشريع، وفي كل ميدان، وأصبح هو العنصر البارز في كل خطاب.

ولعل الأمثلة خير دليل علىٰ ما سبق.

● عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

(لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[1].

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

(.. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه..)[2].

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

● وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم علىٰ بيع بعض، وكونوا ـ عباد الله ـ إخواناً.

المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوىٰ هاهنا) ويشير إلىٰ صدره ثلاث مرات.

(بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم.

كل المسلم علىٰ المسلم حرام: دمه وماله وعرضه)[1].

● وعن عبدالله بن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته..)[2].

● وعن أبي ذر ﷺ قال: قال لي النبي ﷺ:

(لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقىٰ أخاك بوجه طلق)[3].

● وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو القاسم ﷺ:

(مَن أشار إلىٰ أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه..)[4].

● وعن عبدالله بن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

(لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام)[5].

● وعن عبدالله بن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٤) رواه مسلم (٢٦١٦).

(٥) رواه مسلم (٢٥٦١).

(أيما رجل قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما)[1].

● وعن عقبة بن عامر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل للمؤمن أن يبتاع علىٰ بيع أخيه، ولا يخطب علىٰ خطبة أخيه حتىٰ يذر)[2].

● وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

(يا أبا هريرة، كن ورعاً، تكن أعبد الناس، وكن قنعاً تكن أشكر الناس، وأحبَّ للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب)[3].

والأحاديث في هذا كثيرة..

وهكذا أصبح معنىٰ الأخوة الإيمانية هو الذي يسود المجتمع.

وإذا كان الإيمان لا يستكمل إلا بالحب، والأخوة منبع الحب، فإننا نستطيع أن نقدر أين هي مكانة الحب في منهج الإسلام.

وإنه ليكفي أن نمعن النظر في قوله ﷺ:

(لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[4].

فإنه ليس بعد ذلك من قول يقال.

الحب الخالص:

رأينا ـ من خلال النصوص السابقة ـ كيف ارتقىٰ الإسلام بالتعامل الاجتماعي ـ المادي والأخلاقي ـ فجعله تعاملاً بين إخوة مؤمنين،

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

(٢) رواه مسلم (١٤١٤).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٧).

(٤) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

يحب كل منهم لأخيه ما يحبه لنفسه، وهي درجة رفيعة، قلما يرتقي تفكير غير المسلمين فيتطلع إليها.

ومع ذلك فقد أراد الإسلام أن يرتقي الفرد من أبنائه إلىٰ أن يكون حبه خالصاً لله بعيداً عن كل أنواع التعامل، فلا تشوبه أي شائبة مما يتصل بالمصالح الدنيوية.

وقد سبق تفصيل الحديث عن هذا النوع من الحب عند الحديث عن أركان المحبة، وكان من أمثلة ذلك «الرجلان اللذان تحابا في الله فاجتمعا عليه وتفرقا عليه» وغير ذلك من الأمثلة والتطبيقات.

خاتمة
حب يتجاوز المكان والزمان

عندما يكون حب المؤمن لله، وفي الله، خالصاً من الشوائب، فإنه لن يكون محصوراً في دائرتي المكان والزمان.

أما من حيث المكان، فإن المسلم يكون في بلد ما، ثم يسمع بمسلم آخر في مكان بعيد ناءٍ، وهذا المسلم مطيع لله تعالىٰ، متبع لرسوله ﷺ، فعّال للخير، متصف بكل ما يحبه الله تعالىٰ، بعيد عما يكره.. فإنه يحبه وإن لم يلتقِ به، بل ربما لا يتوقع أن يلتقي به..

والمسلم يفرح للمسلمين إذا أصابتهم السراء في أي مكان من العالم، وإن لم يصله من ذلك شيء، ويحزن إذا أصابتهم الضراء في أي مكان من العالم، وإن لم يمسه من ذلك شيء..

أليس هذا هو الحب في الله وقد خرج من أسر المكان.

وأما من حيث الزمان، فإن المسلم وهو يراجع التاريخ ويقرأ صفحاته، فإنه يجد في نفسه حباً لكل من عمل من أجل رفعة الإسلام وسعادة المسلمين، ابتداء من رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﷺ ومن بعدهم.. إلىٰ الزمن الذي يعيش فيه، ويكره كل الطغاة وفي كل زمان ابتداء من أبي جهل ومن سار علىٰ نهجه.. إلىٰ من كان علىٰ شاكلته في الزمن الذي يعيش فيه.

بل إنه يوغل في الزمن أكثر من ذلك، فيحب موسىٰ ويبغض فرعون، ويحب أنبياء الله ورسله ويكره أعداءه في أي زمان عاشوا وفي أي أرض.

أليس هذا هو الحب في الله وقد خرج من إسار الزمان أيضاً.

لقد جعل الإسلام من نفس المسلم نسمة محبة للخير حيث كان مبغضة للشر حيث كان وهذا هو الحب في الله والبغض في الله.

وهذا ما عبر عنه ابن عباس رضي الله عنه بقوله:

«إني لآتي على الآية من كتاب الله تعالى، فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم.

وإني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه، فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً.

وإني لأسمع بالغيث قد أصاب البلد من بلاد المسلمين، فأفرح به، وما لي به من سائمة»(١).

* * *

وبعد:

هذا ما يسره الله تعالى لي في هذا الموضوع العظيم، الذي هو أكبر وأجل من أن يتناوله فرد مثلي، بضاعته من العلم قليلة، ولكن الحبيب ﷺ قال: (بلغوا عني ولو آية) وهذا ما دفعني للجرأة على الإقدام في تناول هذا الموضوع، لعل الله أن ينفع به، وقد يبارك الله بالشيء القليل، ويجعل فيه الخير الكثير.

ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) «مواعظ الصحابة»، تأليف صالح أحمد الشامي، ص(٣٥٦)، نشره المكتب الإسلامي.

فهرس أطراف الأحاديث والآثار

مِن مَراجِع البَحث

١ - **إحياء علوم الدين**، للإمام الغزالي، دار المعرفة بيروت.

٢ - **أسماء الله الحسنىٰ**، جمع وترتيب محمد متولي، مطابع الأصيل.

٣ - **الإصابة في تمييز الصحابة**، للإمام ابن حجر.

٤ - **إغاثة اللهفان**، للإمام ابن القيم، تحقيق خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي - بيروت ط٢.

٥ - **البداية والنهاية**، للإمام ابن كثير، ط١ عام ١٩٦٦م.

٦ - **البيان والتبيين**، للجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل - بيروت.

٧ - **تفسير القرآن العظيم**، للإمام ابن كثير.

٨ - **الجواب الكافي**، للإمام ابن القيم، دار الكتاب العربي.

٩ - **حلية الأولياء** للحافظ الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠ - **حياة الصحابة**، للعلامة الكاندهلوي، دار السلام، القاهرة.

١١ - **الرسالة القشيرية**، للشيخ عبدالكريم القشيري، تحقيق معروف زريق وزميله، دار الجيل، بيروت.

١٢ - **زاد المعاد**، للإمام ابن القيم، مؤسسة الرسالة.

١٣ - **الزهد** للإمام أحمد، دار الكتب العلمية - بيروت.

١٤ - **سيرة ابن هشام**، تحقيق السقا وزميليه، دار الكنوز الأدبية.

١٥ - **السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة**، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.

١٦ - **شرح الزرقاني علىٰ المواهب اللدنية**، دار المعرفة - بيروت.

١٧ - **شرح المعرفة وبذل النصيحة** للحارث المحاسبي، تحقيق صالح أحمد الشامي، دار القلم بدمشق.

١٨ - **الشفا** للقاضي عياض، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الكتاب العربي.

١٩ - **شفاء العليل**، للإمام ابن القيم، مكتبة العبيكان.

٢٠ - **صفة الصفوة**، للإمام ابن الجوزي، دار الكتب العلمية - بيروت.

٢١ - **صيد الخاطر**، للإمام ابن الجوزي، دار كاتب وكتاب، بيروت.

٢٢ - **طبقات ابن سعد**.

٢٣ - **فتح الباري**، للإمام ابن حجر، ترقيم فؤاد عبدالباقي، دار المعرفة، بيروت.

٢٤ - **الفتح الرباني**، لترتيب مسند الإمام أحمد، للشيخ أحمد عبدالرحمٰن البنا، دار الشهاب بالقاهرة.

٢٥ - **في ظلال القرآن**، للعلامة سيد قطب، دار الشروق.

٢٦ - **قاعدة في المحبة**، للإمام ابن تيمية، تحقيق فواز أحمد زمرلي، المكتب الإسلامي ودار ابن حزم.

٢٧ - **مجمع الزوائد**، تحقيق عبدالله محمد الدرويش، دار الفكر.

٢٨ - **مجموع الفتاوىٰ**، للإمام ابن تيمية، دار عالم الكتب.

٢٩ - **مدارج السالكين**، للإمام ابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.

٣٠ - **مسألة فيما إذا كان في العبد محبة لما هو خير وحق ومحمود في نفسه**، للإمام ابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، طبعت ضمن مجموع عنوانه (دراسات عربية وإسلامية) مهداة إلىٰ أديب العربية الكبير محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، القاهرة: ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

٣١ - **مواعظ الصحابة**، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.

٣٢ - **المواهب اللدنية**، للقسطلاني، تحقيق صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.

٣٣ - **المهذب من إحياء علوم الدين**، أعدّه صالح أحمد الشامي، دار القلم بدمشق.

٣٤ - **استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس**، للإمام ابن رجب الحنبلي، تحقيق الدكتور أحمد عبدالرحمٰن الشريف، المكتب الإسلامي.

٣٥ - **تقريب طريق الهجرتين** للإمام ابن القيم، أعده صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي.

٣٦ - **روضة المحبين**، للإمام ابن القيم، دار الكتاب العربي.



المحتوى

الباب الثالث

الطرق الموصلة إلى محبة الله تعالى للعبد

الباب الرابع

محبة النبي ﷺ

الموضوع	الصفحة

الباب الخامس

الحب في المجتمع الإسلامي



تفسير الكشاف
فهارس اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة
شواهد الحق
المقاصد الحسنة
سعادة الدارين
دلائل النبوة
محبة الله ورسوله شرط في الإيمان
صالح أحمد الشامي
لباب النقول في أسباب النزول
ISBN 81-89870-12-2
9788189870126
MARKAZ-E-AHLE SUNNAT
BARKAAT-E-RAZA
Imam Ahmad Raza Road, Porbandar (Gujrat-India)
Ph.: 0091-286-2220886 Mob.: 98242 77786